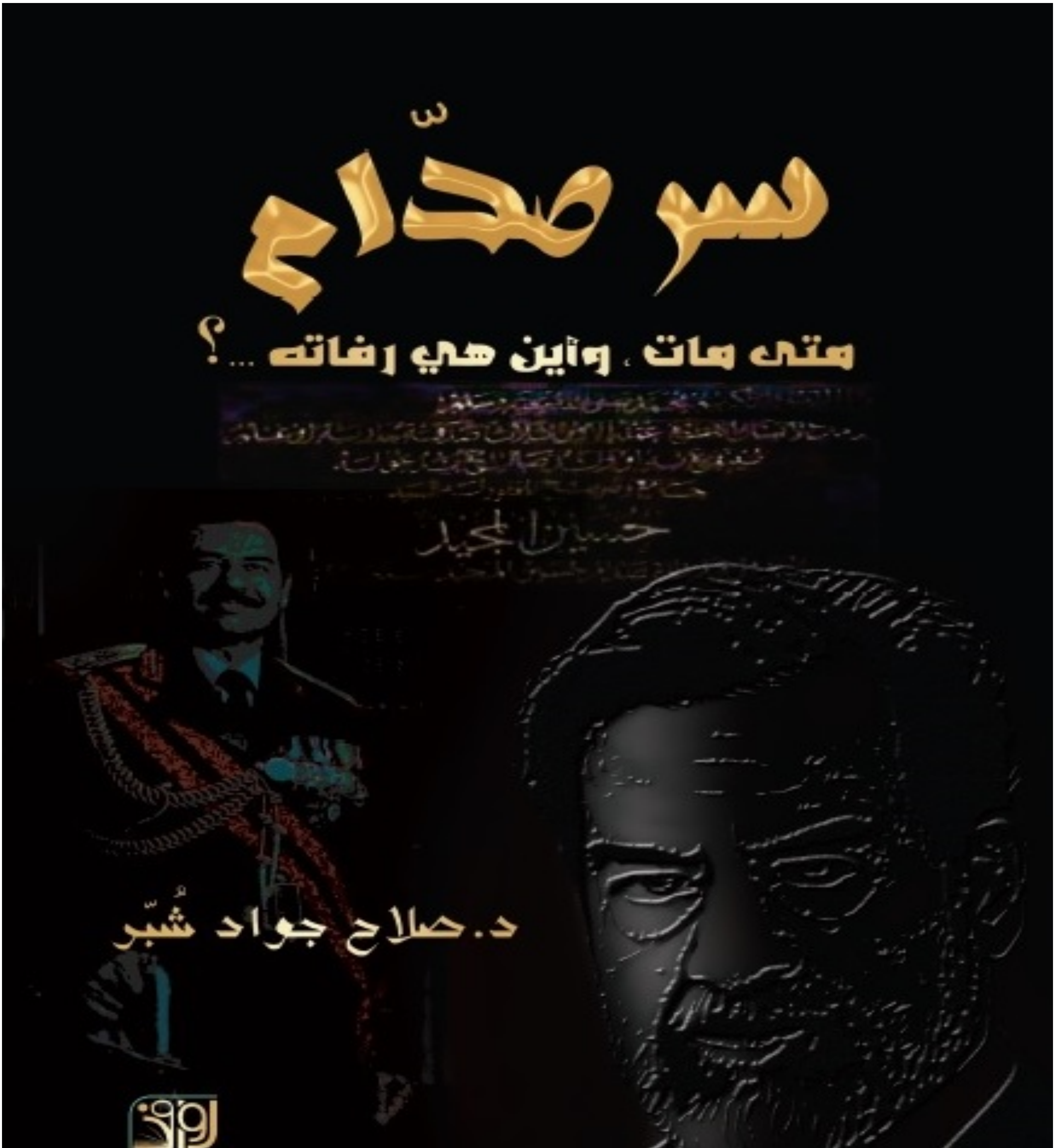
سرّ صدّام
متى مات ، وأين هي رفاته ...؟
د. صلاح جواد شُبّر

سر صدام......

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهداء

إنها عُدّتي منذ وعي الرجولة إلى يومي هذا، لها حدان.... حدٌ على السيف، وحدٌ على القرطاس...

نعم سيدي أُهديك دوماً كتبي، وأنا أرفل في خردة التمنيات.

حتى عرفت بأنهم لم يشعروا بأن العقل كان قد ترجّل عن جواد الإباء منذ زمن، وأن صهيله يحمحم فينا أن نكون عُرُباً كما ندّعي.

أهديه إلى أبي (الجواد) شبر الخطيب بضاعة أقل ما يقال فيها: إنها ليست من سنخيّة من تركوا جواد العقل لاوياً سرجه.

المقدمة

بعد سقوط الاتحاد السوفيتي في عام 1991 تغير العالم باتجاه واقع جدي ذلك بما سماه (بوش الأب) سياسة العالم الجديد (New World Order) أو عصر العولمة (Globalization) والذي استعصى على العرب أو المسلمين تعريفه بما يستحق، وإنما فسروه بما اشتهت أنفسهم أن يفسروه، فهو بالتأكيد لا يكرّس سيطرة (الدولة) على حساب الشعب أو المواطن، وإنما كانت أفكار تلك السياسة هي تذويب الحواجز التي خلقتها سياسة الحرب الباردة في أن يكون هنالك سلطة قوية أمام مواطن ضعيف.

فقد قدّم كبار المفكرين رأيهم إلى السياسيين الأمريكان نحو مستقبل العالم، وكان ذلك الرأي يعتمد ليس على مبدأ (التناقض والصراع) كما هي كلّ نظريات الصراعات الدولية والسياسية التي كُتبت منذ الحرب العالمية الأولى، وإنما استوحوا نظرية المشاركة في الحياة المنطلقة من حاجة كلّ فرد إلى الآخر، وعلى مستوى الدولة كذلك، فصارت حاجة الدولة إلى الفرد أكبر من حاجة الفرد إلى الدولة.

في ذلك الزمن كان على الأمريكان ممّن يحمل الفلسفة الأمريكية التي تمثل قمة حرية الإنسان وإبداعاته والمتمثل (بالحزب الجمهوري) أن يطوّر نظرية (وحدة العالم) من كلّ النواحي (الاقتصادية، الثقافية، الصحية، القانونية، التكنولوجية). . الخ، لأنه يعتقد بأن العقل

الأمريكي قد وصل إلى قمة التطور فليس هنالك من سبب في أن يدخل هذا العقل في صراع مع شعوب العالم الثالث، أو أن يكون الطمع الاقتصادي همه منها، وقد شخّص بأن مشكلة العالم تنحصر في الحكومات وفي إدارة الدولة.

وهنا كان على العقل الأمريكي أن يتعامل مع المشكلة العربية الإسلامية التي تعتبر في مبدئيتها من أعقد النظم الديكتاتورية في العالم على مستوى النظرية. فاصطدم المشروع بمشكلتين أولاهما هو (الظل الديني) والآخر (ظل إدارة النظام). فتوجه أولاً إلى الجانب الثاني من خلال فتح باب صغير في العراق لتكون السعودية الهدف. لأن السعودية هي الثقل الكبير في الشرق الأوسط. وهنا كان أمام أمريكا أن تتعامل مع النظام العراقي لما فيه من تعقيدات وهو ما تناوله هذا الكتاب.

كما حارب صدام العراقيين بالخوف فقد حارب بقية دول العالم الشرقي والغربي بسياسة البداوة المتحجرة التي تتكون من تشويش وغياب المعلومة، فأحرج الغرب حول شخصيته الغامضة بديكتاتوريته التي تمثل كلّ العراق، فاختلق لنفسه مجموعة من (البُدلاء) يصل ربما عددهم إلى سبعة ينوبون عنه في الظهور وفي اللقاءات.

إن دول الجوار المهتمة بالعراق، كانت تنتظر اليوم الذي يتبين الوضع العراقي المتمثل بشخصية صدام وفيما إذا كان الرجل حياً أو ميتاً لكي تبني على أساسه طبيعة مصالحها في العراق. . . . . هذا في الوقت الذي كانت تلك الدول ترى بأنه لمن الأفضل أن يبقى عراقاً ضعيفاً من أن يتحول إلى ساحة للديمقراطية، فكانت تلك الدول جادة

في أن تمنع أمريكا من أن تجازف في مشروع التغيير من خلال الاجتياح العسكري. ولكنّ أمريكا كان لها أجنداتها وهذا ما ذكره (ساندي برغر) مستشار الأمن القومي بأن العراق هو هدف مرحلي، ولكنّ السعودية هدف استراتيجي، والدول العربية هدف نهائي.

وفي ظل إبقاء غموض موت صدام من عدمه، على (بوش) أن يتحرك من منطلقين يشاركه فيهما (بلير) فقط، وهما: الجانب الثيولوجي، وجانب القوة الأمريكية. ولكنّ التوقيت هنا لم يكن بيد أحد حينما تسربت قضية (موت صدام) إلى وسائل الإعلام الإيرانية والعربية ووثقّها عالم الأدلة الشرعية (د. ديتر بومان) الألماني والتي تعني بأن العراق وبموت صدام فإنه سوف يعيش حالة ترقب كبرى قد تقفز إلى السلطة قوى إيرانية أو شيعية (متشددة) (كما هم الطالبان) في ظل التأكد من غياب صدام.

وهنا استعجل بوش، وكان عليه أن ينهي المهمة قبل انتشار موضوع موت صدام وتحويله إلى حقيقة علمية، فوجهت الولايات المتحدة الأمريكية قواتها فاحتلت العراق. ولكنّه عندما دخل العراق واجه مشاكل جمة مع القادمين الجدد كان أهمها هو غياب (المعرفة) واشتداد الصراع، وبدائية النظر إلى المستقبل. في الوقت الذي كان على أمريكا أن تحوّل مشكلة العراق وديكتاتوريته العمياء على مدى ثلاثين سنة إلى محكمة شبيهة بمحكمة (نورمبرغ) الألمانية وذلك كبداية للتغيير العربي الشامل، ولكنّ ذلك لم يتمّ، فكان على أمريكا أن تهيء مسرحية لمحكمة هزيلة تورطت فيها بعد أن اكتشفت بأن صدام كان قد مات في عام 1999، وأن الشخصية التي أمامها هو ممثل بارع وأحد أشباهه.

وأمام هذه المشكلة كان عليها أن تغير في وجوه المسرحية (قواعد اللعبة) وأن تخرجها بالطريقة التي تحفظ بها ماء وجهها. وهكذا خرجت المحكمة مسرحية بائسة مضحكة، كما هي مسرحية أدلة امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل.

فالهدف كبير وضخم ولكنّ الوصول إليه صعب ومعقد بسبب نوعية الأسلحة التي اعتمدت في المواجهة ما بين الطرفين. أعني بالأسلحة أسلحة (المعلومة). فقد استغربت أمريكا تمام الاستغراب أن يتم قيادة بلد مهم مثل العراق لخمس سنوات، في الوقت الذي كان الرئيس قد مات وأنّ قيادة (الظل) يملكون قدرة فائقة لإخضاع المجتمع العراقي لهدف الموت، فأين المشكلة إذن. . في الشعب العراقي، أم في نوعية الحكام، أم في كليهما. . . ؟

لم تستمر الشراكة مع العراقيين بعد أبريل 2003 إلى أكثر من ذلك بعدما أخفت الولايات المتحدة كلّ آثار (الجريمة) المختصة بالميت وخارطته الوراثية وغيرها، ممّا يمكن للتأريخ أن يراجعها بعد مئات السنين، وقالت للعراقيين: أمامكم بلد فاحكموه بطبيعة أدوات (البداوة) التي تمتلكونها. وبينما كانت أمريكا تعدّ العدة للرحيل انفجر الربيع العربي كإستجابة (لشكل) الديمقراطية التي تحلّى بها العراق، وكأن المنتفضين يريدون أن ينقلوا الرسالة الواضحة لأمريكا في الطلب منها التدخل لتغيير الأنظمة في تلك الدول.

إنّ أمريكا من جهتها لم تغير استراتيجيتها، بل وجدت أن العراق وتعامله مع فكرة الديمقراطية عبارة عن طفل يحبو، ويحتاج إلى فترة

أطول ثلاث مرات من عمر الإنسان لكي يصل إلى سن الرشد أي خمسين سنة. . . . فقالت لهم دونكم وطنكم وتعلموا من فترة (مراهقتكم) ممّا لم يتمكن صدام من أن يعلّمكم إياه، بينما وجدت في ذات الوقت بأن هنالك ممّن هم أكثر نضجاً في العرب والمسلمين من وصل إلى سن (الرشد) في أن يستوعب درس الديمقراطية السياسية.

إسرائيل. . (آفة) الفكر، كان لها في كلّ مرحلة قدرة على منع المارد الأمريكي من التحرك في تغيير عقليات أولاد عمومتهم (العرب) الذين ما فتئوا يقولونها بأنّنا أولاد (سام) يعرف أحدنا الآخر. وأولاد سام البدويون (الإسماعيليون) أبادهم الله ثلاث مرات بينما أقام أولاد (إسحاق - إسرائيل) حضارات سادت العالم. فاتركوا خُلق البداوة لنا لأن المشكلة ليست في السلوك، وإنما المشكلة الكبرى في ذات تركيبة العقل، فخلّوا بيننا وبينهم بني عمومتنا، فنحن الأقدر في أن نلحقهم بركب الحضارة.

أما إيران. . . حضارياً، فقد التقت مع النظرة الإسرائيلية الغريبة (وهذا ليس قدحاً) في استحالة تحضير البداوة العربية بما يتناسب مع مستوى العالم التكنولوجي، فهم يعتقدون بأنّهم - أي العرب - مبدعون في القتل والذبح، فهم من ذبح آل الرسول ورقصوا على دمائهم بأنشودتهم المعروفة وهم ينكُتون بعصا شفاه رأس ابن بنت نبيهم (ليت أشياخي ببدر شهدوا. . جزع الخزرج من وقع الأسل). . . أمم إن بقيت كما هي عليه فإن العالم قادم على هجمة بدوية تجتاح أمم الأرض، وتحطم حضارتها، وتغير الإنسان وتعيده إلى بدايات عصر التأريخ. . . . وهكذا أمم قوتها في حجم قتلاها وعدد (إمائها)،

فالجنس (الإماء) (Slave sex) والدم (قطع الرؤوس) هدفان كبيران يعتبرهما البدوي مآثر (حضارية) يفتخر بهما على حضارة الآخرين التي لا تعرف كيف تذبح، وكيف تنهي حياة شعب بسلاح كيمياوي، أو مديّة ذبّاح متفنن. إنها -إيران - جارة شاءت أم أبت إلى العراق، فعليها أن تكون على وعي من أن تجتاح بداوة التأريخ أرضها، وتشيع فيها ثقافة الدم والقتل.

كل تلك العوامل اعتملت في صفحات أفكار الكتاب بالطريقة التي قربنا إلى قارئنا المثقف ما عصي عليهم من أفكار، خصوصاً مشكلة البديل الذي ظهر في المحكمة، وطريقة تغيير ذات العقل الذي حلّت بداخله روح عملقة الروح الأصلية (الصدامية) من خلال الاقتراب من وسائل العلم فاعتمدنا على علم الأدلة الشرعية (Forensic) للتفريق ما بين شخصية الأصيل صدام، وبين من أدّى دوره كميخائيل رمضان، وفواز العماري، ووريسان جوهر، والدوري وغيرهم وآخرهم بل سيدهم هو جاسم العلي أو محمد علي، الشخصية (الراسبوتينية) الملهمة التي تمثل قدرة فائقة ممزوجة بالاعتقاد وبالتقمص إلى درجة الذوبان التي تحمل كلّ معاني التمييز الفكري والجسدي إلى الدرجة التي كان عليها أن تكون من شخصيات التأريخ الكبرى، كما هي شخصية (د. جيكل) و(مستر هايد) لما تفننت في قدرة كبرى على الجمع ما بين الشخصيتين.

إنّ الكتاب فيه الكثير من الثغرات وهذا اعتراف ليس من باب التواضع، كما هي سيرة من يكتب في مواضيع شائكة كهذا الموضوع، وإنما فعلاً أقولها، بل صراحةً أنني شخصياً وأنا أكتب الكتاب بقيت

أعاني من إشكالات كبرى فيما يتعلق بربط حوادث الصراع فيما يتعلق بمشكلة الجانب الشخصي للبدلاء وطريقة إدارتها وكيفية النهوض بالمهمة المكلفة بها. وقد تبقى هذه الأسئلة على صفحات عقولنا إلى الوقت الذي يجب على من يملك السر (أمريكا) أن تكشفه إلى التأريخ عندها في ذلك الوقت نكون قد قدمنا تراثاً إلى الآخرين أن يعالجوا ما فيه من ثغرات وأخطاء، فليس هنالك من يملك كلّ الحقيقة من المخلوقين، وممّن فطرهم الله على أن يكونوا محتاجين في نقصهم إلى المعرفة.

لا أقول ذلك اعتقادا بل تفهماً بما أمتلكه من ضعف أمام عملقة العقل الكبرى.. ولكنّني أعزّي نفسي في سؤالي منه تعالى أن يسدّدني في أن أكون قد أدّيت الأمانة بكلّ جهدي وطاقتي.

وفي النهاية ومع كامل تقديري إلى أخي وعضيدي د. مسلم الأسدي الملحق الصحي في السفارة العراقية في طهران، والذي لولاه لم أكن قادراً على أن أنهي هذا السفر القيم، فهو الشخصية التي قدحت في ذهني فكرة الكتاب، فكان له أكثر من عنوان أولهما هو النية التي كانت الدافع في تجنب العراق الحرب الأخيرة والاستعاضة عنها في تغيير آمن بدون سفك دماء أبناء هذا الشعب الطيب، فما أعظمه من هدف وما أروعها من نية وهي لو لم تكن له غير هذه النية لكفت لصاحبها كمثال لبعد نظرته ولوطنيته المميزة. فذلك لم يكن عن كلالة وهو المنتمي إلى أفخر لقب في أعزّ نسب.

صلاح جواد شبر

المستشار في وزارة الصحة العراقية

salah.shubber@yahoo.com, Facebook: Salah Shubber

بريمر:

We got Him....!!

- ما هذا الأمر المتعلق بصدام يا جون. . ؟
- نعتقد بأننا قبضنا عليه. . . . . .

كانت المحادثة تلك ما بين (جون أبي زيد)[1] قائد القوات للمنطقة الوسطية في العالم[2] في (قطر) في قاعدة (السيلية) المشهورة، وبين الحاكم المدني للعراق (بريمر) في الساعة الواحدة والنصف من صباح يوم الأحد المصادف 14 من شهر ديسمبر عام 2003 بعد أن طلب الجنرال من الرائد (بات كارول) (يتحدث العربية بطلاقة) المعاون العسكري لبريمر أن يوقظه من النوم.

- سيدي الجنرال، أبي زيد على التلفون الخاص السري (STU-III) في الغرفة المجاورة.

إنه لا بدّ وأن يكون أمراً مهماً جداً، لأنني أتحدث مع أبي زيد يومياً تقريباً، فليس هنالك من داعٍ أن تكون هذه المحادثة من خلال تلفون مؤمن بالسرية المطلقة شيئاً عادياً. . تمتم بريمر مع نفسه. . .

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/John_Abizaid.

(2) مواليد قضاء (جزين) في جنوب لبنان المدينة التي كانت في القرن الرابع عشر قد أقامت دولة على أراضيها ونصبت رجلاً فقيهاً من الشيعة ليكون رئيساً لها وهو شمس الدين محمد بن مكي العاملي صاحب كتاب (اللمعة الدمشقية)، وقد قتل في دمشق بالسيف ثم أحرق وصلب، سنة 786 هجرية.

ثم أعاد الكلام مع نفسه قائلاً: لا بدّ وأن هنالك أمراً مهماً في هذه اللحظات من الليل البارد، ولا بدّ أيضاً أن يكون خبراً سيئاً للغاية. . . .

دخل في هذه الأثناء (ديك جونز)[1] يرافقه رجل المخابرات وهو يتحدث إليه قائلاً:

- أخبر مستر بريمر بالأمر. . ؟
- لا أريد أن أفسد عليكم ليلتكم أجاب وكيل المخابرات رداً على سؤال (ديك).
- لا بدّ لك في أن تقولها. . . طلب (ديك).
- أعتقد بأننا قبضنا على صدام. . . . تفوه بها رجل المخابرات. . . .

تناول بريمر التلفون وإذا أبي زيد على الخط مخبراً بريمر. .

- نعتقد بأننا قبضنا عليه (يابول)، لقد وجد رجالنا في العمليات الخاصة رجلاً ملتحياً أشعث الشعر وسخاً في أسفل حفرة غير محمية في تكريت.
- وكيف عرفتم بأنّه صدام سأل بريمر. . . ؟
- عندما أخرجوه من الحفرة قال لهم أنا صدام حسين رئيس العراق، حدّقوا فيه فوجدوا فيه وشم وندب كنا قد أخبرنا جنودنا في تمييزه فيما لو تمّ القبض عليه[2].

---

(1) http://oversight-archive.waxman.house.gov/story.asp?ID = 798.

(2) عندما حاول نابليون (ت 1821) بعد هزيمته المريرة في معركة (واترلو) الشهيرة أن يهرب إلى الولايات المتحدة، فاستقل سفينة من مرفأ (روشفور) الواقع بغرب فرنسا =

- ولكنّ يا جون أنت تعلم، وأنا أعلم بأن صدام ومنذ سنين يستخدم شبيهين له لتضليل أعدائه، لنكن حذرين قبل أن نقع في ورطة كبرى، وتكون هذه الشخصية فخاً منصوباً لنا. . فهنالك كما يبدو الكثير من الشبهاء، وأحياناً يتم التشابه بالصوت وآخر بالشكل وآخر بالمظهر. . إذن علينا أن نكون حذرين جداً يا جون. . .
- اعرف، ذلك فهو الآن في بغداد لتنظيفه ثم إتمام مهمتين. . .
- وما هما حضرة الجنرال. . . . ؟
- عرضه على أصدقائه وقيادته السابقة. . . ثم فحص الحامض النووي. . . (DNA).
- أصدقائه من الصعوبة على طارق عزيز أن يقول غير ما يراه مناسباً، مع أنه من أكثر الأشخاص المتعاونين معنا، ولكن يبدو بأنه غير متأكد من نفسه، وهو مريض وضعيف الذاكرة. . . . .[1]. أمّا فحص الحامض النووي فإنني في شك في أن صدام له فايلاً ومرجع لدى القوات الأمريكية في خارطة (DNA). . . .[2].

= وتوجه غرباً لكنّه لم يبتعد كثيرًا إذ اعترضت طريقه بضعة سفن بريطانية وطالبت تفتيش السفينة، ولمّا عرض عليه مرافقيه الاختباء في إحدى البراميل، رفض بشدة معتبراً ذلك إهانة لكرامته، فاستسلم إلى البريطانيين، وطلب اللجوء السياسي من القبطان (فريدريك لويس ميتلاند) على متن سفينته (إتش أم أس بيلليروفون)، وذلك بتاريخ 15 يوليو سنة 1815.

(1) في مقابلة مع قناة العربية سأله علي الدباغ إذا كان قد التقى صدام في السجن أو رآه، أجاب بالنفي. . . انظر المقابلة على الموقع:
http://www.youtube.com/watch?v=Eaq7EUyzd9o.

(2) يبدو أن المخابرات الأمريكية لم تكن تملك الخارطة الوراثية لصدام، وإنما تمتلك =

- تماماً ما تقول.. ولكننا ليس لدينا الوقت لهدره في مثل هذا الظرف، فإذا كان عزيز ليس الشخصية المناسبة فهنالك عبد حمود أو آخرين، أمّا بالنسبة إلى فحص الحامض النووي فعليك خلال أقل من ساعة أن تجمع عينات من لعاب ومن خلايا المقبوض عليه وإرسالها إلى المختبر المتخصص....

- جيد.... شكراً لكم

انطلقت الطائرة العملاقة (C-17) عند الفجر قبل أن تتلون سماء بغداد بضياء الفجر حاملة عيّنة اللعاب وجزء من خلايا الشخص الذي تمّ القبض[1] عليه إلى ألمانيا لمقارنة الخارطة الوراثية مع ما تمتلكه المخابرات الأمريكية من شكل الخارطة الوراثية التي لديهم، فهي بالنسبة لهم عنوان كبير من عناوين مسيرة الحرب وشرعيتها التي تمّت في العشرين من شهر مارس من هذا العام 2003.

= عينة لأقاربه، ومع أن علم التشخيص له القابلية على ربط هذا بهذا بطريقة علمية معروفة، ولكنّ هنالك أكثر من شك وأكثر من احتمال بأن المخابرات الأمريكية لا تملك عينة من تلك الخارطة والتي تعتبر اليوم في العالم مرجعاً مهما جداً وتسعى المخابرات للدولة العظمى في امتلاك الخارطة الوراثية لكل شخصيات العالم وخصوصا العالم الثالث، وبالتحديد الملاحقين. ولكنّ المحادثة ما بين أبي زيد وبين بريمر كانت من الغرابة في أن يعتقد بأن أمريكا لا تمتلك الخارطة الجينيّة لصدام، وأنها تمتلك ما هو قريب، مع أنني أشك في ذلك بلحاظ ربما عدم معرفة أبي زيد بالأمور الطبية لأنه رجل عسكري وقانوني. كذلك بريمر فإنه كان يسأل عن الموضوع بطريقة التأكيد (راجع كتاب: عام قضيته في العراق، النضال لبناء غد مرجو، للسفير بول بريمر، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، 2006 ص 316).

(1) الخارطة الوراثية لأي شخص أي الـ (DNA) يمكن استخلاصها من أي خلية من جسم ذلك الشخص، فلو شرب الإنسان في كوب من الماء فيمكن استنقاذ خلية من فم الشارب من حافة ذلك الكوب، أو من شعرة من جلده أو ملابسه.

اخترقت الطائرة كبد السماء واتجهت إلى الشمال الغربي لكي تصل إلى ألمانيا في اليوم ذاته 14 ديسمبر المصادف الأحد بعد الظهر، والذي على أساسه سيتم فحص الحامض باستعمال تقنية (PCR) وأن تكون النتيجة جاهزة في حدود ليس أقل من 72 ساعة.

فكّر الرجل السياسي المحنك بريمر في الأمر، فهنالك أكثر من مشكلة أمام الواقع المفروض على الساحة.. رجل اعتقل... في حفرة... كما يقال... واعتقاله تمّ من خلال وشايات وليس من قبل معلومات مخابراتية.... ثم أن مشكلة التحقق من الخارطة الوراثية موضوع فيه أكثر من محذور، فهل من الممكن أن نخفي هذا الخبر العالمي بتلك المدة..؟ ومن يقول في أن الجيش الأمريكي يحتفظ بعينات من خلايا صدام أو من أقاربه..؟ ثم أن الأدلة الشرعية كثيرة وليست محصورة فقط بالنتيجة المختبرية فهنالك دلالة الصوت، ودلالة الأذن، ودلالة قزحية العين، ودلالة اليد، ودلالة بصمة الإبهام..... فلماذا إذن لم يعتمد على تلك الأدلة باعتبارها شواهد من النوع الذي لا يحتاج إلى فترة انتظار، ففحص الـ(DNA) ليس أول الفحوص التي تجرى للتثبت من نوعية الشخصية، خصوصاً مع رئيس دولة وخصوصاً مع صدام المطلوب عالمياً...؟ آمل أن تعلن الإدارة الأمريكية قبلاً بأنها حدّدت مكان صدام من نوعية نبرات الصوت المبرمجة بعد مكالمة تلفونية مع الملك عبد الله الثاني، وهذا ما يعني أن الإدارة تمتلك فعلاً نموذج لكل أدلة شخصيته المختلفة......

لم يتمكن الرجل من أن يتخذ الأمر بتلك السهولة، بل لم ينطبق جفناه بعد عودته إلى فراشة وقد أرخى ليل بغداد شبحه على سر عظيم

لم تألفه ملفات القضاء قبل هذا التأريخ. عندها قرر بريمر جفاء النوم والاستعداد ليوم مليء بالمفاجآت بل الأسوأ في تأريخ عمله السياسي الطويل، فكان هذا السياسي يفكر في خطة بديلة لو كان الرجل ليس صداماً، فما علينا أن نفعله في عالم غريب تتصارع فيه الأعداء بأسلحة لم نألفها نحن في عالم الغرب، فقضية الأشباه أمر مات في عالم السياسة منذ موت (ماوتسي تونغ)[1] أو ربما قبل ذلك بكثير ومنذ الحرب العالمية الثانية، فهو أسلوب لم يعتد الغرب عليه، ولم يمتلك خبرة في إدارته خصوصاً مع غياب المعلومات القياسية (Standard) التي يتم اعتمادها في مثل هذه الحالات. . . .

وبينما هو كذلك وإذا بالجنرال (سانشيز)[2] ترافقه العميدة (باربرا فاست Barbara Fast)[3] مسؤولة الاستخبارات في الجيش الأمريكي (التي أتُهمت وقدمت إلى المحكمة في فضيحة تعذيب سجن أبي غريب). وقد روت العميدة فاست كيف تمّت العملية بعد أن غيّرت الخطط التي توصلت إليها من أن العراقيين يمكن لهم في أن يبيعوا الكثير من المعلومات في ساعات المحنة، ثم أشارت إلى الصعوبة التي تواجه المخابرات من خلال الاعتماد على الوشاة وعلى المتطوعين في

(1) نشرت جريدة (China Daily) في هونغ كونك بأن الرئيس الصيني (ماو) كان قد اختفى منذ شهر شباط من عام 1966، والتي تعتقد بأنه قد مات، بينما أعلنت الصين عن موته بعد عشر سنوات من ذلك التأريخ أي في سبتمبر 1976. (جريدة الفجر الجديد العدد1561، 3 نيسان 1967، بغداد، العراق).

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Ricardo_Sanchez.

(3) http://enÁwikipediaÁorg/wiki/Barbara_Fast.

تقديم المعلومة وهو الفلترة في أيهما يجب أن يكون صحيحاً وأيهما خطأً، المهم في يوم السبت بتأريخ 13 سبتمبر الساعة الثامنة ليلاً هاجمت الفرقة الرابعة مكاناً معزولاً تبين بأنه كان مأوى، وبعد التحقق وجد الجنود قطعة من الكارتون تفضي إلى حفرة، وهنالك تمّت المناداة بتفجير المكان ما لم يتم إجابة النداء وإذا بالصوت من الملجأ ينادي: أنا صدام حسين رئيس العراق، وأريد التفاوض معكم. . . . ثم خرج بحالة رثة وتمّ اعتقاله ونقله إلى مركز صحي لمعاينته واكتشاف أمره، وفيما إذا كان هو الرجل المطلوب عالمياً، أم أنه رجل آخر(1) ثم وجدوا معه مسدساً وكذلك مبلغ 750 ألف دولار.

ليس من الصعوبة سيد بريمر التعرف على صدام بعينيه الحادتين وشكل فمه.

- ولكنّ نحن لم نر صداماً قبلاً قال بريمر. . .
- هذا تمام فقد حلقنا ذقنه وهذه هي صورته بعد وقبل الحلق، وليس من الصعب تبيين أنه هو صدام بعينه كما أعتقد قال سانشيز. . .
- أبداً لا تأمن صداماً ياحضرة الجنرال. . فهو يحاربنا بأسلحة

(1) في مثل هذه الحالات فهنالك الكثير من الأشخاص يدعون بأنهم الشخص المطلوب وذلك أملاً في الظهور الإعلامي والتباهي كما هو شأن الشخص المصري الشبيه بصدام وغيره. وهذه القضية تستعمل كثيراً في الولايات المتحدة سواء أكانت على مستوى الجنايات أو على مستوى الشهود، وهو أمر من الصعوبة التأكد منه. خصوصاً في قضايا الملاحقات التي غالباً ما يقوم الملاحق بخلق شخصيات أخرى لتضليل المعلومة في الوصول إليه.

قديمة وتعرف المثل العراقي الذي يقول: (أن الحجارة التي لا تعجبك هي التي تصيبك). . . فصدام رجل ذو خبرة على التخفي كما هي صفة البدوي في ليل الصحراء قد يصعب على الذئب أن يجد له مكاناً.

- أحضرنا قبل قليل أربعة من كبار السجناء من أنصاره وكان طارق عزيز منهم وكذلك عبد حمود ثم فتيّح الراوي وآخرين لكي يخبرونا إذا ما كان هو صدام الذي كان منطرحاً على فراش فأقروا نعم بأنه هو[1]. . . . . قالت العميدة فاست. . .

- كما هو موضوع المخبر الذي قادكم إليه، فقد يمكن أن تكون كلّ تلك العملية مخططاً لها، وأن هذا الذي معنا هو شبيه له، لأننا كما عرفنا بأن الجيش الأمريكي قد أعلن أكثر من مرة بأنه قتل صداماً في غارة من غارات الهجوم على بغداد وخصوصاً في يوم 20 من شهر مارس في منطقة (الدورة). أو ربما هنالك احتمال تدخل خارجي لإحراج الولايات المتحدة في عملية كهذه، أمّا بالنسبة إلى كبار البعثيين فإن الكذب هو ديدنهم، وهم الآن في وضع نفسي ربما لا يقدرون أن يميزوا بين الأصل والشبيه. . . . أو أنهم لازالوا يشعرون بالخوف من عودته وأننا سوف نتعاون معه في المستقبل، ولذلك فإنني أعتقد بأن كلّ العراقيين إذا لم يروا صداماً ميتاً فإن شبحه سوف يلاحقهم، وعليه فإنني لا أرى من مبرر في الاستعجال قبل أن نتأكد من البصمة الوراثية.

---

(1) كانت الرؤية من خلال غرفة ذات زجاج معتم يرى من جانب واحد كما هو أسلوب المخابرات التي نراها في الأفلام.

- إذن نحتاج إلى وقت قال سانشيز. . . .

- الوقت ليس من صالحنا أبداً وأنا أتوقع أن الخبر قد تمّ تسريبه الآن ونحن جالسون هنا. . . قالت مسؤولة المخابرات.

سكت الجميع بانتظار رأي جديد مختلف عن كلّ الآراء التي طرحت. . . . .

- لي رأي قال سانشيز. . . إنني أرى أن يتم نقل هذا الرجل إلى سفينة في عرض البحر حتى نتأكد من هويته. . .

- ليس هنالك من قانون يمنحنا هذا الحق قال بريمر، وهو معارض لاتفاقية جنيف، هذا من ناحية، من ناحية أخرى هنالك مشكلة أعيشها مع العراقيين فهم بارعون في نظرية المؤامرة، ويعتقدون بأن كلّ ما بذلناه وقمنا به هو عبارة عن خطة كاذبة، فإذا قمنا بنقل السجين هذا إلى الخارج فإن نظرية المؤامرة ستتأصل وعندها ستتأجج الأمور، فنحن بحاجة كبرى إلى أن نطمئن الشعب بأن صدام لا حول له ولا قوة وأنه تحت رحمة القانون. . . قال بريمر. . ثم استمر قائلاً: سمعت قبل أكثر من شهر في الصحافة بأن صداماً قد تمّ نقله إلى فلوريدا، كما أنني أستمع إلى نداءات تصدر من هنا ومن هناك صادرة من صدام بصوته تحث العراقيين على المقاومة.

- أها. . . قالت المرأة المخابراتية. . . . . إذن علينا أن نختار بين العراقية والدولية. . . . بالتأكيد الوضع العراقي لا يحتمل التأجيل، ولا يحتمل أن يخرج صدام إلى الخارج. . وبالمناسبة

سمعت خبراً بأن مجلس الحكم الذي قد وافق على تشكيل محكمة خاصة لمحاكمة صدام في حالة إلقاء القبض عليه مع أتباعه. . . وهذا معناه بأن الأمور معدة مسبقاً، ولكنني في ذات الوقت مستغربة من التحضير إلى أمور من قبل العراقيين قبل أن نعلمها نحن. . . . فمن هو المدير للعملية نحن أم هم. . ؟

- أنا أؤيدك يا حضرة العميدة. . قال بريمر. . . إذن ازدادت الشكوك الآن، وعلينا أن نعمل شيئاً ما. . .
- لماذا لا ندعو مجموعة من رجال الحكم إلى زيارة صدام والتأكد من شخصيته. . ؟ قالت العميدة. . .
- شيء جيد. . . وافق بريمر وسانشيز. . . . ثم أضاف بريمر قائلاً. . .
- من يذهب لمعاينة صدام والتأكد من شخصيته من مجلس الحكم هم ممّن لم يره إلّا لأول مرة، أليس كذلك. . . .؟ وأنهم هم ممّن رآه في التلفزيون فقط وهم لا يختلفون عن أي مواطن عادي، لأن الأمر هو أمر معرفة فلا أرى من ضرورة لذلك إلا لسبب التأكد من أننا قبضنا على شخص ربما هو وربما ليس هو. . . . كما أنني متشكك جداً في أن تكون الكلمة الفصل من قبلهم، فإنني أشدد على أن تكون تلك الخطوة لاحقة لنتائج الحامض النووي وليس قبله.
- لا أتصور أن هنالك من ضرر في ترتيب وفد لزيارته خصوصاً في ظل الضغط الإعلامي وفي جو العراق وصراع الأطراف وتسارع المقاومة التي تعمل ضدنا. . . قال سانشيز.

- تماماً هو ربما الرأي الوحيد على شرط أن لا نعتمد على أقوال مجلس الحكم في تقرير شخصية صدام 100% قال بريمر.
- جيد هكذا . . . قال الجميع.

جلس بريمر مع مساعده (ديك جونز) الاستخباري العريق الذي كان يشغل منصب السفير الأمريكي في الكويت لكي يرسم الخطة المقبلة التي من الممكن أن يتم بها ترتيب الاستفادة من عملية القبض على صدام من خلال طريقين:

أولاً: وضع المقاومة أمام أمر واقعي في أننا على استعداد للتفاوض بعد إلقاء القبض على صدام.

ثانياً: إعادة ثقة العراقيين بنا، ثم ترتيب أمورهم في بناء بلدهم.

بعد ظهر ذلك اليوم اتصل سانشيز ببريمر لكي يخبره بأن وزير الدفاع الأمريكي (رامسفيلد) كان قد أخبر الرئيس بوش بعملية إلقاء القبض على صدام وهو في منتجعه في (كامب ديفيد) ليوم الأحد عصراً فقال الرئيس الأمريكي مباشرة: نعم (أنه يتوقع أن يكون الرجل المعتقل هو صدام حسين في الواقع)، وكان ينوي الظهور على شاشة التلفزيون الأمريكي بعد ظهر ذلك اليوم (فرق الوقت 8 ساعات مع بغداد) وأن يزف إليهم خبر اعتقال صدام[1].

---

(1) إنه لأمر محير جداً لا يمكن تصديقه ولا استيعابه من قبل أي سلطة قضائية أو تشريعية، فكيف بالأمر مع رئيس أكبر دولة في العالم، فإذا تمّ اعتقال سارق في أمريكا فإنهم لا بدّ وأن يعرضوه إلى إثبات الهوية إمّا من خلال المعلومات الشخصية أو البيولوجية فهي خطوة مهمة جداً لكل من يتعامل مع القضاء، أو مع الجهات التشريعية، فهل يعقل في =

قرّر بريمر كعملية انتحارية ليس هنالك من سبب لتفسيرها إلّا يد الغيب في أن يدعو إلى مؤتمر صحفي يوم 14 نفس اليوم الذي تمّ إلقاء القبض على صدام مع أنه كان قبل مدة قصيرة يعترض في إذاعة الخبر. وإذا به يرتب أمر الإعلان في سابقة غريبة في عالم السياسة.

تقدم بريمر في المؤتمر الصحفي المنعقد في قاعة المؤتمرات ووقف أمام العدسات التي كانت القاعة غاصة بها ليعلن بشكل واضح وبدون تردد وقبل أن تظهر نتائج الوراثة الجينية وقال قولته التي اهتز لها العالم (We got M) بأنهم تمكنوا من القبض على صدام.

هزّ الخبر العالم من أقصاه إلى أقصاه وصار هذا اليوم هو يوم انعطافة كبرى في مسيرة الأمم. فالولايات المتحدة تمكنت من خلال عملها ودقة ومعلوماتها أن تُحوّل الحلم إلى حقيقة، وأن تتمكن خلال أقل من ثمانية أشهر أن تلقي القبض على أكبر سفاحي التأريخ، وأن تأتي به إلى المحكمة وأن تؤكد للعالم بأن أمريكا إذا قالت شيئاً فإنها تنفذه.

هل فعلاً عملها صدام بهم، أم أنهم كانوا جزء من كلّ المسرحية. ؟

أمر محير بغض النظر عن التبعات وعن النتائج، إنه خطأ فادح وكبير في أن يتم نشر خبر رسمي حول شخصية حرباوية لها قدرة على التلوّن، مع نظام ذي صفات تبتعد كثيراً عن نسق نظم العالم السياسية، فاعتراف طارق عزيز أو عبد حمود أو فتيّح الراوي أو غيره ليست بذي

= أن يستسلم الرئيس بوش مباشرة إلى المعلومات الاستخبارية ويصدق بأن المقبوض عليه هو صدام. . .؟ لا بالتأكيد أنه أمر فيه الكثير من الغرابة.

قدرة في أن تغيّر الحقيقة. فصدام شخصية كالجن لم يره أحد مع ادّعاء الكل بأنه رآه، فهو شخصية فوق وصف الناس، ولا يتمكن من معرفة شكل صدام الحقيقي إلّا العراقيين أنفسهم وممّن اكتوى بناره، وممّن عمل معه لفترة طويلة جداً مثل صباح مرزة وعبد حمود وطارق عزيز على شرط أن تكون شهادتهم شهادة ليست تحت الخوف أو التهديد أو الضغط، وما عداها فإنه مقدوح في أقوالهم.

انتهى المؤتمر الصحفي فتوجه القادة الأربعة عند الغروب في نفس اليوم إلى المكان لرؤية المعتقل صدام حسين، وكان الوفد يضم عدنان الباججي، أحمد الجلبي، عادل عبد المهدي، موفق الربيعي(1) فلم يخطر ببال أي منهم في أن يفكر في موضوع الأشباه أو أن تخطر على باله في أن يكون هنالك في الأمر من حيلة، فالكل وبسبب العقل الجمعي العالمي من الصعوبة لهم في أن يفكروا بوجود احتمال آخر غير احتمال أن يكون هذا هو صدام بذاته.

كان الكل عندما خرج من المعتقل لم يشعر بما كان يشعره قبلاً، فالانزعاج بدا واضحاً على الجميع مع أنهم من المفترض أن يكونوا في عرس، ولكنّ يبدو بأن الجميع كان يحمل في داخل أعماقه شكاً في صحة فرضية الأشباه أو البدلاء، وأن صداماً لم يكن هو نفسه، هذا

(1) هؤلاء الأربعة لم يروا صداماً قبلاً بالشكل الشخصي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلتقي به هؤلاء، فكل منهم غادر العراق في بداية السبعينيات من القرن الماضي، بل لم يلتقِ أيٌ منهم صداماً قبل مغادرته في تلك الفترة، فقدرة تمييزهم لشكل صدام لا تختلف عن قدرة أي عراقي آخر ممّن رآه على شاشة التلفزيون أو في الجرائد. فهي قضية معرفيّة متخصصة ليس لها علاقة بالقدرة السياسية أو الذكاء أو الدراسة الأكاديمية.

الفرض لمن الصعوبة البوح به إلى الأمريكان والى بريمر بالذات، أعني شكوك صدق شخصيته، مع أن الضمير أحياناً يوجه وخزات يستشعر بها الجهاز البراسمبثاوي، وليس السمبثاوي لكي يحفز فيما إذا كان الجهاز الأول ينقل ذلك إلى الجهاز الثاني. . . . . . . كما هو الذي يرى عزيزه في حالة وفاة وعندما يقترب من جسده يشعر بأن الجسد يخبره بأنه حي، فيشعر بالراحة التي تملأ كيانه مع أنه من المفترض أن تزداد درجة الحزن، لأنه تأكد من موت عزيزه. . . . . هكذا هو المشهد بعد أن غادر القادة الأربعة مكان الاحتجاز المثير الذي لم يجدوا ما كان يسرهم في طبيعة الموقف.

اتصل الرئيس بوش ليلاً ببريمر مهنئاً له ومشجعاً لموقفه، مع التفاتة مهمة وهو سؤاله إياه: أين ستضعون صداماً المحتجز في قانون الاعتقال. . ؟ فبوش يبدو أنه لازال في شك من شخصية صدام، ولازال يعتقد في أن الكلام الأخير والنهائي لعلم الأدلة الجنائية وإلى الخارطة الوراثية[1].

(1) لحين هذه اللحظة لم يعلن الأمريكان عن نتائج الحامض النووي بل أن وقت الحصول على النتائج لم يحن بعد، بل أمامهم يومان من الوقت لكي تكون تلك النتائج جاهزة على الطاولة، ويبدو أن استعجال انعقاد المؤتمر الصحفي له علاقة بتجنب السؤال المحرج عن نتيجة الحامض النووي، فلو تمّ توجيه السؤال ذلك إلى القوات الأمريكية لكان له أن يجيب بأن النتائج تحتاج إلى 48 ساعة وهو جواب علمي واقعي. أمّا لو تمّ عقد المؤتمر بعد 48 ساعة الثلاثاء مثلاً 16 ديسمبر لكان على القوات الأمريكية أن تجيب بما هي نتائج الفحص الوراثي أمّا متطابقة أو غير متطابقة. وهذا أمرٌ محرج جداً إلى الإدارة الأمريكية التي تمتلك بالفعل النتيجة الحقيقية لشكل الحامض النووي، والتي بالتأكيد لم تكن مطابقة لما تمّ الحصول عليه من هذا الشخص المحتجز =

في يوم 15 من ديسمبر أصدر مجلس الحكم العراقي بياناً إلى الشعب العراقي بشأن القبض على صدام.

= أمامهم. ولذلك فإن استعجال انعقاد المؤتمر الصحفي بحجة أخرى كانت عملية استباقية لتجنب المطالبة بتقديم نتيجة الفحص. وممّا يدل على ذلك ويؤكد تلك الفرضية هو أن القوات الأمريكية لم تعلن وإلى الآن وبعد عشر سنوات على تلك الحادثة نتيجة ذلك الفحص الذي حملته الطائرة الأمريكية العملاقة (C-17) إلى المختبر المتخصص في ألمانيا.

سحابة وسر في المقبرة

المقبرة التي بناها صدام لأبيه في تكريت

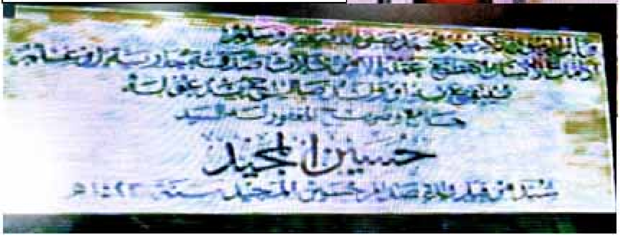

تأخر زحف قوات التحالف الغربية يومين عن الموعد المقرر لها أن تدخل بغداد بعد أن واجهتهم عاصفة صحراوية مزمجرة وهم في طريقهم من السعودية متوجهين إلى بغداد شمالاً، كانت العاصفة شديدة إلى الدرجة التي لم يتبين مدى الرؤية إلّا لبضع أمتار في الوقت الذي بدت إلى الجهة الأخرى بمسافة عشرة كيلومترات وكأن الأمر مختلف كلياً، جو هادىء وأرض ساكنة، وشعور بالصمت يسود تلك الصحراء الكبيرة التي تمتد بشكل كبير إلى الشمال وهي ذات الصحراء التي شهدت الغزوات والحروب وشهدت دروب الحضارات التي كانت تتحرك باتجاه الشمال من اليمن أو من الجزيرة إلى العراق وما فيه من مناطق للرعي.

كان الاختلاف في مناطق العاصفة لا يختلف بشيء عن طبيعة التركيبة العراقية التي تتبدل بالمسافات وتتغير بالساعات. فهنا اليوم يموت الشعب في قائده افتداءاً، وغداً يموت في قتله انتقاماً.

بعد أن سكنت العاصفة توجهت القوة الخاصة التي كان لها أن تكون على مشارف صحراء النجف قبل يومين ولكنّ العاصفة المتغيرة التي كانت تسير مع مسيرة الدبابات الأمريكية العملاقة وهي تمخر في عباب الأرض الغريبة التي لا تجد فيها أي أثر للحياة إلّا الهوام السحالي المتوحشة التي تعيش على سموم هذه الصحاري.

سارت الدبابات بسرعة قياسيّة لاختصار الزمن في الوصول إلى الحدود العراقية السعودية التي بقيت بمسافة تبعد مائتي كيلومتر من جهة الشرق قليلاً ليكون دخول القوات من الزاوية التي تحاذي الحدود الأردنية السعودية بشيء ما.

لم تلاقِ الدبابات أية مقاومة إلآ اللهم مقاومة العاصفة اللعينة التي كانت تماشي حدود الفرقة المتخصصة التي تدربت على كسر قلب تلك العاصفة بطريقة علمية شأنها شأن العواصف التي تجتاح صحراء (نيفادا)، ولكنّ هذه الصحراء مختلفة فأتربتها ذات نوعية خاصة تميل إلى الحصى الناعم الدقيق جداً، ليس يشبهها في ذلك إلّا الصحراء الجزائرية بنوع ما.

وصلت القوات المتحالفة إلى حدود صحراء النجف يوم خميس نحس كان لهم أن يقرروا فيما إذا كان الموعد ذا حظٍ حسن أم سيء مع مقاومة القوات العراقية التي كانت تناوش القوات الأمريكية المجحفلة بين الفينة والأخرى، فترد عليها تلك القوات بقذائف هائلة تجبرها على الفرار إلى الخلف مسافة بعديدة. وكانت القاعدة العراقية في أطراف المحافظة قد أعدت العدة للتسليم، ولكنها يجب أن تقاوم خوفاً من أن يعيد التأريخ قصة انتفاضة شعبان من عام 1991 وتدير قوات التحالف ظهرها إلى الثوار لينتقم منها النظام بتلك الطريقة البشعة التي تمّ فيها قتل أكثر من ربع مليون شخص من محافظتي كربلاء والنجف.

انتظرت قوات التحالف خمس ساعات إلى أن تصل أخبار الواقع النجفي، المجتمع الذي يتميز بأنه أب الثورات وأن أرضه هي أم الثورات، فهنا انطلقت ثورات العراق كلها 1915، 1918، 1920

التي كانت الأولى ضد الأتراك، والإثنتان الأخريان ضد البريطانيين. فلم يكن في خُلد القوات الأمريكية أن تتمكن من أن تجتاز هذه المدينة بلا تضحيات جسام من كلي الطرفين.

كانت النجف تعيش حالة تأهب كبرى من دخول قوات الحلفاء إلى المدينة بشكل مفاجئ وبدون علم قادة المدينة التي كانت تسيطر عليها قوات النظام. بعد ساعتين من وصول قوات الحلفاء على حدود المحافظة انهار البعث كله وهرب الكثير من قوات الجيش الخاص، ومن فدائيي صدام، ومن الجيش الشعبي إلى أطراف المدينة إلى (وادي السلام)[1] أكبر وأقدم مقبرة في العالم الإسلامي، بل في العالم على الإطلاق. وهنا شاهد المجتمع النجفي بأن تجمع قوات النظام قد بدأ يزحف نحو تلك المقبرة من ثلاث جهات. وقد تحركت في ذات الوقت مدافع خفيفة وأسلحة يمكن نقلها في طرق تلك المقبرة التي تضم رفات تقريباً كلّ أمم الأرض.

---

(1) مقبرة وادي السلام هي إحدى أكبر مقابر المسلمين على الإطلاق وتقع في مدينة النجف في العراق، حيث تحتوي حسب تقديرات (غير موثقة) على 20 مليون قبر وقد أدرجت ضمن قائمة التراث العالمي (مدينة الحضر، مدينة آشور (قلعة الشرقاط)، آثار مدينة سامراء، مقبرة وادي السلام)، وتحتوي المقبرة على نوعين من المدافن حيث هنالك القبور التي يصل ارتفاعها إلى 80 سم وهنالك السراديب التي يكون عمقها حوالي من 5 إلى 8 أمتار تحت الأرض. وفي النجف قبور شخصيات تاريخية كقبور أنبياء الله هود وصالح وآدم ونوح، وقبور الأولياء وأهمهم علي أبن عم الرسول. كما أن هنالك ملوكاً وشيوخاً وسياسيين وعلماء وفقراء وأغنياء لا فرق بين قبورهم، كلهم في بقعة واحدة. ولا يقتصر الدفن على طائفة أو عرق محدّد بل تجد فيها المسيحي والمسلم السني والشيعي والعربي والأجنبي.

شحذ النجفيون هممهم لطرد قوات النظام لأن معركة المقابر تعني فناء تأريخ له عمق لأكثر من أربعة آلاف سنة، في الوقت الذي لم تتمكن قوات الحلفاء من إدراك ماذا تعني مقبرة النجف (وادي السلام)، فالمعركة التي ستدور قريباً ستكون حرق عظام وبقايا تراث شخصيات وأجداد المجتمع النجفي أو من ائتمنهم على ذلك من ملوك أمم العالم.

في تلك الفترة وفي منتصف ليل ما قبل دخول القوات الأمريكية بيومين تسربت قوات كبرى تجمعت من مناطق (طويريج) و(الكوفة) وكلّ ما يحاذي الفرات، ثم كوّنوا قوة كبرى تعد بألف رجل زحفوا من جهة الشمال طريق كربلاء لكي يدخلوا في معركة دموية مع قوات النظام أو إجلائهم عن المقبرة على أفضل الاحتمالات، وما أن تدخل قوات الشعب النجفية أطراف المقبرة من جهة الشمال حتى هربت قوات النظام التي كانت تعد بألفي رجل إلى الطريق الوحيد الذي كان أمامهم وهو طريق (الطارات)[1] أو بحر النجف باتجاه الجنوب نحو الحدود السعودية وليس باتجاه قوات التحالف التي تتهيأ لدخول المحافظة من جهة الغرب الشمالي قليلاً. وكان النجفيون لا يرون في أن محاربة بقايا النظام هو بالأمر الأخلاقي في هذه الظروف، ولذلك اجتمع رأيهم على إجلائهم خارج المقبرة أولاً، ثم التعامل معهم في ساحة المواجهة

(1) (الطارات) هي بقايا آثار نهر الفرات الذي كان يمر من تلك المنطقة إلى الجنوب من النجف، وهي عبارة عن مرتفعات من تلال منخفضة الارتفاع، مدينة النجف: عبقرية المعاني وقدسية المكان، د. محسن عبد الصاحب المظفر.

في (طارات) النجف أن لم ينصاعوا إلى المنطق في عدم توريط المدينة في حرب إبادة شرسة مع قوات التحالف.

وبمجرد خروج القوات البعثية خارج المدينة، أنقضّت القوات الأمريكية المحمولة عليهم بإنزال في وقت المغرب من ذلك اليوم، ولكنّ القوات النجفية عندما شاهدت الموقف زحفت باتجاه المعركة المحتملة التي تحمل نَفَس النجف في مواجهة أمريكا، وكما يقول المثل الشعبي (أنا وأخي على ابن عملي، وأنا وابن عمي على الغريب).

تكاثر النجفيون في التوجه إلى (الطارت) وهم يحملون أسلحة متوسطة بعد سقوط حامية النجف وبقيّة ما هنالك من معسكرات بعثية. . . . . . . أرسلت قيادة التحالف إلى القوات المجحفلة على مشارف النجف في إلقاء سلاحهم وإلّا تجتاحهم طائرات الحلفاء لإبادتهم. قرّر النجفيون في ذلك الوقت في أن يمنعوا الحلفاء من إبادة البعثيين من النجفيين فهم مهما انحرفوا ومهما كانوا فهم أهلهم وإخوانهم وما ركونهم إلى النظام إلا خوفا أو طمعاً، ولذلك قرّر النجفيون بعثييهم ووطنييهم خيار المواجهة أو الصلح وأن يذهب كلّ إلى منزله.

قبلت قوات التحالف الشرط وتفرق الجميع ملقين بأسلحتهم في ساحة المعركة. ولكنّ ما إن دخل المتحاربون النجف حتى انهمرت عليهم قذائف من جهة المقبرة، من جهة غير معلومة فاضطروا على أثره أن يتخفوا في شوارع المدينة الضيقة خوفاً من مذبحة أهلية مبيّت لها بليل أسود.

في هذه الأثناء تحركت القوات الأمريكية نحو المقبرة بسرعة كبرى فوصلتها في اليوم الثاني صباحاً وأحاطت بوادي السلام بينما كانت أخبارُ سقوط المحافظات تأتي تباعاً في استسلام المعسكرات والقوات التابعة إلى النظام. دارت معركة كبرى في أطراف المقبرة وكان المقاتلون غير المعروفة هوياتهم يقاتلون الطرفين، البعثيين والنجفيين الذين قرروا أن لا يسمحوا للقوات الأمريكية في الانتقام من فلول البعث.

قوات الغزو الأمريكي، اقتربت من المدينة إلى حد ما، وكانت هذه القوة قد دخلت المدينة تتقدمها مشاة غير مسلحين يحملون فقط المسدسات البسيطة مع غياب القطع الثقيلة من السلاح بينما كانت الطائرات الأمريكية تحوم في ساحة المقبرة وفوق القوات التي دخلت المدينة من الجنوب مقتربة من ضريح الإمام علي على نحو نصف كيلو متر. وكانت أصوات المعارك في أنحاء المقبرة التي تبعد حوالي كيلو مترين تسمع في محيط الضريح.

كان معظم الجنود الأمريكان غير المسلحين يرتدون اللباس العسكري الأمريكي مع رفع غطاء أو واقية الرأس وهي دلالة رفض المواجهة، وأنهم رسل سلام. خرج عوام النجفيين عندها ليعرفوا الخبر عن هذه الكتيبة الغريبة. فالنجف لا تثق بالأمريكان، بل لازالت أحداث 1991 ماثلة أمامهم في مساعدتهم لصدام في القضاء على الانتفاضة. بينما انتشر المسلحون الآخرون على سطوح البنايات انتظارا إمّا لمذبحة كبرى أو صلح مؤقت.

خرج رجل أشيب يرتدي بزة رجل الدين بعمر السبعينيات وهو

يسير الهوينى بين الجماهير التي تنتظر إشارة المذبحة، خرج وانتصف الفرقتين في (شارع الرسول)، الذي يقود إلى جنوب النجف ويفضي إلى طريق السعودية. تقدم الرجل ذو السحنات الهادئة إلى المحتلين الجدد مبتسماً وهو يشير لهم بالتراجع إلى الوراء بيدين مرتعشتين وحركة من عصا كانت بيده يتكئ عليها. تراجعت القوات الأمريكية، بعد أن نكست أسلحتها باتجاه الأرض وهي تتراجع القهقرى والرجل الطاعن بالسن يسير إلى الجنوب، بينما انصاع الجميع يقتفون أثره إلى أن وصل المشهد إلى ما يقارب كيلو متر عن باب الضريح. عندها توقفت القوات الأمريكية التي تجمعت في محيط ذلك الرجل وقد أدار الكل أسلحته إلى الأرض، ثم رفع الكثير منهم واقية الرأس احتراماً له، بينما القوات النجفية المدنية تقف على مسافة مائة متر تنتظر ما سينجلي عنه الموقف.

أدار الرجل جسمه النجيل إلى النجفيين وهو يقول لهم ويشير إليهم بعصاه أن يذهب كلّ منهم إلى بيته وعمله، وأشار إلى الضريح وهو يقول لهم: (بأن له رب يحميه). تراجعت القوات الأمريكية إلى الوراء مسافة كبيرة والتحقت بأصل التجمع في خارج المدينة.

هذا في الوقت الذي كانت القوات (المجهولة) تعارك في المقبرة القوات الأمريكية، وتحاول الدخول إلى المدينة لاحتلالها والانقضاض على البعثيين الذين كانوا قبل اليوم يمثلون اللواء المتكون من ألفي رجل مسلح.

لم تشأ القوات الأمريكية أن تدخل معركة المقابر من الداخل، وإنما وقفت على طرفي المقبرة، طرف في الشمال إلى طريق كربلاء،

وطرف في جهة (الطارات). بينما أمّن المدخل من المدينة تجمعات مدنيّة تحمل أسلحة خفيفة كانت بمثابة قوات إنذار.

استمرت المعارك الضارية وكانت تلك القوات المجهولة تدخل من مناطق الكوفة وتجتاز بعض الممرات الضيقة ما بين البيوت ثم تنقض على القوات الأمريكية من خلال ضربات (الآر بي جي) ثم القنابل الحارقة. كان المقاتلون يرتدون العصابة السوداء يقودهم رجال معمّمون، ومعهم قدرات عسكرية يبدو بأنهم تمكنوا من حيازتها من معسكر النجف القريب بعد أن سيطروا عليه. سدّ النجفيون الأبواب على كلّ من يحمل السلاح كي لا ينتقم من أعداء الأمس (البعثيون)، وكان الاحتمال الوارد هو أن يغادر الأمريكان ساحة المقبرة منسحبين باتجاه تكملة السيطرة على العراق. وفعلاً انسحب الأمريكان بعد أن دخلت قواتهم إلى قلب المقبرة مفتشين عن أسلحة متقدمة مخفية في سراديب القبور التي تملأ المنطقة.

تحركت فرقة (القبور) هذه من منطقة النجف إلى الحيز الذي يفصل النجف عن بقية مناطق العراق من جهة الشمال الغربي، وكان ممّن رافق الفرقة بعض الجنود العرب والمسلمين للاستفادة من آرائهم فيما يخصّ عقائد المسلمين في عدم اجتيازها أو المساس بها.

وما إن يحل يوم 12 من شهر نيسان عام 2003 وإذا بالخبر الصاعق الذي يصل إلى هذه الوحدة في التوجه جواً محمولين بثلاث طائرات كبيرة ترافقهم طائرات (الأباتشي) إلى منطقة (تكريت).

تصل القوة المكونة من عسكريين وثلاث أطباء أمريكان وشخص

عربي آخر لبناني أو مصري وفي منتصف ذلك اليوم إلى مشارف تكريت إلى منطقة المقبرة الجديدة التي تقع بالقرب من الشارع العام.

ففي تكريت مقبرتان إحداهما القريبة من منطقة (العوجة) مسقط رأس الرئيس العراقي، والأخرى بنيت بحدود سنة 1979 والتي تستقبل دفن موتى تكريت منذ ذلك التأريخ وتبعد مسافة 15 كيلومتر عن المقبرة الأولى، والتي قام الرئيس العراقي آنذاك ببنائها بصورة جيدة وبشكل حديث، وبني كذلك قبر ضخماً يبدو أنه كان هو السر وراء بناء هذه المقبرة التي لم يألفها الوسط البدوي أو التكريتي، أو حتى مقارنتها بمقابر أخرى.

قبل أن تصل الطائرات الستة إلى محيط مدينة تكريت تعطلت إحداها وقد تمكن طاقمها من النزول بالمظلات، وكان سبب ذلك هو إطلاق صاروخ يحمل على الكتف من قبل رجال كانوا ضمن فرقة كانت في محيط (سدّ الثرثار) على أطراف نهر دجلة.

هبطت الفرقة بعد أن أصيبت الطائرة بذلك الصاروخ وكان الوقت ليلاً، وتمكنت القوات الأمريكية من أن تلقي القبض على خمسة أشخاص أحدهما إيطالي يعمل ضمن فرقة مشاة أمريكية، والآخر عربي أيضاً يعمل في المشاة والآخران عراقيان. وتبين فيما بعد بأن القاذفة هي إسرائيلية بصاروخ قريب المدى من صنع الصين. كما أن أحد الرجال كان شخصية مخابراتية إسرائيلية تعمل ضمن قوات دولية في العراق عراقي الجنسية.

واصلت الطائرات مسارها وأنزلت في داخل المقبرة الجديدة فرقة

تتكون من عشرات الجنود مع طبيبين يحملان عدة أجهزة، ثم استولوا على محيط المقبرة بينما اقتربت الساعة من الثانية بعد منتصف الليل.

توجهت الفرقة المخصصة التي أُنزلت إلى قبر معين يتكون من بناء وفضاء في داخله ثم باب حديدي يفضي إلى قبر صاحب المقبرة، ضربوا الحارس وأوثقوه ثم كسروا الباب الصغير، ونزلوا إلى القبر ثم خرجوا بعد نصف ساعة. أعتقد الحارس بأن هذه الفرقة كانت تبحث عن قطع أثرية لسرقتها باعتبار أن تكريت هي مدينة كانت مسرحاً في وقت ما لمعارك كبيرة بين القبائل الآشورية والآرامية منذ ثمانية قرون قبل الميلاد تقريباً[1] ولذلك لم يعر اهتماماً إلى عملهم. غادروا المكان

(1) قام الملك الآشوري (توكلتي - ننورتا) الثاني، بحملة عسكرية ضد القبائل البدوية الآرامية في عام 885 ق. م ثم أعقبه الملك الآشوري (عداد - نيراري) الثالث 810 - 783 ق. م بحملة عسكرية عام 790 ق. م لمقاتلة سكنة المدينة من الآراميين، ثم عاد وكرّر حملته العسكرية الثانية ضد هذه القبيلة الآرامية عام 783ق. كذلك تعتبر من المدن الرئيسية للديانة المسيحية والتي بدأت من عهد المبشرين النساطرة وقد حاول الرومان الذين اعتنقوا الديانة المسيحية الإفادة من موقعها المتقدم بوصفه ثغراً من ثغور الدولة الرومانية، ليكون ظهيراً مناصراً لهم ضد الفرس ولم تفلح مناصرة الفرس للنساطرة ضد المذهب اليعقوبي الذي كان يناصره الرومان، فأصبحت هذه المدينة مقراً للحفريات ومنذ القرن السادس الميلادي وحتى مجيء الإسلام، كانت المدينة بيد الرومان فتم تحريرها وانتشر الإسلام منذ سنة 16هـ/ 637م. ومع ذلك بقيت تكريت إحدى المراكز المسيحية المهمة حتى عام 1164م. إذ نازعتها هذه المكانة مدينة الموصل التي نقل إليها مقر أو كرسي المفريان اليعقوبي. ولقد بنيت في هذه المدينة عدة كنائس وأديرة كان من أبرزها الكنيسة الخضراء، ولقد بقيت آثار تلك الأديرة شاخصة إلى فترة متقدمة من القرن العشرين في مواقع مختلفة من المدينة.
http://en.wikipedia.org/wiki/Tikrit.

بعد أن أعطوا الحارس ألف دولار وطلبوا منه أن لا يتفوه بما تمّ وأن يقوم بإصلاح الباب الذي يفضي إلى القبر.

كانت هذه مهمة الفرقة وهو الوصول إلى صاحب القبر وانتزاع عينة لفحص الحامض النووي (DNA) وهذا ما تمّ بعد أن تمكنوا من أخذ عينة إمّا من العظم أو من الشعر أو أنهم أخذوا الجثة بكاملها.

لم يعلم الحارس أو حتى سكان المنطقة بالأمر إلى أن قامت في اليومين التاليين بعثة تلفزيونية وصلت من قناة أبو ظبي يرافقهم د. الأسدي لاستكشاف تكريت عموماً وليس المقبرة خاصةً، وكان من جملة من تكلم معهم الطاقم هو الحارس الذي كان يشرف على المقبرة التي اقتحمها الأمريكان فطالبوه فضولاً أن يرافقهم إلى المنطقة التي تمّ فيها الإنزال ومن يكون صاحب القبر (السر).

كان القبر يحوي سراً من أسرار الحياة باعتباره أولاً أنه بُني بطريقة تثير التساؤلات، فاسم الميت الذي كُتب على القبر هو اسم مغمور لم يعرفه الناس، ولم يُعرف في أوساط العشيرة إلّا بأنه أب لشخصية كبيرة ليس إلّا، كان قد مات في عام 1936 أو 1934 على الروايتين عندما كان الجنين في بطن أمه، ولم يكن يُعرف عنه أيُ خبرٍ في صحة مدفنه، سواء أكان في تكريت أم خارجها. ومع أن الروايات التي تقدم بها رؤساء العشيرة كانوا يتجنبون ذكره، ولا يعتقدون بأن له جسداً. فهذه المقبرة لم تكن آنذاك قد بنيت، أي في الثلاثينيات من القرن الماضي أيام موته، وإنما لو صحت رواية موت الأب ودفنه، فإنه بالتأكيد سيكون قد دُفن في مقبرة (العوجة) التي تبعد ما لا يقل عن 15 كيلومتر

عن هذه المقبرة الجديدة. وكان الناس آنذاك لا يدفنون موتاهم إلّا في المقبرة المخصصة كما هي بقية الشعوب الإسلامية أو غير الإسلامية، فليس هنالك من سبب أو من دليل أن الرجل الميت صاحب المقبرة قد تمّ دفنه هنا في المقبرة الجديدة.

والشيء الأغرب هو أن الرئيس العراقي في عام 1980 قد أمر أن تُبنى هذه المقبرة بعد أن عمل على توسيع تكريت والعوجة وإضافة لمسات إعمارية وإنشائية إلى أن صارت مدينة شبه حديثة.

بقي السر منذ ذلك الوقت وإلى ما قبل الحرب الأخيرة بأربع أو خمس سنوات حيث وصلت إلى هنالك في إحدى الأيام جثة تبدو بأنها جديدة، وليست قديمة كما لو أن البعض يقوم بنقل موتاه. وكان الميت مثار نوع من الاهتمام من قبل المحيطين به بعد أن تمّ تمشيط المنطقة بالكامل وأحيطت لشهر من الزمن لمنع الدخول إليها، ثم تولى حراستها مجموعة بقيت ثلاث سنوات مرابطة بشكل يثير التساؤلات في الوقت الذي تحولت المقبرة إلى مكان لدفن موتى منطقة تكريت بدلاً من المقبرة القديمة.

وقد هاجمت في عام 1999 فرقة كوماندوس هذا القبر في ليلة شتاء قارصة وكان المهاجمون عشرة أشخاص تمكنوا من أن يسيطروا على القبر تماماً، وأن يضعوا الحراس تحت التخدير لمدة ساعات إلى أن مات أحدهم ونقل الباقون إلى المستشفى. مات البقية بعد مضي أسبوع على العملية حتى بقي شخص واحد منهم فقط لا يتذكر من الحادثة شيئاً إلّا بالقول في أن المهاجمين كانوا مدنيين، وأنهم لم

يواجهوا صعوبة في ذلك الوقت في السيطرة على القبر الذي لا نعلم إلى من يعود هو، ولكنّ الشيء الجديد الذي حدث هو أن القبر يحوي جثة جديدة ليس لنا أن نتبين إلى من تعود، وفي مرة من المرات وبعد شهرين من دفن هذه الجثة جاء عبد حمود ومعه آخرون وأخذونا إلى جهة مجهولة متهمين إيانا بأننا لم نقم بواجبنا خير قيام، ثم ضربونا وبقينا لأيام في السجن بعدها تمّ إطلاق سراحنا على شرط مراجعة دائرة الأمن كلّ أسبوع لمعرفة من يزور المقبرة أو القبور القريبة.

ويرفع مراسل قناة أبو ظبي (د. الأسدي) رأسه ليبحث بين ثنايا المقبرة (السر) علّه يلتقط السر المخفي الذي دوّخ العالم، فدار حول البناء دورتين، ثم بدأ ينكث برجليه الأرض كمن يريد أن يقول لها: أفصحي عن سرك، كما هو عالم الآثار في بحثه عن الرموز التي تخفيها حبيبات الرمل. رجع ثانية إلى داخل المقبرة وإذا هنالك لوحة صغيرة يعود تأريخها إلى 1979 تدل على صاحب القبر ومكتوب عليها بخط أزرق هذا قبر (الفاتحة المرحوم حسين المجيد) 1423 هجرية (أنظر الصورة).

المهمة القذرة

انطلقت الطائرة الخاصة التي جيء بها إلى العراق والتي كانت قد تمّ تغيير محركاتها بشكل يتلاءم مع البرنامج الذي تبنته المخابرات العراقية في العمل على تنفيذ التضليل التي تحاول القيام به في البرنامج الحربي الذي التزمته قيادات متفرعة من مخابرات الحزب، والقوات الخاصة المرتبطة بالقصر الجمهوري، ثم بالسيد الرئيس الذي يشرف من خلال بعض مقربيه الخاصين على مثل هذه البرامج.

كانت الطائرة كما يبدو أوروبية شرقية صنعها الألمان وقدموها إلى العراق هديةً منهم. في الوقت الذي كان على العراق أن يقوم بشراء مجموعات أخرى إذا ثبت أنها ملائمة لواقع التجارب التي تمارسها القيادة العراقية التي قررت منذ بداية السبعينيات بأن العراق هو بلد الحرب وبلد المعارك، وأن القوى الأخرى التي تريد السوء بالعراق سوف تستعمل جلّ ما تمتلكه في سبيل كسر شوكة هذا البلد الذي يمتلك حضارة تعود ربما إلى أكثر من سبعة وثلاثين قرناً وهي حضارة البابليين الكلدان، أي حمورابي، وهو من السلالة الأولى للبابليين، وكان الاعتقاد سائداً بأن الوضع العالمي والصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي سيحول العراق إلى أداة، أو تابع إلى مسيرة الحرب الباردة التي استعرت ما بعد الحرب العالمية الثانية، وبذلك قرر العراق

من خلال القادمين الجدد وهم (التكارتة) التابعين إلى منطقة (تكريت) في التهيؤ إلى مواجهة طويلة مع الآخرين من القوى الكبرى التي كانت تعمل على شراء أو بيع العراق فيما بينها.

وبذلك كانت أولى الخطوات هي العمل والتهيؤ لمجتمع الحرب والاستعداد لسلاح فعال كبير يهابه الجميع، وبذلك تمّ تكوين مؤسسات مثل مؤسسة (الحسن بن الهيثم) التي تعني بالبحوث البيولوجية والجرثومية الحربية، مع بقية أدوات الحرب التي كانت قد بدأت في الظهور في المنطقة بعدما انتصرت إسرائيل في حرب الأيام الستة من حزيران عام 1967 بضربة مفاجئة شلّت فيه القوى العربية وتمكنت من أن تحتل أراضي ثلاث دول عربية كبرى هي مصر وسوريا والأردن وربما جزء من لبنان حسب ما يشير إليه البعض من المصادر.

كان القادمون الجدد وهم من ضباط الجيش السابق، الجيش الذي شكلّه الإنكليز فيما بعد دخولهم في 1921 ليكون مانعاً للدول الأخرى التي تفكر في استباحة هذا البلد الذي كان ومازال مطمعاً إلى كلّ دول المنطقة، وخصوصاً الدولة القوية المجاورة وهي إيران التي كانت تتمتع بقدر كبير من مساندة الغرب، ومساندة دول المنطقة التي تخشى جانبها كدولة عملاقة ضخمة يحسب لها حسابها.

فقد كان الجيش العراقي جيشاً تطغى على تركيبته الوجودات الطائفية في أن يكون الأقرب إلى (الطائفة السنية) التي امتلكت بقدرات الأتراك زمام الدولة وقوتها باعتبارهم يشتركون معهم في التمذهب وفي التوجه نحو فكر الدولة، فأصبح الجيش يضم قيادات كبرى جيء بمعظمها من المناطق التي تحاذي أرض الجزيرة مثل الموصل وسامراء

ثم الدليم بمدنها المتوزعة على ضفاف الفرات كعانة وراوة وهيت وتكريت[1] وبيجي فتحول المشهد العسكري بطبيعته إلى مشهد أقرب إلى الطائفية في الوقت الذي كان الجندي العادي و(أمراء الحضائر) كما يسمون هم من الشيعة الفقراء المعدمين الذين انتموا إلى الجيش بسب العوز المادي القاتل الذي كان يسود العراق في ذلك الوقت من التأريخ.

وكان لهذا التقسيم الطبيعي أن يكون الجيش العراقي جيشاً ذا مكوّن طائفي واحد مع استثناءات قليلة من ضباط كانوا قد دخلوا الكلية العسكرية بسبب انتماء آبائهم إلى البرلمان العراقي (البلاط) من خلال التوزيع السكاني الذي كان الإنكليز يهتمون به، لكي لا تسود طائفة أو قوة على أخرى، ولكنّ التكارتة والعانيين والراويين والسامرائيين والمواصلة (نسبة إلى الموصل) كانوا ذوي توجه متحد أمام واقع مهلهل، كان عليهم أن يكونوا قوة يخشاها الجميع خصوصاً وأن (الشاه) يقبع إلى جنبهم وهو الملك (الشيعي - الانتماء) ممّا يحفز

(1) ويعود انضمام شباب تكريت للقوات المسلحة إلى مولود مخلص الذي ولد في تكريت وبنى سمعة أثناء الثورة العربية ضد العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، وبعد تأسيس العراق أصبح مخلص أحد المقربين الموثوقين من الملك فيصل الأول ونائب رئيس مجلس الشيوخ في ظل الملكية، واستخدم نفوذه في تعيين الشبان من تكريت بمراكز رفيعة في القوات المسلحة والشرطة، وهو ما دأب عليه أعوانه فيما بعد، وبذلك وفي أواخر الخمسينيات تكونت عصبة قوية في قلب الجيش العراقي والمؤسسة الأمنية، وقد تطلع صدام الذي كان يمتلك بنية قوية تؤهله لخوض الحرب للانضمام للأكاديمية، لكنّ لسوء حظه فإنه لم يكن يمتلك أي مؤهلات علمية (... حياة صدام السرية، كون كوكلان، صدر عن دار ماكميلان للنشر).

الشيعة (الأكثرية)[1] في العراق على الطلب في المشاركة بالحكم.

كان مجيء حزب البعث إلى الحكم عملية استباقية من أن تقفز القوى الأخرى إلى سدة الحكم التي كانت تعمل بصورة جاهدة لتحقيق مستقبل يختلف عن مستقبل (حزب البعث التكارتة).

كان التكارتة وهم الأقرب إلى التفكير الصحراوي المحاذي للبادية الوسطية قد شعروا بأن الأمر إمّا أن يكون أو لا يكون، فالقوة والديكتاتورية أداة مطلوبة في مثل ظرف العراق، ولذلك فإن خيار الحرب الأهلية الداخلية ليس بمستبعد، كذلك فكرة الانفصال التي كانت القوى الكردية تنادي بها. فالحرب والمواجهة ليست بالضرورة أن تكون حرباً عقائدية، وإنما هي حرب وجود وصراع بين مكونات العراقيين أنفسهم بسبب ما استورثوه من واقع مؤلم ومعقد خلال سيطرة الدول العثمانية والصفوية والبريطانية على مجريات الواقع السياسي وغيره.

تحوّل الجيش العراقي إلى قوة ثانوية أمام قوى استخباراتية متمكنة، فكان هنالك ربما خمسة أجهزة أو أكثر تقودها شخصيات ربما عسكرية وربما غير عسكرية، ولكنها في المجمل قوى عقائدية حزبية تنتمي إلى حزب السلطة وهو (البعث) الذي ضم الفقراء من الشيعة وكذلك الطبقات المسحوقة ليوظفها في دوائر المخابرات والأمن والأجهزة الخاصة التي كانت تابعة إلى (القصر) أي إلى قيادة الجمهورية التي كان

---

(1) عددهم ما يقارب 29 مليون نسمة تقريبا، 59%.
http://en.wikipedia.org/wiki/Demographics_of_Iraq.

الحزب ذاته يديرها، فالدولة هي الحزب والحزب هو الدولة، وهكذا نظام من الطبيعي أن يكون من الأنظمة (المترقبة) (Skeptical) أمام حالة الشعب المتغيرة التي تطالب بالعدالة في المعيشة وفي الحكم.

ولكنّ الضعيف دوماً هو الوقود لكل الثورات ولكل العمليات التي تحتاج إلى تضحية فكانت الطائرة الصغيرة تلك هي الطائرة التي جيء بها والتي يقودها الطيار المهندس من الجنوب، ثم كانت التجربة في أن يطلق عليها صاروخ صيني فتقوم هذه الطائرة بقذف براميل أو أجسام معينة لإيهام الصاروخ في التوجه إلى تلك الأجسام وليس إلى جسم الطائرة. كان ذلك الطيار شخصية معروفة وعلمية اكتسبت درجة متقدمة في تخرجها من كلية الهندسة جامعة بغداد، فصار أمامها ولكي تكتسب ما فقدته في حياتها وهي القوة أن تنتمي إلى المؤسسة العسكرية الهندسية في إجراء تجارب على مواجهة الحروب، أو تصنيع الأسلحة التي كان على العراق وقيادته أن يعد نفسه لمواجهة منافسه الجار الشرقي أولاً، وأمريكا ثانياً والغرب ثالثاً ثم دول الجوار سوريا والسعودية وغيرها.

التقى الشاب المهندس الذي ينحدر من عائلة محافظة بالرئيس (صدام) قبل إجراء التجربة على قيادة الطائرة في مكان ما في بغداد بعد أن نقلته قوة خاصة أخذته من بيته في بغداد ودارت به في العاصمة ثم مرت به على بيت في منطقة شعبيّة ركب معهم مطرب أو مغني لم يتمكن من أن يعرفه من يكون هو، بعد أن أخبره الحرس بهويته وعمله، وأن الرئيس اليوم طلب لقاءه، ولم يكن ذلك المطرب عراقياً بل كان إما سورياً أو لبنانياً كما يتذكر المهندس الشاب.

نقلوه أولاً إلى فندق المنصور وطلبوا منه البقاء في غرفة من الغرف ريثما يتم استدعاؤه بينما وُضع المطرب في غرفة أخرى. بقي المهندس ثلاثة أيام في الفندق مع وجبات غذاء دسمة حتى جاء اليوم الرابع فتصاحبا إلى مكان الرئيس في مكان ما. دارت السيارة لأكثر من ساعتين إلى أن وصلت إلى مكان الرئيس حتى أدخلا معاً بعد أن عُصّبت عيناهما وهما في بهو الدخول، ثم أجلسا لساعتين في نفس الغرفة متقابلين مع إبقاء العصابة على عينيهما حتى حانت ساعة المقابلة، فدخل المطرب أولاً وبقي عشر دقائق فقط، ثم سمعه يغادر القاعة من الباب الأخرى، بعدها سمع صوت الرئيس يناديه أي المهندس أهلاً.. أهلاً، وفُتح الباب وإذا هو وجهاً لوجه أمام الرئيس الذي صافحه بحرارة وأجلسه في مكان يبعد شيئاً ما عن مقعده، ولم يتكلم ببنت شفة بينما راح الرئيس يكيل له المدح والتشجيع، وبأنه سوف يكرّمه بسيارة أو بيتأ وما إلى ذلك. انتهت المقابلة بعد أن تسمّر وجه الشاب بوجه رئيسه يتفحص محيّاه بصورة غريزية، وينظر إلى تفاصيل حركته وابتسامته وغيرها، وكان هذا المهندس قد أخبره ابن عمه بأنه سوف لن يقابل الرئيس نفسه، وإنما هو شخص آخر شبيه له، لم يكترث المهندس بالأمر وإنما استمر في العمل ضمن سيناريوهات المقابلة ولكنّ الفضول بقي في داخل عقله في معرفة صحة قول قريبه في أنه ليس الرئيس نفسه.

وابنُ عمه كان من بطانة الرئيس وقريباً منه في وقت من الأوقات عام 1956 عندما كانت منطقة محلة (الفضل) المعروفة مسرحاً لهم في نشاطات الشباب بما تفرزه تلك المرحلة من طموح ومواجهة مع

المجتمع البغدادي الذي كان يتسم بالقسوة والعنف. فكان الرئيس شخصية تستظل به رموز العصابات الأخرى لما يحمله من شجاعة وجرأة أمام تصفية الآخرين ممّن يريد فرض رأيه عليه. وعندما وصل إلى الحكم كنائب للرئيس في عام 1968 استدعى الكثير ممّن كان يشاركه همّ (محلة الفضل) وخصوصاً ممّن كان ينتمي إلى (الفيلية) عرفاناً منه في مساعدة أصدقاء (المحلة) للتوظيف في مراكز الدولة.

خرج الشاب المهندس من مقابلة الرئيس وفي جعبته سيارة هدية له، وفي الأسبوع التالي صعد الشاب إلى الطائرة ومعه ثلاث شبان لم يكونوا على علم بنوعية التجربة التي يختبرونها، وإنما كلّ ما قيل لهم في أن عليهم أن يقوموا بحركة ميكانيكية في نهاية ذيل الطائرة. وفي أول طيران انطلق صاروخ أحمق من قاذفة صواريخ نحو الطائرة في الوقت الذي لم يتمكن مساعدوه من أن يقوموا بالحركة الميكانيكية أو ما شابه فما كان من الطيار الشاب إلّا أن رمى بنفسه بالمظلة وكذلك شاب آخر بعد أن نالتهم حروق في الجسد نقلوا على أثرها إلى دولة أوروبية شرقية وهنالك بقوا أكثر من سنة تمارس عليهم تجارب زراعة الجلد ومعالجة الحروق في مستشفى خاص تابع لمخابرات ذلك البلد.

وبعد مضي ستة أشهر من التجارب على شكل المهندس جاءه ابن عمه ليخبره بأن القصر قد طلب منه أن يتصل به ليعرض عليه في أن يبقى في أوروبا على شرط أن يكون ضمن برنامج تجارب علمية، وإذا رفض فعليه أن يعود إلى العراق ليكرر التجارب التي يعمل عليها. قَبلَ المهندس العرض الأول بالتأكيد فأخبره العاملون هنالك بأنهم سيغيّرون من شكله بما يتناسب مع حاجات السيد الرئيس، وهكذا وبعد انتهاء

سبعة أشهر لم يشعر الشاب ذلك إلّا وإنه صار قريباً من شكل الرئيس بشيء ما، بعدها انتقل إلى برامج أخرى بعضها في أوروبا وبعضها في العراق إلى أن حان الوقت في أن يكلف بمهمة كتجربة له.

فقد الشاب المهندس شخصيته من خلال عمليات غسيل الدماغ حتى صار يتحرك وكأنه (روبوت) موجه بالاشارات، تمّ توفير كلّ شيء لهذا الشاب لحياته الخاصة، ثم قيل له بأن عليه أن لا يعود إلى أهله، وأنهم سوف يعلنون موته بحادثة الطائرة، ثم ينتحل هو شخصية أخرى لشخص اسمه (ريسان جوهر) وفعلاً تمّ ذلك في وضع متأزم بينما الحرب العراقية الإيرانية قد ألقت بثقلها على واقع العراق برمته وكانت مدينته التي ترعرع فيها مطمعاً لصواريخ الحرب التي كانت تنهال بشكل يومي على سكانها، وبعد مضي أكثر من سنة تمكن من أن يظهر بثلاث مناسبات إحداهما هي اجتماعه مع العارفين بالعملية (بدون علمه) وهم ثلاثة أو أربعة بالإضافة إلى الرئيس ذاته، وثانيهما هو إلقاء كلمة في الكلية العسكرية والثالثة استضافة وفد عربي.

أبدع في كلّ من تلك الفعاليات حتى نال رضا الشخص الذي كان قريباً منه الذي كان يلازمه دوماً والذي يتشبه هو أيضاً بأحد حمايات الرئيس ذاته.

بعد مضي أسبوعين لم يجد ريسان هذا نفسه إلّا وهو بيد مجموعة لم يألفها ولم يعرفها يتكلم بعضهم العربية وبعضهم الإنكليزية أو لغات أخرى، ولا يدري كيف وصل إلى هذا المكان أو دخله وفيما إن كان في العراق أو خارجه.

خصوصية العراق

عالم تخصص علم الجنايات الالماني د. ديتر بوهمان

يا بني إحفظ عني ما أقول لك: (و انظر أهل العراق فإنهم أهل طعن على أمرائهم وملالةٍ (سأم وضجر بسرعة) لهم، فإن سألوك أن تبدّل كلّ يوم أميراً فافعل.........) هذه هي الوصية الذهبية التي أوصى بها خليفة لابنه وهو يحتضر عن سايكولوجية بلد لم يتبدل كثيراً عما كان في السابق، فهو البلد الذي ضم عتاة قساة العرب وسادة القتل كأمثال المغيرة بن شعبة (ت 50) زياد ابن أبيه (ت 53) وابنه عبيد الله (ت 67) ثم الحجاج (ت 95) ثم خالد بن عبد الله القسري (ت 126) ثم يوسف بن عمر الثقفي (ت 127) ثم بسر بن أرطاة (ت 41) ثم سمرة بن جندب (ت 59) كذلك حكام بني العباس من المنصور (ت 158)، والرشيد (ت 193)، والمتوكل (ت 247)، والمعتصم (ت 227) وغيرهم. ولم يستقر العراق أرضاً إلّا بعد أن توحد بعد (سايكس بيكو) وبدأ عندئذ الحكم البريطاني الذي سادته صراعات خفيّة في زمن لم يكن النفط معروفاً حتى وصول (قاسم) إلى الحكم و(العارفيان) ثم حكم البعث الذي تغيّر وجه العراق وتغيّرت الحالة الاجتماعية وهو يواجه أعتى نظام عرفه التأريخ الحديث الذي لم يشابهه نظام آخر على وجه الأرض في قسوته واستباحته وعدد القتلى في الحروب[1] وفي عمليات الإبادات الجماعية مثل (الأنفال)

(1) في الحرب العراقية الإيرانية فقط مليون قتيل عراقي وربما ضعف ذلك العدد من كلي =

و(حلبجة) و(الأهوار). وكان السبب الرئيسي لهذه القسوة منطلقة بالأصل من ثقافة البداوة التي تأصلت في نفوس الحاكمين الجدد الذين تلبسوا بلباس حزب تقدمي هو البعث.

وكان صدام رجلاً ذا شخصية خاصة جاء لمجتمع خاص بعد أن صفّى كلّ أعضاء قيادته بشكل أو بآخر، وبعد أن زرع عامل الخوف والرهبة في كلّ بيت من بيوت العراق، والعراقي في طبيعته ميّال إلى الاستكانة والخوف في زمن الشدة، فقد ذكرت (مس بيل) نائبة الحاكم العسكري البريطاني على العراق بأن الطائرات البريطانية كانت ترمي بقطع من حديد من الطائرات فتحدث صوتاً مرعباً ومخيفاً بدلاً من أن تمارس القتل الفعلي، فالعراقي في طبعه يمتلك فعلاً ولكنّه لا يمتلك رد فعل، ولذلك فلم نشاهد في العراق انطلاقة ثورة شعبية كما هي في الدول العربية أو المجاورة الأخرى أو الإسلامية، إلّا اللّهم ثورة 15 شعبان سنة 1991 والتي كانت بالأصل منطلقة من قسوة وشدة الظلم والجوع، أكثر منه تصحيح مسار الحكم وتوجيهه نحو الديمقراطية.

وقد يرى علماء الاجتماع بأن (البداوة) هي من أهم أسباب انحسار الثورات في العراق باعتبار أن المجتمع العراقي في عمومه مجتمع يعيش بين البداوة وبين الحضارة وهو (مجتمع الريف) الذي تسود ثقافة العراقيين من خلال الحس العشائري الذي يطغى أحياناً على الحس

= الطرفين (رقم موثق من قبل الأمم المتحدة). أمّا في كلّ حروب العراق الأخرى مثل حروب الخليج الثلاث، ومن ضمنها حرب الشمال فإنه ربما يصل العدد إلى رقم خيالي ليس هنالك من تمكن في توثيقه وتحويله إلى رقم بحثي.

الوطني، يشاركه في ذلك إلى جنبه الحس الطائفي الذي تولد من خلال نوعية الحكم والاضطهاد الذي تعرّض له العراقيون الذين كانوا في العصور المنصرمة تتنازعهم اتجاهات مختلفة تقترب وتبتعد من المذهبية والعشائرية، وعندما دخل العثمانيون عام 941 هجرية إلى العراق عملوا جاهدين على وضع تقسيم غير منصف في توزيع الأراضي، وفي الوظائف وبقيّة منافع المواطن، كما أنه قسّم الشعب العراقي إلى أقسام تبعاً للتجنس، فجعل البعض مواطنين من الدرجة الأولى والبعض مواطنين من الدرجة الثانية، وكان المواطن المفضل هو المواطن ذو الانتماء المذهبي الموافق لشكل الحكم في الدولة العثمانية، بينما أهمل في ذات الوقت بقيّة المكوّنات الأخرى كالعرب الشيعة، والكرد، والكرد الفيلية والتركمان والشبك، والأيزيديين، والمسيحيين والصابئة وغيرهم وبذلك استعمل سياسة معقّدة وغير حكيمة في قيادة الدولة العراقية، فكان أمام العراقيين أن يتحركوا من خلال ثورات شعبية مطالبين بالمساواة فكانت ثورة النجف في عام 1915 وهي أول مدينة تطرد العثمانيين في المنطقة العربية.

فسنّ العثمانيون قانوناً جائراً يشمل الضرائب والأراضي والوظائف ممّا أدّى إلى انتشار الحس الطائفي بشكل كبير بين المواطنين العراقيين، مع أن العراقيين هم عبارة عن قبائل بعضها ينتمي إلى المذهب السنّي وبعضها شيعي التوجه حسب مناطق سكنى تلك العشائر، ولم يكن العراقيون يرون في الحس الطائفي من منقذ لهم في توحدهم مقابل تلك السياسة غير المتوازنه، كذلك الأمر مع الاحتلال

البريطاني الذي اتبع ذات السياسة من الناحية الطائفية، وقرّب السنّة على حساب الشيعة[1].

عندما وصل صدام إلى الحكم في الفترة الأولى كان ظلاً للرئيس من عام 1968 إلى عام 1979 وبسبب واقعه الإستفزازي في التصرف المنطلق من النفسية البدوية التي نشأت معه، فقد حمل في داخل ذاته عنوان مواجهة التشيع فخلق لنفسه أعداءاً كثراً منها: الخط الديني الشيعي (الحوزة)، بالإضافة إلى الواقع الشعبي الشيعي. هذا بالإضافة إلى زعماء الأحزاب اليسارية والقومية التي كان الشيعة يمثلون القيادات فيها.

كان المنطلق لصدام هو التحدي والمواجهة للقوى المعارضة، فهو شخصية تميل إلى الفكر المتطرف في حل الأزمات، فقد كان يعتقد بأنّ حلول الوسط في السياسة غير ذات جدوى، فعاش في وضع من عدم الأمان وعدم الاستقرار لفترة طويلة ليس فقط مع الشيعة المعارضين، وإنما مع أطراف كثيرة سياسية واجتماعية وعائلية. وكان هذا الجو هو الجو المحبّب إلى شخصيته بسبب التركيبة السايكولوجية التي يتمتع بها

(1) فبين أعوام 1921 إلى عام 1947 تعاقبت عشرون حكومة عراقية، خلت من أي رئيس وزراء شيعي، ولم يتسلم خلال العهد الملكي أو الجمهوري أي شيعي رئاسة أركان القوات المسلحة العراقية، وطيلة العهد الملكي منذ عام 1921-1958 تشكلت 59 وزارة، ترأس الشيعة منها 4 وزارات فقط، والسنة 55 وزارة، وبقيت هذه الحالة مستمرة إلى زمن قاسم والذي لم يكن طائفياً كذلك كما هي العائلة المالكة، وكذلك في زمن العارفيين حيث سيطر على مقاليد الدولة شخصيات المدن من الغرب كعانة وراوة وحديثة وهيت وتكريت والدليم وسامراء (تاريخ في ذكريات العراق 1930-1958 عبد الكريم الازري).

في التعامل مع الحياة وتفرعاتها، وهنا كان أمامه أن يفكر ومنذ اليوم الأول في أن يتوجه إلى حماية نفسه من غضبة الأعداء الذين تكاثروا بشكل واضح، فقد توجّه إلى كلّ القوى السياسية وتعامل معها بقسوة منقطعة النظير، وكذلك الخطوط الاجتماعية والدينية والدولية، فعاش في حالة من الرعب عكسه في حياته على طبيعة الشعب العراقي، وترك بصمات عنصر غياب الأمان (Security) على شخصية الفرد العراقي.

وكان من أول ما أقدم عليه هو خلق وبناء شخصيات متعددة كبدلاء[1] له تناوبه في الظهور التلفزيوني والاجتماعي باعتبار أن المجتمع العراقي مجتمع تكثر فيه الأمية[2] فهو يتعامل مع الفرد أكثر

(1) شخصية البديل جانب مهم يستعمل في الكثير من العمليات السياسية أو المخابراتية وتسمى في اللغة الانكليزية (Political Decoy) والتي ترمي في هدفها إلى التخلص من موقف سياسي محرج وتجنب موقف مستقبلي سياسي أو مخابراتي، وهو تكتيك قديم كانت الشعوب تستعمله في بعض المناسبات، وكذلك استعرت الحضارة الحديثة ذات التكتيك من الماضي إذ كان يعرف بأن (ماوتسي تونغ) كان له أكثر من بديل، أو أنه مات ولم يعلن موته وبقي بديله هو الذي يظهر أمام الشعب الصيني، كذلك الأمر مع ستالين، ومع عيدي أمين، ومع شخصيات كثيرة. وكان أول من صرح بهذا الأمر هو السيد (Joe R. Reeder) (السكرتير السابق لوزارة الدفاع الأمريكية من عام 1993-1997 عندما أعلن لمحطة (Fox News) في عام 2001 بأن هنالك أكثر من شبيه إلى شخصيات عالمية منهم (نورييغا)، (بن لادن)، (كاسترو)، و(صدام حسين):
http://en.wikipedia.org/wiki/Joe_R._Reeder.
http://www.foxnews.com/story/2001/12/20/it-bin-laden-or-is-it/.

(2) ربما تصل إلى أكثر من 50% من عدد النفوس مع أن الرقم غير دقيق ولكنّ الأوساط المطّلعة غير الرسمية تؤكد ذلك. ولا بأس بمراجعة تقرير التنمية البشرية الذي أصدرته الأمم المتحدة في بداية الألفية الثالثة. ولا بأس بمراجعة التقرير المفصل:
United Nations Development Programme2010 UN Communications Development Inc., Washington, D.C. z.

من تعامله مع المقروءات أو الأفكار أو غيرها من وسائل المعرفة، فالعراقي تعلم في أن يتعامل مع الآخرين بصفة (الحضور) لا بصفة وسائل التعامل الأخرى، وهذا ما تلاحظه جلياً في التعامل مع دوائر الدولة وفي العلاقات الاجتماعية الأخرى وهي أحدى دلائل (الشخصنة) (Personalization) التي يتمتع بها الفرد العراقي والتي تمثل إحدى ركائز التركيبة النفسية للفرد العراقي التي تضعه في وضع مميز من الناحية الفكرية والاجتماعية والسياسية، بعضها ذو جوانب حسنة وبعضها يندرج تحت سلبيات النتائج.

فالرئيس العراقي الأسبق كان لا ينفك أن تراه يظهر على شعبه يومياً من خلال التلفزيون، وربما تحتل زياراته واستقبالاته الحيّز الأكبر لوقت البث التلفزيوني ممّا أشعر المواطن بأن الرئيس معه أينما ذهب، وهو أسلوب نفسي من أساليب السيطرة على تفكير المواطن[1]، المسمى الأسلوب (البافلوفي) الذي اخترعه وبحث فيه عالم النفس المشهور الروسي (بافلوف) (ت 1936) عندما حفّز كوامن الإنسان بوسائل لا شرطية، واستعمل الأسلوب في علم السيطرة على الشعوب وفي الإعلام. فكان العراقيون يخشون رئيسهم بمجرد رؤيته ظاهراً على شاشة التلفزيون، أو في الصحف، وكانوا يقولون: بأن للحائط آذان. فكانت حالة استمرار أسباب السيطرة مهمة بالنسبة للحكم واستمراره

(1) وتروى حادثة شيخ من شيوخ الجنوب وهو كما أعتقد (بلاسم الياسين) كان يسرج فرسه ويرسله إلى أراضيه الواسعة التي تنتشر في محافظة ميسان بينما هو ذاته يقضي أوقاته في لندن وعندما كان الفرس يمر على الفلاحين تراهم يتعاملون مع الفرس وكأنه هو بلاسم الشيخ المخيف.

في أن يكون الرئيس موجوداً في مناطق العراق المختلفة: في المعامل وفي الشوارع والمدارس والثكنات وما إلى ذلك، والذي تمكن من خلاله أن يسيطر على الرأي العام وعلى فكر الشارع، وعلى حركته. هذا مع الاعتراف بأن ذلك لا يحصل لولا عامل الاستعداد الذي يحمله الفرد العراقي في داخله في نظرته إلى الحاكم وخصوصاً الرجل القوي والحاكم الدكتاتوري، ولهذا الغرض أنشئت القصور الرئاسية على كلّ أرض العراق.

وقد لعبت فكرة الأشباه أو البدلاء دوراً كبيراً في العراق ووجدت في البيئة العراقية حقلاً خصباً من حقول العمل مع الظرف العراقي[1]. فخلق الرئيس العراقي لنفسه ربما أكثر من سبعة أشباه. المعروفين منهم هم: ميخائيل رمضان، جاسم العلي، فواز العماري، ريسان جوهر، وشخص باسم خالد التكريتي، أو رافع العجيلي ثم وليد الدوري. وقد تمكن من أن يوظف الأمر بصورة متقنة يعاونه في ذلك ربما كلّ الجهاز الحزبي البعثي والمخابراتي، فتحول الأمر وكأنه نوع من المناورات التي تثير خيال العراقي وتدفع به نحو الشعور بالمهارة والغلبة وإثبات الذات، من خلال وسيلة لا قدرة للآخرين على القيام بها أو امتلاكها. وكأنها عبارة عن مسلسل شجاعة شبيهة بمسلسل القصص العربية

(1) هنالك الكثير من الفرق الفكرية الإسلامية وغير الإسلامية تعتقد بأن المقتول لم يكن هو، وإنما شبيهه، فالعلويين يعتقدون بأن الذي قتل في يوم كربلاء لم يكن الحسين، وإنما شبيه له وهو حنظلة بن أسعد الشباني، وكذلك الأمر مع إعدام الحلاج (ت 309) في الاعتقاد بأنه لم يعدم وإنما شبيهه تم إعدامه. ذات الشيء تجده في موت المسيح وأن الذي صلب هو شبيهه يهوا.

القديمة كقصص (جساس) وقصص علي بن أبي طالب الذي كان يتنكر عندما يخرج إلى مواصلة فقراء الكوفة أو مواجهة الأعداء، خصوصاً في مواجهته (لعمر بن عبد ود العامري) الذي كان الشخصية التي عبرت (الخندق) في تلك الواقعة المشهورة وظهر له علي وهو يضيّق لثامه حتى طلب منه عمرو في أن يريه وجهه إلى أن تنتهي القصة بمقتل عمرو وهروب قريش والعرب.

كما تتداخل في خيال المواجهة القول بأن الحرب خدعة، وأن صداماً شخصية تقاتل من أجل الشعب، ولولا عروبته وأصالته ما كان للغرب أن يواجهه، فهو سليل ذات الشخصية علي والحسين والأبطال، فهو يريد أن يعيد التاريخ، ويعيد أمجاد حمورابي ونبوخذنصر.

وكان كلّ ذلك قد تمّ إعداده في حدود الثمانينيات بعدما تبين له من خلال الحرب مع إيران بأن عليه أن يعيد التشكيلة الاجتماعية للانتماء الطائفي له، فهو بالأصل سني المذهب باعتبار أن التكارته كلهم سنّة من عشائر (البيكات)، ولكنّه وضع لنفسه محلاً في انتمائه إلى السادة من آل الرسول باعتبار أن الشيعة على علم بأن هنالك الكثير من آل البيت هربوا ظلماً من حكام ذلك الزمان، وسكنوا أماكن أخرى لحقن دمائهم من المذابح التي كانت تحصل في العصر الأموي، أو العصور التي تلته.

وهكذا بدأ صدام يوحي للناس بأن قصته مشابهة إلى ذلك، فهو من آل الرسول شاءت الظروف أن يكون في تكريت هو وعشيرته التي كانت ترعى في الصحراء. وقد أكد ذلك الكثير من النسّابة الذين استأجرهم الرئيس وأغدق عليهم في تأكيد ذلك. بعدها أطلق الحملة الإيمانية التي

كانت موفقة في تغيير مفاهيم المجتمع التي كانت ترى في أن صداماً لعبة إسرائيلية صليبية لمعاداة الإسلام في وسط تزخر فيه الأمية والجهل والفقر، فتمكن من كسب السنة والشيعة على حد سواء، وأظهر لشعبه أن الحروب ما هي إلّا رد على معاداة الإسلام، ومعاداة دور العراق وقائده، وأن الإيرانيين ما هم إلا فرس يريدون الكيد بأصل الإسلام وعروبيته، والغرب كذلك ومن ورائهم إسرائيل اليهودية التي ما فتئت تنتظر الفرصة للانقضاض على العراق وعلى الإسلام.

كل هذا الجو من الشحن النفسي للمجتمع العراقي هيّأ أرضيّة مناسبة للاعتقاد بأن العراق لا يمكن له أن يكون كما هو قطر له مكانته بدون صدام ذاته، فصدام هو العراق والعراق هو صدام. وعليه فإنه يجب أن يحتمي القائد بطرق شتى من خطط الأعداء. فالشعب العراقي بل العربي عموماً يغفر للحاكم انحرافاته الأخلاقية في الكذب والخداع والقتل لأنها جزء من منظومة الحكم، بعكس الشعوب الغربية التي ترى في الحاكم رمزاً من رموز الفضائل، خصوصاً فيما يتعلق بالكذب والسرقة والقتل والاعتداء.

هذا في الوقت الذي كان الجهاز البعثي بكل طاقاته يعمل بشكل حثيث على اجتثاث المعارضة في الداخل وفي الخارج، ويؤصّل المزيد من الديكتاتورية في فنون السجون والاعدامات والاغتيالات وغيرها، فبدأت الأمور تنذر باتجاه ظهور معارضة شارع تقودها الحركات المعارضة الكلاسيكية الإسلامية والشيوعية والقومية، مع افتقاد خط جديد لم يكن له من وجود في السابق قد بدأ يظهر إلى العلن وهو خط (العفويّة العراقية) المنطلق من رحم مأساة التهميش والقتل والفقر

والذي ليس له انتماء حزبي كما كانت في الماضي في زمن بداية السبعينيات، والذي كان هو هم صدام في تمكّن استيعابه وترويضه بشكل أو بآخر.

وبانتهاء الحرب العراقية الإيرانية في عام 1988 وعودة الجنود وضباط الصف والضباط، تبين لهم بأن السنوات الثمان لم تكن إلّا عبارة عن خدعة مارسها النظام أمام قضية غير محسوبة وغير دقيقة خصوصاً بعد الفضائح الإنسانية التي رأوها بأم أعينهم، وهنا كانت بداية أفق ظهور بذور المعارضة الشعبية ضد النظام، مع اختلافها عما كان في السابق في أن الحركة الجديدة كانت داخلية أي إقتناعية، وليست منطلقة من دوافع سياسية أو طائفية، وبدا واضحاً بأن النظام هو نظام فردي ليس له علاقة بالكثير من المفاهيم التي كان يسوّقها هذا النظام، فبدأت صيحات التململ تبدو واضحة على الشارع العراقي ملقين باللوم على رأس النظام، ورأس النظام هنا بالأساس هو صدام.

مع أن الشعب يعتقد بأن الرئيس لم يكن الوحيد في الحكم، وإنما هنالك عصابة تتحكم بالسلطة تقودها نفس الأسماء: ولداه ثم رمضان وعزيز ولطيف وغيرهم من أسماء العائلة التكريتية المقربة كعلي الكيمياوي وحسين كامل وغيرهم[1] وهنا في هذه الأوقات ظهرت (النغرات)[2] أو العصبية العربية التي لا تنمو إلا في محيط المجابهة

(1) راجع بعض تلك الأسماء في مكان آخر من الكتاب وهي الأسماء التي أعلنتها قوات التحالف بأنها المجموعة التي تحكم العراق.

(2) كلمة تستعمل على المستوى الشعبي البدوي العشائري والتي تعطي معنى الرفض والمجابهة.

والتحدي، خصوصاً عندما يستشعر المقابل بأنه مخدوع رغم أنفه، فكان الثمن هو الرأس. . . . هذا ونحن نتكلم على النطاق الفردي لا النطاق التنظيمي العام لمجتمع العراق، فالمجتمع العراقي كقوة ليس لها من قدرة على التغيير، لأنها لا تملك مقومات الحركة، عملاق بلا أرجل، ليس أمامه إلا الاستنجاد بقوة أخرى تساعده على استعارة أرجل له.

في هذه الفترة، دخل صدام ونظامه في حرب مكشوفة مع المعارضين له، وكانت شرسة جداً لم يمارسها في أوقات الأزمات إلا في أزمة 1979 عندما استلم مقاليد الحكم، فصار من المحتّم بأن التغيير هو عملية مطلوبة بعد أن خرج الكثير من العسكريين والمقربين من النظام إلى خارج العراق واقنعوا دول العالم وخصوصاً الغربية منها بخطورة وجود هكذا نظام في المنطقة، لما يمتلك من خطط واستعدادات لضرب الدول المجاورة فضلاً عن الشعب العراقي. وأمام هذا التحدي كان على صدام الرجل البدوي أن يضع خيارات المبادرة قبل أن يفكر العدو في الاستعداد للضربة، فأعلن في اجتماعات مع المتنفّذين الأمريكيين بأن الشراكة معهم انتهت بانتهاء الحرب العراقية الإيرانية، وأنه طموح إلى لعب دور بديل إلى دور الشاه المقبور والسعودية مجتمعين، وأن ما يخصّ المنطقة يجب أن يمر من خلاله لا من خلال الآخرين، بالتأكيد هذا المنطق هو من أخطر ما يمكن أن يقال في المساومات السياسية، لأنه منطق لا يتولد من خلال حديث أو إقناع، وإنما هو أمر تثبته أرقام الميدان والوقائع، وهنا انفصل التوجّه الغربي الأمريكي عن الرأي الذي كان صدام قد أسرّه إليهم، فكان على كلّ طرف أن يواجه الطرف الآخر بما يمتلكه من قدرات.

وكانت الولايات المتحدة ترى خطأً أن إيران هي الخطر الأكبر على المنطقة آنذاك، وكانت تعيش في شبه كماشة أمام مطالب صدام وحماقة إيران في اللعب بالنار، فقررت أن تدرس الملف العراقي بصورة أكثر واقعية وبشكل سياسي براغماتي، في الوقت الذي لم يكن لأمريكا من وجود مخابراتي فعلي على الأرض العراقية كما هو وجودهم في بقية الدول كمصر ولبنان والسعودية وغيرها من مناطق العالم، فالولايات المتحدة لا تنشر عملياتها المخابراتية بما يجب أن تكون عليه إلّا في ظل وضع توافق مع النظام القائم هنالك، من حيث اتفاقيات تبادل الجواسيس وتبادل المعلومات وما إلى ذلك، وبغياب تلك التفاصيل فمن الصعوبة لأمريكا أن تبث عيونها وعملياتها الاستخباراتية[1] لأنها ليست على استعداد لخسارة عميل واحد في حماقة يقوم بها النظام.

وقد كانت إنذارات صدام بمثابة القنبلة التي غيّرت من النظرة الأمريكية إلى شكل النظام العراقي برمّته في كيفية التعاطي معه، أو مساندته أو ما إلى ذلك، بل إنها وجدت فيه شكل من الأنظمة التي تتشابه مع أنظمة العصور الوسطى أو الأنظمة التي كانت تحكم الدول المتصارعة في القرن الخامس عشر الميلادي التي كانت تتميز بغياب متكامل لكل قاعدة للاتفاق أو الثقة، وإنما تعمل تلك الأنظمة بما

(1) اقرأ كتاب سوزان الينور (التحيز المطلق) (Extreme Prejedus): وهو كتاب مهم جداً، والذي من الممكن الحصول عليه في الموقع الالكتروني وفيه الكثير من المعلومات فيما يخص العراق: www.veteranstoday.com/author/lindaue.

تتمكن من خداع أو تضليل الصديق أو العدو، لأنّ الكل أعداء حتى وإن كانوا أصدقاء، وهي نظرية قديمة جداً كانت دول العالم قبيل الحرب العالمية الأولى، بل قبلها بكثير يمارسها بعضها مع البعض الآخر.

وفي بدايات القرن الماضي وبتكوين عصبة الأمم المتحدة تبدّلت العلاقات الدولية وصار المتحكم فيها هو نفس شرط تعامل الإنسان مع الآخر في مجالات الحياة المتعددة كالتجارة والجوانب الاجتماعية، وما يخصّ الواقع الطبيعي الذي يؤمن به الفكر الإنساني.

لم تكن أمريكا تعلم وتتوقع الهجوم على الكويت، وقد كان ذلك الهجوم بمثابة صدمةٍ كبرى أظهرت خطأ الرأي القائل بترك الدول التي ليس لها من مصلحة في بناء علاقة معها، أو أن تتلقى معلوماتها من دولة ثالثة بدون وجود غطاء مخابراتي أمريكي مباشر كما هو في العراق وليبيا وإيران وسوريا والصومال فيما قبل والجزائر. وهنا كان على أمريكا أن تبادر إلى فتح ملف جديد مع صدام يتضمن أمر العلاقة ضمن الملف المعلوماتي المخابراتي، كما هي دول العالم الأخرى ضمن العلاقات الدولية التي تعترف بها كلّ دول المنظومة العالمية.

فشخصية صدام ووضعه إلى جوار المارق الإيراني أمر مهم جداً لأمن الخليج، وأمن المنطقة، فالعراق مع أنه مطل شيئاً ما على الخليج ولكنّه يمتلك المقومات لكي يكون سيد المنطقة التي تحاذي عالم المسلمين غير العرب، فالوصول إلى صيغة مثلى مع صدام أمر مهم لاستقرار المنطقة عموماً، خصوصاً في وضع دول الخليج غير الطبيعي

الذي تتكون حكوماته من عصابات عشائرية سيطرت على الحكم منذ نهاية القرن الثامن عشر في الوقت الذي تسيطر المنطقة على أكثر من 25% من طاقة العالم وهو أمر حيوي جداً للاستقرار العالمي وليس لأمريكا وحدها بالذات.

وقد كانت أمريكا والدول الغربية تعي جيداً بأن الوضع الخليجي من خلال السيطرة العشائرية أمر مقلق، بل إنه غير طبيعي على المستوى البعيد، وليس من المنطق أن يُسلّم ربع طاقة العالم بيد حكومات عشائرية، فكان التوجه هو أن يحتل العراق ذات الوضع الذي تحتله مصر في الشرق الأوسط أو في أفريقيا من خلال نظام يتمكن من التعامل مع الشعب بطريقة أو بأخرى، وهو الشيء الذي كانت الولايات المتحدة تطمح إليه من خلال التفاهم مع صدام في حرب الخليج الأولى والتي كانت تتوقع أن يتم ذلك ما بعد الانتهاء منها، ولكنّ المفاجئة التي لم تتوقعها أمريكا بأن صدام بدأ يعد العدة لحماقات أخرى أهمها: ضرب السعودية والكويت والتوجه إلى ابتزاز دول الخليج والتي كان آخرها هو الدخول إلى الكويت، في الوقت الذي لم تتمكن المخابرات الأمريكية ذاتها من أن تُدرك جديّة النية التي كانت التحركات السياسية والعسكرية العراقية تنذر بذلك.

في تلك الفترة كانت المخابرات قد اكتشفت بأن صدام لم يكن هو نفسه في أثناء حرب الكويت وأنها تشاهد شخصية أخرى تنوب عنه في التحركات، وهو ربما الأمر الأول الذي واجهته المخابرات العالمية خلال عملها، فمن الممكن زرع شخصية البديل في عنصر مخابراتي وهذا ما تفعله بعض مخابرات العالم في استبدال إسم شخص مات

وتغيير شخصيته إلى شخصية أخرى للقيام بمهمة ما، وهذا أمر طبيعي وليس في عداد الدول التي تعيش حالة أزمة مع دول أخرى مثل إسرائيل، أو الدول الديكتاتورية العالمية، ولكنّ الذي فوجئت به أمريكا بأن صداماً له أشباه متعددون تعتقد بأنهم خمسة، وكانت تراقبهم في أثناء حرب الخليج الأولى عندما كانت العلاقة مع أمريكا حسنة، وعندما فوتح صدام من قبل تقرير خاص لتوضيح الأمر اعترض صدام بشدة على ما وصفه التدخل في شؤون العراق، كما اعترضت الدول المجاورة التي كانت تتعامل مع الأشباه مع معرفتها بذلك ولكنها لا يمكن لها أن ترفض ذلك فاعتبرت هذه الخطوة على أنها خطوة لا تليق بالعلاقات الدبلوماسية بين الدول وهو أمر وارد وطبيعي.

ولم تتوقف الأمور على جانب شخصية صدام[1] وإنما انتشر الوضع إلى شخصية عدي الابن الأكبر الذي أوجد له أكثر من شبيه ولكنّ أكثرها كان هو (لطيف يحيى) الذي نشر مذكراته المعروفة بعد أن هرب إلى الغرب[2]. كما نشر ميخائيل رمضان مذكراته في كتاب بعد أن تمّ تهريبه من داخل العراق إلى الخارج[3].

(1) يعتقد بأن عزت الدوري قد مات قبل فترة ليست بالقصيرة وربما على يد القوات الأمريكية وأن كلّ ما يظهر من صور أو من لقاءات هو شبيه له.

(2) كنت إبناً للرئيس، لطيف يحيى، نوركا للنشر، النمسا، 1994.

(3) شبيه صدام، قصة الرجل الذي بقي 19 عام شبيه لصدام، ميخائيل رمضان، بلا سنة أو مكان للطبع.

ألغاز مقاربة

في التأريخ العالمي هنالك ألغاز لم تحل حتى بعد انقضاء أكثر من قرن على حدوثها، وبعد التطور العلمي والتكنولوجي فإن تلك الألغاز بقيت أرقاماً صعبة الفهم، وكأنها تبدو للناس بأن الفاعل كان يداً غيبية أو ما وراء الطبيعة، وخصوصاً عندما تحدث تلك الألغاز في عالم متطور مثل أمريكا وروسيا، فحادثة (راسبوتين) (ت 1916) لازالت غامضة جداً، غامضة كشخصية، وغامضة كمصرع، وغامضة كتأثير بقي العلماء وإلى الوقت الحالي يحاولون معرفة خلفياتها، وكذلك حادثة مصرع (جون كنيدي) في عام 1964 في (دالاس) بقيت في خفايا الأسرار بالرغم من أن الحكومة الأمريكية بذلت جهوداً مضنية وكبيرة في سبيل التوصل إلى حل لغز مقتل رئيسها[1].

(1) راسبوتين هذا فلاح سيبيري كان له تأثير سحري فعال على كلّ الرؤساء في القصر الرئاسي الروسي، فاسق إلى حد الإسراف، وثمل في الوقت الذي كان يحمل قيود تعذيب الجسد دوماً كجزء من المعاناة التي يجب أن يتحلى بها لكي تتمكن روحه من أن تتجنب القتل والموت أو الانتقال إلى العالم الآخر. فكانت قدراته كبيرة جداً كأنها قدرات الأولياء، فكان يشفي المرضى، وقد شفي ابن الملك المصاب بـ (Hemophilia) كذلك قدراته في شفاء الأحصنة وغيرها من طاقات لا يتمكن الإنسان العادي من امتلاكها. وقد دبرت محاولات كثيرة لقتله منها سموم فعالة (سيانيد البوتاسيوم) وضعت له وأكلها ولكنها لم تؤثر عليه، وكانت المؤامرة التي قادها ابن عم القيصر للتخلص من هذه الشخصية المرعبة، وعندما استمر راسبوتين يحتسي الكيك =

أمّا كنيدي[1]، فقد حارت عقول القضاء الأمريكي في التوصل إلى اسم القاتل، وكانت في كلّ مرة تصطدم بجدار مموّه، ولكنّ في عام 1986 اعترف المهندس الإسرائيلي المغربي المولد (فعنونو) إلى صحيفة (الصنداي تايمز) إن إسرائيل تمتلك أسلحة نووية[2] وهي

= والشراب المسموم بالسيانيد والذي كان لذلك السم الزعاف القدرة على قتل مئات من الناس في لحظة من الزمن، تفاجأ الخمسة الذين تواطأوا على قتله، فأطلق الأمير النار على راسبوتين بسبع رصاصات كلها أصابت جسده فوقع على الأرض ولكنه لم يمت، ثم نهض وسار إلى الحديقة وهو لم يزل قوياً إلى أن لاحقه القتلة وأفرغوا في جسمه حفنه من الرصاصات حتى سقط مضرجاً بدمه، نقله المتآمرون بعد أن أوثقوه من رجليه ويديه وكان حياً ولو شاء لقام، ثم رموه في نهر (النيفا) المتجمد بينما كانت الحرب العالمية الأولى على أوجها، الغرابة في الأمر أنهم وجدوا الجثة في اليوم الثاني في النهر، وفي تقرير الطبيب العدلي قال بأن راسبوتين لم يمت من السم أو من الطلقات النارية، وإنما مات بسبب الغرق لأنه لم يتمكن من أن يخرج من النهر بسبب أنهم شدوا يديه أنظر مادة راسبوتين على الموقع: http://en.wikipedia.org/wiki/Grigori_Rasputin.

(1) فإنه أطلقت عليه 3 رصاصات الأولى أخطأته ثم الثانية والثالثة قتلته، اعتقل (أوزوالد) وكان شاباً شيوعياً موجوداً مصادفةً في مسرح الجريمة، وفي التحقيق قتل أوزوالد رجل بوليس، وعندما أخذوه إلى المحكمة خرج له رجل يهودي يملك حانة خمور أسمه (جاك روبي) فأطلق النار على أوزوالد أمام الناس فقتله وهو بين يدي البوليس، هذا القاتل اليهودي مات بمرض السرطان سريعاً، نُقل كندي على وجه السرعة إلى المستشفى القريبة فأسلم روحه بعد حوالي ساعة، فهاجم رجال البوليس المستشفى بقوة السلاح وانتزعوا الجثة من أيدي الأطباء ثم دفنوها، شكلت الحكومة لجنة متخصصة (وارن) لم تتمكن من التوصل إلى القاتل. . . أنظر التفاصيل على الرابط التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/John_F._Kennedy.

(2) مردخاي فعنونو، هو خبير نووي إسرائيلي من أصل مغربي، عمل في مفاعل ديمونة وبعث لصحافيين صوراً من داخل المفاعل ومعلومات عن القدرات النووية الإسرائيلية، معلومات سمحت لمختصين نوويين أن يقروا بوجود قوة هائلة من الأسلحة النووية لدى إسرائيل، وكان فعنونو شديد الإعجاب بأستاذه إيفرون =

المسألة التي كان كنيدي يصر عليها لإخضاع مفاعل (ديمونة) إلى الفحص، وربما كان هذا السبب في مقتله من قبل سائقه وليس من قبل (أوزوالد)، ولكنها بقيت لغزاً محيراً لكل الناس في العالم ولحين هذه اللحظة.

جرت في التأريخ الإسلامي اغتيالات وأحداث كثيرة لازالت في طي الأسرار مثل اغتيال سعد بن عبادة (ت 14 هج) ومقتل الصحابي المقداد بن عمرو (ت 33 هج) بالإضافة إلى أسماء كثيرة مذكورة في كتب التاريخ وكلها تندرج تحت مقولة (إن لله جنوداً من عسل)[1].

كان صدام حسين لغزاً في حياته وعمله وفي شخصه، وكان

= بولاكوف ذو الاتجاه الراديكالي والذي رفض الخدمة مع الجيش الإسرائيلي في لبنان إلى أن سجن نتيجة لهذا الأمر. كان يظهر التعاطف مع الفلسطينيين، هرب من إسرائيل إلى أن دبرت له الموساد عملية تمّ بها حقنه بمخدر، ثم تهريبه في سفينة عائداً إلى إسرائيل في 30 ديسمبر/كانون الأول عام 1986، بتاريخ 5 أكتوبر 1986 نشرت صحيفة الصاندي تايمز المعلومات والصور وأيضاً مخطط ورسم للمفاعل كما وصفه فعنونو. وحسب ادعاء الصحيفة فأن نشر هذه المعلومات شكل أول دليل لامتلاك إسرائيل أسلحة نووية، أدهش فعنونو العالم بشجاعته وثباته إذ قال: «على الإنسان أن يكون مستعداً للمجازفة بحياته والتضحية بها من أجل العمل الذي يعتبره مفيداً للإنسانية». وفي مارس 1988، حكم على مردخاي فعنونو بالسجن 18 سنة من بينها 11 سنة بالسجن الإنفرادي، وبعدها منع من التحدث إلى وسائل الإعلام، بعد أن اعتبرته المحكمة خائنا، ليطلق سراحه يوم الأربعاء 21 إبريل من سنة 2004. أنظر الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Mordechai_Vanunu.

(1) مقولة مشهورة في التأريخ الإسلامي انتشرت في بداية عصر الاغتيالات كان قائلها هو أذكى أربع شخصيات في التأريخ الإسلامي اجتمعت في زمن واحد وتحت هدف واحد، وهم: (عمرو بن العاص، زياد بن أبيه، المغيرة بن شعبة، معاوية بن أبي سفيان).

شخصية اختلف في تقييمها معظم الناس. فقد تمكن من حكم العراق هذا البلد الصعب، بكفاءة منقطعة النظير، مع أنه لم يحصل على شهادة البكالوريوس أو المزيد من العلوم التي تؤهله لكي يتمكن من أن يقود بلداً صعباً مثل العراق، كما أنه لم يتدرب في مراكز التدريب المعرفي أو دراسة اللغات أو العيش في بلدان توفر له انتهال المعرفة، غير أنه كان في مصر في الستينيات وكذلك سوريا وهذان البلدان لم يمتلكا آنذاك قدرات لكي تنتقل بالتعلم إلى شخصية الرئيس العراقي[1].

تمكن صدام من أن يسوس العراق، ويسوس قادته بطريقة انتزعت الإعجاب من قبل محبيه ومن قبل مبغضيه، فقد تحدث إليه الكثير من القادة الذين وجدوا فيه قدرة متمكنة في فن الرئاسة، وفي السيطرة على الدولة، هنالك الكثير ممّن يبرر تلك القدرة بتبريرات السطوة والقوة والديكتاتورية والقتل والسجون، وهذه حتى لو كانت هي وسائله فإنه كان ذكياً في مكان استعمالها، وفي دقة توجيهها[2] فالغالبية الكبرى من الشعب العراقي كان يجهل الكثير من مسيرة الحكم الصدامي، كما كان يجهل أيضاً الوسائل البشعة التي تعامل بها مع المعارضة[3]، بل لم يكن يعلم بواقع التعذيب والسجون والمطاردات وغيرها وهذا ربما رأيته حتى في داخل المدن التي اشتهرت بمعارضتها للنظام في داخل العراق.

(1) الحياة السرية لصدام حسين من القصور إلى الجحور، أنيس الدغيدي، دار الكتاب العربي، القاهرة 2004.
(2) أسرار صعود صدام إلى السلطة. صلاح عمر العلي، مكتبة الحضارة بيروت. 2002.
(3) سنوات صدام، سامان عبد المجيد، بدون سنة ومكان الطبع.

فكان من القسوة بمكان بحيث يعجز الإنسان العادي في تصديق ذلك، فكان يقتل بيديه وهو جالس في اجتماع ويواصل اجتماعاته أو حياته العادية وكأن شيئاً لم يكن، وكان في ذات الوقت أباً جيداً لأولاده ولعائلته، فكانوا يحبونه ويحترمونه[1] ولم يكن يشعرهم بقسوته وبدمويته، وكأنه إنسان يحمل وجهاً مختلفاً عندما ينتقل من بيئة إلى بيئة أخرى[2] ومع أن العلم الحديث لا يستبعد هذه الصفات من قبل الشخصيات التي تعيش حالة الانفصام الشخصي (Schizophrenic) ولكنّ أن تكون قدرات الانفصام بتلك الدرجة من التطرف فهو أمرٌ نادراً ما يحدث[3]، وهي مشابهة لقصة (د. جيكل ومستر هايد) التي تروى بذات الشخص القاتل المجرم السفاح الذي يحنو على الفقراء في النهار.

تنتقل ذات القصص عن شخصيات تاريخية معروفة تحمل هذه الصفات المرضيّة المتناقضة، فالرشيد هارون (ت 193) كانت تبتل لحيته من دموع عينيه في تبتله في الصلوات ولكنّه في ذات الوقت كان يتفنن في القتل والتعذيب، فاخترع أسلوب الأسطوانة التي يبنى المعارض السياسي داخل بناء على حجمه حتى الموت. ونجد ربما ذلك التناقض في معاوية (ت 61) الذي طلب من (ضرار بن ضمرة) يوماً

(1) هذا ما ظهر في أثناء وما بعد حكمه مع أن هنالك الكثير من التقارير ترى العكس من ذلك وخصوصاً إذا فهمنا الطريقة التي عامل بها صهره حسين كامل بما صورته مذبحته المشهورة.

(2) كنت طبيباً للرئيس، د. علاء بشير.

(3) أنظر قصة حياة جوزيف ستالين التي لا تختلف كثيرا عن طريقة صعود صدام إلى السلطة وطريقة تعامله مع المحيطين حوله وكيفية تصفية المقربين، بالإضافة إلى وحشيته المفرطة وغيرها تجدها على الرابط: http://en.wikipedia.org/wiki/Joseph_Stalin.

أن يصف علياً[1] وهو في الأمس القريب يقاتله في أطول حرب إسلامية في التاريخ، وهو الذي سبّه على منابر الدولة سبعين سنة ثم دبّر مكيدة مقتله. وحتى يزيد بن معاوية (ت 64) قاتل الحسين عندما وصله الرأس وانتشى ابتداءاً في رؤيته عاد إلى رشده عندها بكى على الحسين.

هكذا شخصيات ليست بغريبة عن عصور الإنسانية طوال مسيرة التاريخ، فقد رأينا كيف بكى صدام أمام العراقيين في مشهد مأساوي عندما أراد قتل رفاقه الحمداني وعايش فلم يكن بكاؤه إلّا (حقيقة) لأنه يعيش شخصيتين تتناقضان في أوقات التزاحم، وفي أوقات عدم دقة التوجيه من قبل كوامنهما عندها ينفجر الإنسان في عالم غير محسوب، أو خارج عن إرادته.

---

(1) دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية فقال له صف لي عليا قال أعفني قال لتصفنه قال أمّا إذا كان لا بدّ من وصفه فإنه: كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلاً يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته وكان غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب وكان فينا كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ويجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه وينبئنا إذا استنبأناه ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم. يعظم أهل الدين ويقرب المساكين لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا يتضرع إليه ثم يقول: يا دنيا غري غيري إلي تعرضت أم إلي تشوقت هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك كبير وعيشك حقير آهٍ. . آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق. فبكى معاوية وكفكف دموعه على لحيته وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء. وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال حزن من ذبح ولدها بحجرها فهي لا ترقا عبرتها ولا يسكن حزنها ثم خرج.

كانت شخصية صدام تعشق القوة والموت في سبيل القوة، وكان قاسياً إلى الدرجة التي لا يملك مقابل فيضان حب السلطة أن يقاوم جموح النفس الراغبة في القتل والانتقام[1]، وهكذا شخصية غالباً لا تعيش بيولوجياً في عمرها أكثر من 65 سنة لأنها تمتلئ بالغيض وبنقيضه في آن واحد، وتظهر له أفعاله على شكل شريط مجسم يناوبه في حياته وفي عمله وفي ليله ونهاره إلى الدرجة التي تنقله إلى أن يتحول إلى شخصية صعبة المراس، وصعبة التطبع، ترغب في تبديل الكثير من معارفه أو أماكن سكناه أو زوجاته وأصدقائه[2]. بل إنه يرى الآخرين ممّن كان يُحبهم بالأمس أعداء له اليوم، وذلك بمجرد أن يرى منهم أبسط أنواع الاختلاف في الرأي أو في التفكير. في ذات الوقت تتميز هكذا شخصيات بسبب دوام عمل ماكنة عقله الذي يبقى متيقظاً خوفاً من المجهول في أن يصل إلى النقطة التي يكتسب صفات الذكاء، وهي التي تأتي من جرّاء الاستمرار في التفكير وليس من ميزة وراثية أو ما شابه[3].

---

(1) أمر بونابرت سلاح الفرسان شخص يُدعى (يواقيم مراد) بأن يُحضر ما تقع عليه يداه من المدافع الضخمة لقمع الانتفاضة الشعبية التي استعرت في باريس في العصيان على المؤتمر الوطني الذي يقوده نابليون، حيث استخدمها في قصف المعارضين وردهم على أعقابهم في 5 أكتوبر سنة 1795. قُتل في الهجوم ألف وأربعمائة مواطن ملكيّ، ونجا من تبقى منهم بحياته. يقول المؤرخ الاسكتلندي من القرن التاسع عشر، (طوماس كارليل) في كتابه (تاريخ الثورة الفرنسية) أن نابليون (طهّر الشوارع في ذلك اليوم بنفحة من مدفع).

(2) حكيم الملوك فرحان باقر.

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Schizophrenia.

ليس لنا ولكي نكون واقعيين أن نرمي بالتبعية لواقع معاملة صدام للشعب العراقي ومهاجمة الشعوب المجاورة على شخصيته بالذات، أو على واقعه السايكولوجي، وإنما الذي يتحمل ربما القسط الأكبر في تشكّل هذه الشخصية هو الشعب العراقي ذاته، لأنه هو الذي دفعه ودفع غيره من الحكام إلى أن يمتلكوا قدرة الطغيان والديكتاتورية في القتل، وفي استباحة المعارضين الآخرين[1]، فالحاكم هو من صنّعه شعبه وكلما خضع له شعبه ازداد إيماناً بأنه شخصية قدريّة، أو شخصية تاريخية جاءت بها اليد السماوية لإنقاذ هذا الشعب، وهي صفة تستولي ربما على كلّ الرؤوساء الذين يمتلكون صفة الفردية في السلطة، كما هم الحكام العرب بأجمعهم، وربما حكام المسلمين منذ العصر الراشدي وإلى التاريخ الحالي.

كذلك الشيء ذاته نراه جلياً في المرويات التأريخية التي يقدمها لنا القرآن في أن فرعون كان يقول لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: 29] وهكذا يعتقد الحاكم داخلياً بأن القدر أو السماء هي التي ساقته إلى إنقاذ هذا المجتمع، فيبدأ بالتصرف بهذه العقلية عقلية (المعصومية) (Infallible) والعلوّ والقوة.

وهنا يستميح الحاكم لنفسه في أن يمارس إبادة الآخرين ممّن يعترضون على حكمة السماء، أو لغة القدر في أن يكون هو الذي يحكم المجتمع. وهذا ما تجده في (هتلر) عندما كان يخاطب تابعيه

---

(1) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127].

كاتباع لقديس سماوي، هذا تجده أيضاً جلياً في الشخصية الصدامية التي أرادت أن تمتلك التأريخ والتي من خلالها أعتقد هو جدياً بأنه شخصية صنعها الله من خلال تجاربه التي اكتسبها منذ عهد حمورابي إلى آخر شخصية إسلامية عربية يفتخر بها، وقد لا نجد صعوبة في أن نرى هذه الفكرة طافحة أحياناً على لسانه أو على ألسنة حاشيته، فلم تكن مسألة ادعائه انتسابه إلى الحسين وعلي إلّا نوعاً من الربط الغيبي مع عالم المقدسات وعالم السماء، في الوقت الذي كانت تعيش في داخله شخصيات أخرى تحكّمت في ذاته وفي تركيبتها وكما يسميها علماء الأنثروبولوجيا (شيطان القوة) فوجد في نفسه نداءاً صارخاً يدعوه في المبادرة إلى إخضاع الدول العربية بأجمعها إلى سطوته وقوته، كما كانت أحلام (هتلر) في سيطرته على الرايخ الثالث[1]. فالشخصيتان

(1) الرايخ الألماني (بالألمانية: Deutsches Reich) هو الاسم الرسمي لألمانيا في الفترة من 1871 إلى 1945 باللغة الألمانية. ترجمته الحرفية هي (الإمبراطورية الألمانية)، تخلت الإمبراطورية الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى عن كلمة (رايخ) والتي تعني (الإمبراطورية) وتحول الاسم الرسمي (بالألمانية: German Reich) بصورة غير رسمية، ببساطة إلى ألمانيا. في تاريخ ألمانيا خلال فترة الرايخ الألماني (الثاني) تقليديا تنقسم لثلاث فترات متميزة: في ظل النظام الملكي لبيت هوهنتسولرن كانت معروفة بالإمبراطورية الألمانية (1871-1918)، في ظل الجمهورية الديمقراطية، كانت تعرف بجمهورية فايمار (1919-1933)، في ظل الديكتاتورية الشمولية كانت تعرف باسم الرايخ الثالث أو ألمانيا النازية (1933-1945)، بعد عملية آنشلوس بضم النمسا في عام 1938، أصبح اسم ألمانيا بصورة غير رسمية رايخ ألمانية الكبرى (الألمانية: Gro-deutsches Reich). كان الاسم الرسمي للدولة خلال عامين فقط (1943-1945) من الحكم النازي. أنظر الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/German_Reich

متشابهتان جداً في أحلامهما التي ترمي في السيطرة على تأريخ الألمان بالنسبة (لهتلر) والعرب بالنسبة إلى صدام.

كما هي واقعيتنا السابقة في عدم تحميل صدام ذاته ممارسة المذابح التي ارتكبها، فإنه في ذات الوقت كان لعامل الوراثة وعامل النشأة دور كبير لكي يتحول إلى الشخصية (المنفصمة) التي كانت ترى بأنها التي تمتلك التفويض في التصرف بحياة العراقيين، فقد كانت ظروف ولادته غريبة اختلف الكثير في شكلها وتبعيتها وطريقة انتمائه إلى هذا أو ذاك. وهذا أمر لا يجب الخوض فيه كثيراً بقدر الإشارة إلى التأثير الذي تركه على تركيبة شخصيته، فبمطالعتنا لكتب التأريخ القديم نجد هنالك رموزاً لولادات الكثير من القادة التاريخيين بعضها ذكرتها كتب الديانات القديمة وبعضها إشارت إليها كتابات القصص والأساطير[1].

(1) مثل (سرجون الأول) تلقي به أمه في الصندوق ثم في النهر، وكذلك (تموز) إله الخصب أيضا ترميه أمه في المياه، ، نفس الشيء (أوديب) اليوناني ويتخلص من نبوءة قتله على يد الملك (لايوس)، والنبي (موسى) يمر بنفس القصة والمحنة، ويسوع تهرب به أمه إلى مصر لكي لا يقتل على يد الطاغية (هيرود) و(أدونس) الفينيقي ينجو بنفس الطريقة، والنبي إبراهيم كذلك بعد أن حاولت أمه أن تلقيه في غار تخلصاً من النمرود الذي بدأ يقتل كلّ الولادات. وكأن الصراع الذي يدور بين الحق والباطل وهو مستمر بطريقة إعجاز الولادة التي تصاحب البطل غالباً وأن أصحاب النبوءات وقادة الأمم يحاول الشر دائما أن يغير من مسيرة التأريخ، ولكنّ الخير يبقى أخيراً وينتصر وهي دراما موجودة في كلّ الثقافات وهي تعمل عملها في نفسية العراقيين الذين يرتبطون بمثل هذه التراثيات بصورة كبيرة، فالغموض هنا في شخصيات القائد والرئيس في الولادة يربطها الشعب العراقي بحكمة الله. (النبي إبراهيم والتاريخ المهجور، السيد القمني، الناشر: مدبولي الصغير بدون سنة الطبع).

وهنا شعر صدام بأنه ليس فقط شخصية سياسية، وإنما شخصية تاريخية وقدريّة ربانيّة صنعتها الأحداث لكي تمتلك ناصية العرب وشعوبها، والتي على إثر ذلك غيّر الكثير من سياسات الدولة في العراق، وبدأ يعد العدة إلى مجتمع حرب كما هو المجتمع الألماني في زمن هتلر، أو المجتمع الإسرائيلي الآن يسانده في ذلك المحيطين حوله من قادته، بل كلّ العراقيين الذين وبسبب الواقع السايكولوجي الذي يمر به آنذاك من الرعب والخوف والانعزال عن العالم، فإنه وبهذا الظرف فإن الشعب العراقي بدأ يفكر بطريقين إمّا طريق إنقاذ نفسه، وهو الطريق الصعب جداً، أو طريق تصديق (الرسالة الصدامية) التي من الصعوبة مقاومتها أمام غياب بقيّة الخيارات، خصوصاً الخيار الأول الذي تحوّل إلى ثمن باهض لو فكر الشعب باتّباعه، لأنّ صدام كانت له قوة وقدرة في أن تكون عائلة المواطن العراقي وإلى الدرجة الرابعة هي الثمن في حالة الهرب من العراق أو المقاومة، أو رفض الأفكار، فتحول المجتمع العراقي كله في تلك الفترة إلى قوة تتحكم به الشخصية الملهمة التي أضافت ألقاباً كبرى له، كالقائد الضرورة، والملهم والصيرورة والفيلسوف وما إلى ذلك، وخرج الرجل عن تفكيره الواقعي إلى عالم آخر شأنه كشأن أي رئيس آخر تنصاع له ملايين من البشر ويتحركون بإمرته، وبتأشيرة من خلجاته لكي يغيّروا واقعاً قائماً إن كان بحرب أو إبادة أو غيرها، فصدام كان له أن يُرسل مليون إنسان زحفاً إلى أية بقعة أو دولة يختارها من دول الجوار لاحتلالها أو لتغيّير نظام الحكم فيها، بل ربما أكثر من ذلك بكثير عندما يضاف إلى ذلك عدد المليشيات الشعبية المسلحة وتشكيلات

المخابرات والمحبين له، وهكذا شخصية مهما كانت ومهما صارت، ومهما امتلكت من عمق الأخلاق والقيم - على فرض- فإنها لا يمكن لها أن تبقى في توازنها واستقرارها ومنطقها المعتدل.

فقد يخاطب أحد الحكام السحابة ليقول لها أينما تذهبين فأنت في ملكي وأينما تهطلين فأنت في أرضي(1) وقد قال المفكر مالك بن نبي الجزائري بأن هذا الشعور لدى الحاكم هو اللحظة التاريخية التي تأتي إلى اتّباع الحاكم الذي يحيطون به (البطانة) ليهمسوا في أذنيه بأنه إله، وإنه فوق قدرات البشر(2) إنه شعور بالإلوهية يسيطر على تفكير البشر الذي لم يعد يحتمل هذا الجو الذي هو أكبر من تفكير الإنسان العادي الذي يفهم بأنه ناقص أمام حاجاته الاجتماعية، وإذا به وهو في تلك اللحظات، وإذا البطانة تقول له أنت الإله وأنت الأعلى، إنه لم يحتمل أمام ضغط الحاشية في أن يبقى كما هو، فعليه أن ينتقل من مرحلة البشر إلى مرحلة أكبر منها تلك هي مرحلة الإلوهية التي كان الناس في العصور السابقة تعتقد بشكل الإله على أنه يجلس في السماء القريبة وأنه شبيه بالجسم الإنساني(3).

(1) فقد يُروي عن السادات بأنه كان يستأنس وهو يصعد في هليوكوبتر ليرى القاهرة وهي مستسلمة له، وأنه سيدها ينظر إلى شعبه وهم عاجزون صغار الحجم في أن ينالوه. . . .
كما هو جحا عندما صعد جبلاً فقال لنفسه: لم أكن أتصور أن الناس صغار بهذا الحجم، وهكذا كان هتلر يصعد إلى جبال (بيرشتسغادن) ليرى شعبه وهو طوع لأمرته وسطوته. (خريف الغضب، محمد حسنين هيكل).

(2) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: 38].

(3) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258].

فلم تجد في العراق في تلك المرحلة خصوصاً فترة الحرب العراقية الإيرانية من شيء لا يمجد بصدام كتباً وصحفاً وبنايات وجماد وعقول، فكانت الشعوب الأخرى تحجّ إليه، كما يحجون إلى بيت الله الحرام، فتحول إلى واقع ذي قوة هائلة أكبر من قدرة من يتصور في التاريخ، فهتلر أقرب ديكتاتور في عصرنا كان شخصية لها مقربون يعترضون عليه في الرأي، أو في القرارات وهو شعور مهم للحاكم في أنه لازال إنساناً ولم يرتفع إلى مستوى المخلوقات المقدسة الكبرى بعد، بينما في شخصية صدام فإن ذلك لا يمكن له أن يكون، فكل الذين من حوله هم مسبحون بحمده، متقربون إلى زلفته، وهؤلاء هم من كان يدير الحكم والذين نسميهم (صدام الظل) الذين سوف نأتي على ذكرهم عندما يحين وقت الحديث عنهم.

هؤلاء كانوا يجرّعون صدام أفيون السُكر والعظمة والغطرسة والإلوهية بطريقة أقرب منها إلى جرعات (الكراك) (نوع من الكوكايين)[1] لتحيل شعور الإنسان بالتدريج بأنه بدأ يرتفع عن مستوى

(1) يؤثر الكوكايين على كيمياء مخ المستخدم: ويسبب له النشوة، وزيادة الثقة بنفسه،و فقدان الشهية، والأرق، واليقظة، وزيادة طاقته، والشغف للمزيد من الكوكايين، والبارانويا (التي تنتهي بعد الاستعمال). إن التأثير الأولي للكوكايين هو إفراز كمية كبيرة من الدوبامين، وهي مادة كيميائية في الدماغ تُحفِّز الشعور بالبهجة. وتستمر هذه الحالة عادةً من 5-10 دقائق بحد أقصى، ثم ينخفض مستوي الدوبامين في الدماغ، ممّا يسبب الشعور بالاكتئاب. و عندما يذوب الكراك ويحقن أو من خلال التدخين، يمتصه الدم بسرعة، ممّا يُسبب الشعور بالنشوة، مثل ما يحدث مع استخدام أشكال أنقى من الكراك، وبالتالي يبدأ المستخدمون في الحصول على جرعة أخرى من المخدرات، إلّا أن مستويات الدوبامين في الدماغ تستغرق وقتاً طويلاً لتجديد نفسها.

سطح الأرض في عالم خيالي واسع، خالياً من المنغصات، وكلما نقص ذلك الأفيون كلما أعطوه (قيادة الظل) جرعة أخرى أقوى من الأول لكي يبقى في سكرته المهدئة وفي عالم الخيال الذي يرتفع فيه عن عالم الدنيا الملئ بالأفكار والمشاكل وما إلى ذلك[1].

فالإنسان عبارة عن شخصية مفطورة ليس على حب السلطة لأنّ السلطة موجودة ويدركها ساعة ولادته عندما يطلب المساعدة في بكائه لنجدته، في غذائه وإيوائه، ولكنّ علماء النفس يقولون بأن الفطرة التي يولد عليها هي (حب إساءة استعمال السلطة) وليس (حب السلطة) فقد قال معاوية الثاني (ت 64 هج) عندما دُسّ إليه السُم وهو شاب بعد أربعة أشهر من خلافته يتقلب على فراش الموت وأمه إلى جنبه[2] وذلك بعدما آلت إليه الخلافة من أبيه يزيد بن معاوية (ت 64 هج)، في

(1) يقول المؤرخ (فرانك مكلين) أن نابليون بلغ من النجاح حداً بعد معركة (أوسترليتز) جعله يفقد إحساسه بالواقع، وأن ما كان يُعد سابقاً سياسة فرنسية خارجية، أصبح في ذلك الوقت يُعد (سياسة نابليونية خاصة)، أي بتعبير أخر أصبح نابليون يُمثل فرنسا من جميع النواحي، حتى من ناحية الشعب، فإرادته الخاصة وفقاً لهذا المؤرخ هي إرادة الشعب الفرنسي. إلا أن المؤرخ البريطاني «ڤينس كرونين» يقول بأن نابليون لم يقم بتلك الحملة وما تلاها تحقيقاً لطموح شخصي، بل (تحقيقاً لطموح ثلاثين مليون فرنسي)، أي أن الفرنسيين أنفسهم كانوا راغبين وموافقين على ما قام به نابليون واعتبروه يُحقق مصلحة بلادهم.
Joel Colton, R. R. Palmer (1995). A History of the Modern World. Mc-Graw Hill, Inc. pp. 428-430. ISBN 0-07-040826-2.

(2) جلست أمه إلى جنبه (تزوجها مروان بعدها) فقالت له: ليتك كنت خرقة حيضة، فقال لها: وليتني يا أماه خرقة حيض ولم أتقلد هذا الأمر، أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوءُ بوزرها وَمَنْعِها أَهْلَها. . .؟

الوقت الذي كان حاكم آخر قد قالها بشعوره الإنساني وهو يصارع شعور سكرة السلطة وحلاوتها وأفيون القوة وعنفوانها[1] ولكنّ بطريقة أقرب إلى مفهوم الصراع النفسي الداخلي.

أمّا النُظم الغربية وقوانينها فإنها خففت كثيراً من سطوة السلطة، وجّزءت قواها بين مؤسسات متناقضة، فصار المثل الغربي يقول بأن رئيس الدولة هو رجل الشارع العادي وليس الرئيس الأمريكي، باعتبار أن الأول هو من جاء بالثاني إلى السلطة فهو سيده وليس العكس.

أنتقل صدام من شخصية الإنسان العادي إلى شخصية (الفوهرر Fuhrer) التي كانت شخصية مختلفة تماماً بما تتطلبه من أدوات تديم له الشعور الجديد الذي يحقق الاستمرار في التمجيد والقوة والشعور بالعظمة، والتي بدونها تعود نفسيته إلى ذاتها فتذكّره بأنه لازال هو ابن (العوجة) (مسقط رأسه) وهو الشعور القاتل الذي ينتاب الإنسان، كما هو شعور المنتشي من (الهيروين) من جرّاء مادة (الدوبامين) وهي في طريقها إلى النفاذ، وهو شعور مدمّر يحول الإنسان إلى قوة هائلة في التدمير بما يمتلكه من قوى ومن طاقات، لأنه يريد أن يبقى في شعور القوة والاستعلاء ويسمى (High) لا أن يتحسس الحياة بثقلها ومأساتها، وواقعيتها التي تمتلئ بالمشاكل والمسؤوليات المنغصة

(1) أمّا وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ، لَوْلا حُضُورِ الحَاضِرِ وَقِيَام الحُجَّةِ بِوَجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أخَذَ اللهُ عَلَى العُلَمَاءِ أنْ لا يُقَارُّوا عَلَى كِظَةِ ظَالِم وَلا سَغَبِ مَظْلُوم، لألْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأسِ أوَّلِهَا، وَلألْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أزْهَدُ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْز.

اليومية. ولذلك تجد أن الكثير من الجرائم التي يرتكبها الإنسان تحدث في خلال فترة اليقظة من نفاذ مادة الدوبامين التي يحفزها المخدر.

فلم يتمكن صدام في تلك الفترة من أن يعود إلى الوراء في الشعور بأنه إنسان عادي. فالمرحلة تغيرت ونفسيته تبدلت وأصبح في طريق لا يمكن العودة منه، كمن يرمي بنفسه من شاهق فليس هنالك من فرصة في أن يقول لنفسه بينما هو يهوي إلى الأسفل بأنني مخطئ في قراري، وأنه كان علي أن لا أتخذ هذا القرار.

وهكذا شخصيات كثيراً ما تجدها في الواقع العام، وخصوصاً في الدول التي تتأصل فيها أسباب القوة والسلطة والعصبية، وهي الدول العربية والإسلامية بالعموم والتي بقيت وحيدة الآن تدور في محيط الديكتاتوريات الفردية بعدما تغيرت الأمم وتبدلت قوانين حكم العالم نحو مبدأ تجزئة السلطة، في أن تكون في يد قوى متناقضة لكي لا تتولد هكذا شخصيات من رحم المجتمع، ولو كان لنا من الوقت لكتبنا كتاباً مفصلاً عن الشخصيات العربية قديماً وحديثاً من تلك التي أصيبت فعلاً بهذا المرض (شيطان القوة) ولقدمناه هدية إلى الشعوب التي هي في الواقع من خَلَقَ هكذا نماذج في محيط شعوبنا العربية، وهي الشعوب التي تمتلك قدراً كبيراً من الاستعداد لكي تبنى وتتبنى هكذا رموز تتحول بعدها إلى خطر مدمّر على الجميع.

وتأريخنا العربي والإسلامي مليء بشكل مميز عن الأمم الأخرى بما يمتلكه من خزين عميق خلقته أسس فلسفة السلطة في الإسلام أو في التشكيلة (الثقافية القرشية) التي جاءت مباشرة ما بعد الرسول، وقد

حرّرت نفسها تماماً من عوامل الكبح التي تحدد الحاكم في أن يكون مخلوقاً يتميز بالإنسانية، وبقدراته التي هي فوق مستوى الناس العاديين بعد أن أضفوا على شخصيته هالة القداسة وهالة العصمة عن الخطأ.

وبزيادة حالة التناقض بين الشعور النفسي الاستعلائي وبين الواقع الحقيقي تقع المأساة التي هي ناتج لحاجة الشعور بحالة الاتّزان (Homeostasis) أو علم الضبط والتحكم (Cybernetics)، وهذا معناه أنه يجب مثلاً على الإنسان الجائع عندما يحتاج جسمه إلى الغذاء أن يبادر تلقائياً في البحث عن مصادر الغذاء يأخذها من الخلايا الدهنية التي يتكون منها جسمه، أو من مصادر غذائية أخرى لإعادة حالة النقص الغذائي، أو أن يطلبها من الخارج من خلال تناول الطعام لكي يعيد له توازنه إلى حالة الاستقرار. وهي حالة بيولوجية تنطبق على الجانبين النفسي والعصبي في أن الإنسان دوماً يميل أوتوماتيكياً وبدون إرادته إلى حالة (الاتزان) النفسي بطرق كثيرة بعضها فكرية وبعضها بيولوجية.

والمصاب بداء العظمة يحتاج دوماً إلى مصادر لإعادة توازنه، والتي تتبلور في وسائل إشعاره بأنه لازال عظيماً وأنه القوي والفوهرر، والضرورة، والقائد الملهم والفيلسوف، وذلك إمّا من خلال حديث من حوله مع تقديم دلائل له بذلك، أو أنه إن فقد الثقة بمن حوله فهو يبادر إلى إثبات ذلك بنفسه، وهي حالة خطرة يقدم الإنسان على ارتكاب جرائم بشرية فظيعة كبرى من أجل الحفاظ على حالة التوازن تلك، وهذا تماماً ما كان صدام يمارسه فيما بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية، مع أنه كان في خلالها وربما قبل ذلك التاريخ الذي لا نملك

وثائق مؤكدة أي من قبل أخصّائيين معتدّ بهم من الأطباء في إثباتها خلال تأريخ ما قبل الحرب، مع أنني أذهب إلى أن الحالة هي ذاتها ليس من ذلك التاريخ فقط، بل إنها بدأت منذ أواسط السبعينيات، ولكنها بقيت مستترة إلى أن تمكن في الوصول إلى الحكم في عام 1979 وعندها تقدمت الحالة النفسية بشكل كبير حتى كان أوج إشباعها هو فظاعة الحرب وقسوة الدماء التي أسيلت والتي أشعرته بأنه شخصية تقدر أن تقتل وتحيي وتميت وما إلى ذلك من قدرات الإنسان الخارق القريب من تفكير من هم فوق البشر.

وما أن انتهت الحرب تبين لصدام عندئذ بأنه من الصعوبة له أن يرجع عن حالته التي فُرضت عليه، وأن يستشعر بأنه إنسان له قدرات كما هي لي وللآخرين، لأنّ هذا الشعور يوقظ في داخله تعذيباً نفسياً هائلاً وعميقاً نابعاً من الضمير الداخلي له (و لكل إنسان) في تحمّل مأساة قتل مليون إنسان عراقي، ومليوني إنسان أو أكثر من الشعوب الأخرى - تصور عزيزي القارئ - نفسك وأنت تحمل شعور قتل إنسان واحد، تصور حالك في لحظات بأن الضحية هم إبنك أو أبيك أو أمك، فما هو حجم العذاب المدمر الذي ينتابك وأنت تعيشه في كلّ دقة قلب ونبضة عرق.. إنه بالتأكيد مدمّر لا يمكن علاجه أبداً إلّا بالاعتراف أو تدمير الشخصية أمام إنسان أو قوة كبرى وهي قوة المَثل الأعلى وبصوت عال، مع طلب القصاص عن نفسه من خلال أذى أو قتل النفس، وهذا ما يُقدم عليه الكثير من الشجعان في التأريخ[1]، أو

(1) كأمثال: زنوبيا ملكة تدمر بعد أسرها من قبل الرومان، كذلك الملكة كليوباترا، هتلر، =

أن يواصل طريق استمرار حُقن التخدير التي تحدثنا عنها (حُقن شيطان القوة) التي تتمثل بالمزيد من القتل والمزيد من رؤية الدماء تتناثر من أناس قريبين أو شخصيات بعيدة إمّا معروفة كما هي قصة مقتل د. رياض حسين وزير الصحة السابق، أو د. راجي التكريتي، أو د. إسماعيل التتار، ود. السلمان والشهيد الصدر الأول والثاني وغيرهم ممّن تمّ قتلهم بطرق في غاية الوحشية وبدون مبرر لهذا النوع من التمثيل بالكائن الحي، باعتبار أن القتل هو إنهاء إنسان لم يرق وجوده في الحياة لشخصية صدام ربما وجد له الحق في قتله، ولكنّ أن يمثل بجثته بتلك البشاعة فهو بالتأكيد ليس له من مبرر إلّا انطلاقاً من حاجة نفسية مريضة لإعادة كيان التوازن النفسي الذي يشعر بها صدام.

فضحايا صدام لم يكونوا كلهم ممّن عارضوه أو أرادوا به السوء، بل الغالبية الكبرى منهم كانوا ضحايا المرض النفسي الذي يكمن في داخله، وبالصدفة كان هنالك شخص يجب أن يكون الضحية لسبب قد يكون بسيطاً أو تافهاً ولكنّه كان في الزمان والمكان الخطأ، ولذلك لم يكن لصدام أصدقاء، ولم يقترب منه الكثير حتى ممّن هم من صنع في روحه الداخلية مرض (التقديس)، فهؤلاء لا يهمهم صدام بقدر ما

= غوبلز وزير الدعاية الألمانية، هيندرك هملر وزير الحربية الألمانية، ثم غازي كنعان مدير مخابرات سوريا بعد مقتل الحريري. وقبله عبد الحكيم عامر بعد فشله في حرب الأيام الستة، ثم إدوارد جون سمث قائد السفينة تيتانك، وقبلهم بكثير في عام 65 هجرية جيش التوابين الذين قتلوا أنفسهم (عشرة آلاف) في معركة (عين الوردة) بعد أن رفعوا شعار ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 54].

يهمهم دوام سيطرتهم، أو دوام قدراتهم التي وفرها لهم الظرف الصدامي غير الطبيعي.

وقد حدثت خلال فترة ما بعد حرب الخليج الأولى فضائع علي يد صدام إن كان شخصيا أو من خلال قيادته يندى لها جبين الإنسانية بسبب انقطاع حالة الشعور التي تنتاب الرئيس من جراء عمليات القتل والدماء، فكان من الضروري تعويض ذلك بالتوجه إلى المقربين وإلى شخصيات المعارضة وإلى الآخرين من أبناء الشعب، وهكذا بات معتقل الرضوانية والشعبة الخامسة وأبو غريب مسلخاً كبيراً وهائلاً كانت شخصية صدام قريبة من تلك المشاهد لما لها من تأثير نفسي عميق على استقراره من خلال إعادة الشعور له بأنه لازال القوي والرئيس المفدّى.

هذه الحالة من المرض النفسي قادتها البطانة التي شكّلت وزرعت هذه الشخصية إلى التفكير بأهمية استمرار شخصية صدام كرمز من خلال فكرة (الأشباه) أو (البدلاء) التي كانت موجودة في السابق، ولكنها لم تتبلور بشكل علمي دقيق إلا في نهاية الحرب العراقية الإيرانية، وبعد أن أكتوى المحيطون به بنار القتل والإبادة، وكأنهم كانوا يريدون أن ينقلوا لقائدهم الحقيقي (صدام) في القول بأن تلك الشخصية (الشبيهة) هي شخصية قادرة على التدمير كما هي شخصيتك، ففكرة (الأصنام) ما هي إلّا عبارة عن حالة واحدة كان العرب الأوائل يتخذونها لتحقيق العلاقة ما بين الأرض مع السماء من خلالها، فلم يكن لهم صنمٌ واحدٌ، وإنّما كان عندهم -كما هو معروف- 360 صنماً وهو العدد الذي حطّمه النبي يوم فتح مكة، وهذه التعددية في الأصنام

قريبة تقترب فكرتها من تعددية الأشباه الصداميّة، والتي تعمل على تغيير الواقع النفسي له في إعادته إلى درجة (الاتزان Homeostatis) المطلوبة، والتي هي رد فعل طبيعي لتصرفات البشر.

ومع أن الأشباه الكثر لهم تأثير أكبر على واقع المحكومين حتى وإن كانوا على علم بأن الشخص الذي أمامهم هو الشبيه وليس الأصل، فالجانب اللاشرطي للشبيه ربما يكون أحيانا أكبر تأثيراً على الشعب من ذات الشخص الأصلي كما هي تجارب (بافلوف) في اقتران الطعام برنة الجرس التي تصل إلى الدرجة التي أصبح الكلب يستجيب بدرجة مشابهة إلى رنة الجرس منها إلى الطعام إن لم تكن أكثر تأثيراً[1]. وهي قضية علمية مثبتة في المجال التجريبي لاستجابة الحواس للبشر والتي على أساسها بنيت النظريات الإعلامية ونظريات قيادة الأمم.

---

(1) أنظر كلمة (Classical Conditioning) في:
http://en.wikipedia.org/wiki/Classical_conditioning.

معركة الأشباه مع المخابرات العالمية

ليس هنالك من تعارض في أن الشخصية المهمة عليها أن تعطي لنفسها الحق في اكتشاف قدرات للتخفي عن الأعداء، يتمكن بها القائد على مواصلة عمله بطريقة تمويه أولئك الأعداء، وهذا كما ذكرت في بداية الكتاب ليس أمراً مخالفاً لأعراف الدول التي تُحكم ديكتاتورياً، أو ربما بسبب توفر وضع أمني خاص كما هي الحالة في الوضع الإسرائيلي، أو الوضع الكوري الشمالي، أو بعض الدول التي تعيش في ترقب من وجود أعداء داخليين كانوا أم من الخارج، أو أن يحمي ذاته من غضبة شعبه الذي يرى في أن وجود هكذا شخصية في سدة الحكم من شأنه أن يُغّير من تأريخ القطر نحو الأسوأ ونحو التأخّر الاقتصادي والاجتماعي.

وهنا على القائد أن يجد طريقة معينة لحماية نفسه من مقربيه ومعارفه من الوزراء، أو ممّن يلتقي بهم يومياً أو من الشارع الذي كان عليه أن يواصل ظهوره إليه بغية استمرار حالة السيطرة والرهبة التي تمنع انشقاقات وانقسامات المجتمع فضلاً عن المعارضة الشعبية السلمية أو المسلحة[1].

(1) أشهر الشخصيات العالمية التي كانت قد أعدت بدلاء (Decoy) لهم ينوبون عنهم لتنفيذ مهام سياسية أو غيرها والذين تم الإعلان عنهم من قبل الشخصية الشبيهة: =

تتفهم الولايات المتحدة والغرب الوضع العراقي بصورة لا بأس بها، أقول لا بأس بها وليس بالكامل لأنّ الوضع العراقي كما هو الوضع الليبي غامض بشيء ما نسبة إلى الدول الأخرى بالنسبة إلى الغرب، والدلالة على ذلك هو التخبط الواضح في القرارات وفي التحركات السياسية والعسكرية الأمريكية بعد دخول قوات الحلفاء العراق. فقد كانت تجربتهم وكأنها تجربة أعمى يسير في شارع مليء بالمطبات لا يدري أين هي الحفرة ولا يعرف اتجاه وتعرجات ذلك الشارع، وهذا ما أثبتته السياسة التي تلت فترة الاحتلال، وربما وإلى الآن بعد مرور أكثر من عقد من الزمان على ذلك. هذا في الوقت الذي لم تكن المصالح الأمريكية متقاربة كثيراً من المصالح العراقية، أي أن الولايات المتحدة لم تكن ترى في العراق في فترات السبعينيات بأنه من الأقطار المهمة لسياستها، وهو بعكس ما كانت تتعامل به مع الملف السعودي أو المصري أو الأردني ومن قبله الوضع الإيراني، وذلك لأنّ العراق بلد محصور ضمن حلقة أمريكية لا يمكن له النزوع عنها.

ففي شماله دولة أطلسية هي تركيا، وفي شرقه إيران الشاه القريبة

= 1 - مونتغمري القائد العسكري البريطاني المعروف أناب عنه كلف جيمس. 2 - هتلر أناب عنه أربعة بدلاء. 3 - هنريك هملر مساعد هتلر الذي لم يكن هو الذي انتحر بل هو شبيهه. 4 - جوزيف ستالين له أكثر من بديل أحدهم اسمه راشد. 5 - هنري كيسنجر كان له على الأقل شبيه واحد. 6 - بورس يلستين كان له شبيه ينوب عنه. 7 - نوريغا الرئيس البنمي كان له عدد من الاشباه. هؤلاء كان لهم بدلاء بالشكل، كما أن هنالك من كان لهم بدلاء بالصوت مثل ونستون تشرشل، هاري ترومان، انديرا غاندي.

المقربة من السياسة الأمريكية، وفي جنوبه السعودية والكويت اللتان لا يُعبّر عنهما إلّا أنهما تابعتان غير ملتصقتان جغرافياً للمساحة الأمريكية، وفي الغرب هنالك الأردن التي هي الملكيّة أكثر من الملك ذاته، ثم سوريا الدولة التي تعيش في واقع مشاكلها وفقرها.

فالعراق لم يكن يوماً قطراً مهماً للسياسة الأمريكية بصورة ملحة، ومنذ - ربما - وقت الحرب العالمية الثانية وإلى حين التغيير في إيران في فبراير 1979 وهو وقت التخلخل الذي ساد الواقع الأمريكي. فكان الطموح أن ينضم العراق إلى سدّ الثغرة التي تركها سقوط نظام الشاه. وبذلك عملت أمريكا على تقوية العراق في حرب السنوات الثمان إلى حين عام 1988 عندما كانت تعتقد وبمجرد وقوف الحرب أن تبدأ صفحة جديدة مع العراق.

إنّ القيادات المخابراتية الأمريكية كانت على الدوام في حيرة من تصرفات العراق، وخصوصاً صدام الذي كانت ترى فيه المهندس الأوحد للسياسة العراقية، فكل من يقول بأنه مشارك في صناعة القرار العراقي فهو كاذب، لأنّ البلد بأكمله رهن إشارة الحاكم الأول صدام. أمّا ما غيرهم فهم أدوات بسيطة تتحرك كيفما شاء الرئيس أن يحركها كما هو واقع السياسية الليبية قبل السقوط، وكذلك غيرها من الدول العربية كالسعودية وغيرها.

إنّ تفهم الشخصية الصدامية[1] مهم جداً من قبل أية دولة ترغب في

(1) المصطلح (الصدامية) ليس له من وجود سياسي في قاموس الفهم الدولي، وهو نموذج جديد وضعه صدام نفسه ويستحق الدراسة والتأمل بما يحمل من مساوئ ومن =

التعامل مع العراق شأنها كشأن أيّ قضية أخرى في الحياة: كالتجارة والصناعة وغيرها التي تتطلب من المتعاملين على تنفيذ مشروع ما ضرورة استقراء شخصية الجانب الذي تتعامل معه، وبقدر تفهم الجانب المقابل فإنه يتحقق القدر الأكبر من المنافع لكلي الطرفين. وقد اكتشفت الولايات المتحدة الكثير من الثغرات في التعامل مع صدام، وكان أهمها أنها لم تتلق أية معلومات صادقة فيما يصل إلى الجانب الأمريكي في أيام شهر العسل من بداية الثمانينيات وإلى حين انتهاء حرب الخليج الأولى، في الوقت الذي كان يستلزم على الشركاء أن يصدق أحدهما الآخر في أي موضوع يتم التعامل به. والتعامل الدبلوماسي مبنى على الوضوح والشفافية، وليس كما نعتقد خطأً، على الغموض والأكاذيب(1)، المعلومات التي وصلت للإدارة الأمريكية من العراق كانت مخالفة جداً عن الوقائع على الأرض، وبذلك فتحت الدولة الكبرى حوار قاده في ذلك الوقت من الجانب العراقي نزار حمدون (ت 2003 م) الذي افتتح أول سفارة للعراق في أمريكا في

= تعقيدات وهو مشابه لمصطلح (الميكيافلية) باعتبار أن ميكافيل قد وضع نظريته في كتابه الشهير (الأمير) وأصبحت مصطلحاً ذا دلالة يتفهمها واقع المدارس السياسية، كذلك المصطلح الصدامي فهو مدرسة لها شكلها ووضعها بعلم أو بدون علم مؤسسها لتكون تجربة مهمة لمسيرة الإنسان ومسيرة السياسة.

(1) أنظر إلى كتاب (بريمر) الحاكم المدني في العراق عندما يتحدث عن شخصيات عراقية (إسلامية) فإنه يصفها بأنها كاذبة وهذا شيء استغربه الغربيون الأمريكان باعتبار أن الكذب هو أسوأ ما يمكن أن يتصف به السياسي، فضلاً عن التزامه بتعاليم الدين. فهو لم يشر أولاً إلى نوعية الفهم التي تتحلى به تلك الشخصية، وإنما ركز على الصفات التي تعتبر مدمرة لكل علاقة بين جهتين وهو الصدق والوضوح.

عام 1984 بعد قطع العلاقات في عام 1967 وقد صار ممثل العراق الدائم للأمم المتحدة، حيث كان يتمتع بعقلية منفتحة[1]. وكان من أهم ما أثير من المواضيع هو شخصية صدام (البديلة) أو (الشبيهة) التي لم يعترض الأمريكان على وجودها، ولكنّه اعترض على طريقة التعامل معها بهذه الصورة من الغموض، وخصوصاً في استقبالاته الديبلوماسية للوفود التي تأتي إلى العراق[2].

هذا بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة تريد أن تتأكد من مصادر القرارات التي تصدر من العراق حكومة، وليس من قبل شخص ما وهو صدام، مع أنه يمثل رئاسة الجمهورية، ولكنّه يبقى رئيساً وليس هو الدولة كما سارت عليه أعراف الديبلوماسية، فالولايات المتحدة تتعامل مع قطر وليس مع شخص، وعلى ذلك نشبت أزمة حادة بين الدولتين اضطرت الولايات المتحدة على أثرها أن تقدم إلى صدام وثائق الاعتراف التي أدلى بها ميخائيل رمضان (مخلوف) الشخصية التي عملت كأول شبيه له في السبعينيات وإلى حين نهاية حرب الخليج الأولى والذي تمكن بعدها من الهرب إلى أمريكا حيث تبيّنت أمريكا من خلالها مدى مستوى الخداع الدولي الذي كان صدام يعده ضد

---

(1) ربما باعتباره شخصية علمية حاصل على دكتوراه في الرياضيات قبل أن يكون دبلوماسياً، مع صعوبة الجمع ما بين الاختصاصين في إمكانية شرط توفر عنصر الصدق والحيادية في الجانبين البحثي والسياسي.

(2) أنظر مقابلة صدام التي تمّت في عام 2002 مع الشخصية النمساوية (هايدر) (ت 2008) ثم الزيارة الثانية فيما قبل الحرب بقليل عام 3003 ورأي الأخير به.
http://www.adl.org/combating-hate/domestic-extremism-terrorism/c/joerg-haider-saddam-hussein-bedfellows.html

الآخرين، سواء أكانوا من الشعب العراقي أم من الدول الأخرى، وخصوصاً أمريكا وإسرائيل الدولتان اللتان كان صدام يعتقد بأنهما عدوتان لدودتان له بالذات، وأنهما يريدان قتله هو شخصياً، فقد كان يعتقد بل يتصور في أن الطموح الذي يمتلكه في سيادة الدول العربية سيواجه بالرفض من قبل هاتين الدولتين كما هو شأن (هتلر) في طموح سيادته على أوروبا والذي من خلاله كان يرى بأن بريطانيا هي العقبة الكبرى التي عليه أن يواجهها، ولذلك ترك أمر مواجهتها في آخر المطاف بعدما سيطر على كلّ أوروبا كالمصارع أو القاتل الذي يترك عدوه الرئيس في خاتمة المطاف.

فصدام يعتقد وربما الكثير من المحيطين حوله بأن إسرائيل تريد أن تستبدله وكذلك الولايات المتحدة، وهذا ليس أمراً غير وارد، وإنما كانت الولايات المتحدة في فترات من بداية الحرب العراقية الإيرانية جادة في ذلك بسبب الضعف في إدارة الحرب الخطيرة التي كادت أن تستعر في كلّ المنطقة، وكانت تعتقد جدياً بأن الكثير من دوافع صدام في شن حربه على إيران هي الدوافع الشخصية والدوافع الطائفية، وليس لسبب وطني من قبيل التهديد الإيراني للعراق فيما يتعلق باتفاقية الجزائر أو غيرها من الشعارات الوطنية أو السياسية، فإلغاء اتفاقية الجزائر قبيل الحرب من قبل صدام كان خطأً سياسياً ودبلوماسياً فاضحاً.

كما أنه كان يرى في الدولة العبرية محل خصومة له فيما يتعلق بطموحه نحو مشروع سيادته على الدول العربية في مشروع حرب شاملة تعم الشرق الأوسط، وأن إسرائيل ستكون عقبة كبرى أمامه، مع أنه كان قد أرسل إليها أكثر من إشارة إلى أنه لا يعنيها في هذا المشروع،

وإنما يعني البقية من الدول، وخصوصاً الخليجية منها بالإضافة إلى سوريا.

وأمام هذا الخيار لم تقتنع الولايات المتحدة بعد انتهاء حرب الخليج بسياسة صدام، بل كانت تفرض بين الفينة والأخرى رأيها عليه من خلال الضغط على القنوات الدبلوماسية، في الوقت الذي بات واضحاً بأن الشخصية الصدامية لم تكن أقل خطراً على المنطقة من خطر الشخصية الهتلرية للتشابه الكبير فيما بينهما من الناحية البيولوجية والسلوكية وطريقة التعامل مع المواقف، ولذلك فإن الولايات المتحدة قد اتخذت قرارها تقريباً في عام 1989 في العمل على استبدال صدام بطريقة أو بأخرى، ربما إمّا بترتيب انقلاب داخلي من داخل حزب البعث، أو بالتعاون مع الدولة الصديقة وهي الاتحاد السوفيتي آنذاك.

وقد سرّب الاتحاد السوفيتي الأمر إلى صدام الذي لم تخشَ الولايات المتحدة من أن تصل نيتها تلك إلى صدام، لأنه أمر ربما شاع في الكثير من المحافل الدولية.

تمكن النظام العراقي في أعوام ما بعد حرب الخليج الأولى أن يلقي القبض على مجموعات دخلت إلى العراق من كردستان كانت تخطط لقتل صدام، فأمريكا كانت ترى - وهو صحيح - بأن النظام قائم على شخصية صدام، وأن سقوطه أو إعلان موته سوف يسقط النظام العراقي حكومة، ممّا يوفر غطاءاً للمعارضة في الاستفادة من ذلك والوصول إلى الحكم بعدما تتغير معطيات النظام.

أهتم النظام العراقي وصدام بالموضوع وبدأ يعمل على توسيع

عملية الأشباه لتشمل الكثير من المسؤولين العراقيين، وليس صدام ذاته، وخصوصاً طارق عزيز وطه رمضان وأولاده عدي وقصي ووزير خارجيته وغيرها وصار حديث الأشباه في العراق عبارة عن (مودة) داخل الهيئة الرئاسية لصنع شخصيات مشابهة، كما تمّ جلب عديد من المتخصصين من دول الغرب للإشراف على ذلك بحجج مختلفة.

إنّ التقارير التي قدمت إلى الإدارة الأمريكية في وقتها كانت مثيرة للضحك، وكانت قد قدمت بصورة لا يمكن أن تتقبلها إدارة حكومية تحترم نفسها، فقد تمّ رفضها أولاً من قبل الرئيس (بيل كلينتون) (1993-2001) واستشاط غضباً على مدير المخابرات الأمريكية (John Deutch) وذلك في سنة 1995 بعد مجيء كلينتون بسنة متهماً إياه بأنه يستعمل المزاح في موضع الجد، فأكد له مدير المخابرات بأنه يعيش مشكلة أشباه صدام في تحديد مكانه، وأن جهاز مخابراته يجد صعوبة في تمييزه عن أشباهه، لم يصدق كلينتون الرئيس القروي المنحدر من ولاية (أركنساس) الزراعية، فأكد له رئيس المخابرات جديته، وقال له سأثبت لك ذلك عملياً، وبعد أيام تمّ اتصال تلفوني بين الملك عبد الله الثاني مع صدام حسين وكان على الخط جهاز رسم نبرة المتكلم الأصلية وتطابقها مع نبرة المتكلم الشبيه، فظهر واضحاً بما لا يقبل الشك بأن صدام ليس هو المتكلم وأنه يراوغ مع الجميع[1]، وقد كررت المحاولة لأكثر من مرة أحياناً مع بعض

(1) تقنية اكتشاف الصوت لا تختلف عن تقنية بصمة الإبهام، فهي تعتمد علي الحبال الصوتية وتجويف الأنف والفم. وهذه التقنية شائعة في البيوت بأمريكا. فعندما يقول =

الرؤساء العرب وأحيانا مع البعض من الوفود الأجانب فأيقن عندها كلينتون بأن صدام مراوغ بارع وهو أسلوب يعتبر في العرف الدبلوماسي نوع من (دبلوماسية العصابات) وليس طريقة رئيس دولة، فقرر الرئيس الأمريكي ضرب صدام الحقيقي والتخلص منه بطريقة أو بأخرى.

وقد اختمرت الفكرة منذ ذلك الوقت في أذهان القادة الأمنيين الأمريكان بالطريقة التي يجب تنفيذها لضرب صدام الحقيقي، مع أنهم توصلوا في ذات الوقت بوجود أكثر من شخصية، على الأقل ثلاثة على حد رأيهم. لأنهم ميّزوا خمسة أنواع من الأصوات مع الذين تمّ التكلم معهم من خلال أطراف ثالثية.

هذا في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة لا تمانع من تعدد الأشباه باعتبار أن ذلك أمر داخلي لحماية صدام ذاته من أعدائه، ولكنها تعترض على طريقة إدارة الأشباه بنوع من استغفال الآخرين، كما هو البحث عن أسلحة الدمار الشامل التي تمّت في العراق، والتي كان صدام يراوغ بشكل لا مثيل له، بعد أن جنّد فريقاً ضخماً كي ينفذ عملية المراوغة تلك وهذا ما أحرج الأمم المتحدة وأمريكا في مصداقية كلامهما، وأثارت أكثر من اعتراض عليهما من قبل الكثير من السياسيين الذين من الصعوبة لهم أن يعتقدوا بأن هنالك شخصيات لها قدرة على المراوغة كما هي لدى صدام.

= صاحب البيت: افتح هذي الباب. ينفتح الباب أوتوماتيكيا، لأنّ الجهاز يتعرف على نبرات الصوت ويسجلها بذبذبة ترددية (واحد على ألف من الثانية). ولقد اخترعت تليفونات محمولة لا تعمل إلا من خلال نبرات صوت صاحبها ولا تعمل مع آخرين.

مع أن صدام كان يتخذ الأمر ربما من باب المهارة والغلبة، وهي كما ذكرنا سابقاً صفة من صفات البداوة متأصلة في الشخصية بشكل عميق[1] هذه الظاهرة لا يمكن للأمريكي السياسي أن يفهمها أو يدركها، فهو يعلم بأن هنالك أسباباً منطقية للسرقة وهي الحاجة فقط، وهنا لم تتمكن المخابرات الأمريكية من أن تقنع الكثير من السياسيين بالسلوك الصدامي بهذه الطبيعة البدوية الغريبة على مسامعهم، وبذلك كانوا يرفضون الرواية الأمريكية ويعتقدون بأن تلك هي فبركات صنعها السياسيون.

هذا الشيء ذاته واجهته المعارضة التي كانت تعمل في أمريكا قبل ذلك التأريخ والتي عجزت أن تقنع الساسة الأمريكان بغرابة تعامل صدام معهم، فلم يدركوا وقتها بأن صدام كان يعاقب أقارب المعارض إلى الدرجة الرابعة، حيث لم يعهده نظام سابق ديكتاتوري أو شمولي في العالم أن يمارس هذا النوع من القسوة تجاه معارضيه[2].

في ذات الوقت كانت الإدارة الأمريكية تخشى من أمور مفاجئة تحدث في العراق وخصوصاً أن يحدث تخلخل يؤدي إلى سقوط النظام، وأن يتحول إلى نظام مختلف عن واقع النظام الحالي،

(1) فكان البدوي عندما يغفل جاره يسرق منه بقرته أو عنزته في جوف الليل ويأتي بها بعد أيام إليه لكي يشعره بأنه تمكن منه في سرقة العنزة، وها هو يرجعها له لأنه جاره ولا يريد أن يسبب له خسارة في العنزة، وكذلك جاره في الأيام المقبلة يخطط ليتحين الفرص لسرقة (طغار) أو طغارين (24 كيلو) من الحبوب التي يستعد الزراع لبيعها في الأسواق.

(2) أيام اعتقالي في السجون الامريكية، صلاح شبر، دار الجواد بيروت 1912.

وخصوصاً في ذلك الوقت كان هنالك شعور بأن الجوار الإيراني سيكون عاملاً مساعداً لهذا التخلخل، فإما أن يكون نظاماً قوياً قائماً على أسس الأنظمة الحديثة مهما كانت واقعيتها أو سطوتها أو قسوتها، أو أن لا يكون نظاماً، فلذلك كان الشبح الإيراني ماثلاً أمام أمريكا في أن المرشح للقفز على السلطة هو (التطرف الإيراني) كما يسمونه، أو نظام شبيه بنظام طالبان عام 1996 الذي جاء في فترة من الصراع الدموي بين الفصائل الإيديولوجية استمر من عام رحيل السوفيت عام 1989 إلى أن دخلت طالبان كابول في التاريخ المذكور.

فقد كانت أمريكا ترى بأن التركيبة العراقية لا تختلف عن التركيبة الأفغانية في الشكل وفي طبيعة الصراعات والحالة القبائلية، هذا بالإضافة إلى عامل آخر مهم هو عامل التأثير الإيراني القوي باعتبار أن التشيع في العراق لا يختلف في شكله عن التشيع الإيراني من خلال وحدة المرجعية (كما هي قرائتهم للأحداث في ذلك الوقت).

وهنا لم يكن أمام الدولة الكبرى إلّا الترقب بخشية كبرى في أن يحدث انهيار كامل من خلال اغتيال رأس النظام، وهو صدام، فلو حدث ذلك فإن الأمور ستسير إلى المستنقع الشبيه بالواقع الأفغاني الصعب والمعقد.

وعليه فلم يكن أمام براغماتية أمريكا إلا حماية النظرية التي تبنتها في احتواء (هيكل) النظام العراقي، ومنعه من السقوط في يد (التطرف الإيراني) كما يسمونه. وذلك من خلال الحفاظ على رأس النظام بطريقة معينة ربما ليس حباً له بل تجنباً للأسوء كما تقتضي أعراف السياسة الدولية، وكانت أول خطوة أقدمت عليها هو استدراج البديل

الذي يستعمله صدام في تنقلاته وهو ميخائيل (مخلوف) رمضان إلى أمريكا ومعرفة تمام القصة، ولكي ترى بأن عينها بما هو كائن، شأنها كشأن أي قضية تبدو غريبة على مسامع الإنسان العادي في عدم التصديق، إلى أن يرى الإنسان بأم عينيه الواقع بنفسه.

وهنا كان الاستدراج أن يتم بطريقة كانت نتيجتها أن وصل فيها ميخائيل رمضان واشنطن وقدم لهم معلومات متكاملة عن برنامج الأشباه المعقد الذي يقوم به صدام، والذي بدا لهم من خلال واقع الشرح بأن صدام شخصية خطيرة ليست فقط على مستوى العراق، بل أن بداخله طموحاً مدمراً إلى الشعوب المحيطة به، ومن الصعوبة للمنطقة أن تنعم بالأمان من خلال وجود هذه الشخصية مسيطرة على الحكم في العراق.

وازداد القلق أيضاً عندما أدركت المخابرات بأن أبناءه وعشيرته ما هم إلّا شخصيات سفاحة بشكل مميّز، وهم يعدون العدة للاستيلاء على الحكم أمّا من خلال مقتل أبيهم، أو انتظار موته، وهنا أصبحت مسألة صدام خطيرة في الحالتين في موته وفي حياته، وهي من كبرى المشاكل التي اكتشفتها الدول العربية والغربية مؤخراً. وبعد غزو الكويت وطرده، فقد تحول على أثرها إلى شخصية غاية في الصعوبة من الناحية النفسية والعقلية كما هو البدوي الذي لا يمانع أن يقتل نفسه استرداداً لما خسره أمام أفراد قبيلته، وكأنها عنوان من عناوين الثأر والشجاعة.

لم تكن مهمة الولايات المتحدة التعامل مع المرضى من الحكام، فهذا أمر تابع إلى ذات الشعب، ولكنّ أن يغيّر تلك الشخصية واقع

الأعراف الدبلوماسية، أو أن يتحول إلى حالة مرعبة لمستقبل المنطقة فهو أمر يخص الجميع من دول الجوار، وقد اكتشفت أمريكا مؤخراً بأن أفضل من تعامل مع صدام هم الإيرانيون لما لهم من خبرة في الواقع العراقي من الجانب الاجتماعي والسياسي، وذلك من خلال النفس الطويل الذي تتحلى به سلوكياتهم في طريقة الحلول الهادئة النفسية التي استعملوها مع صدام أثناء وبعد حرب السنوات الثمان فيما بينهما.

في عام 1991 عندما اقترب صدام من الانهيار على يد قوات التحالف ثم من خلال الانتفاضة الشعبانية[1] لم تكن صورته وطموحاته

(1) بعد قيام القوات العراقية بعمليات قمع المواطنين تحول الأمر إلى انتفاضة شارك فيها مسلحون وعناصر من الجيش العراقي بأسلحتهم وآلياتهم العسكرية، إضافة لعناصر من فيلق (بدر) التابع للمجلس الأعلى الإسلامي في العراق، وإضافة لقوات (البيشمركة)، الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني وكذلك مسلحون من المواطنين العراقيين في الجنوب. كان للهزائم المتلاحقة التي مُنَي بها العراق نتيجة الحروب التي كان العراقيون يجبرون على خوضها والخسائر والتدمير الذي لحق بالعراق والمنطقة الجنوبية تحديداً وبالأخص هزيمة الجيش العراقي في حرب الخليج الثانية في آذار عام 1991 وعدم مبالاة النظام بالخسائر واستمراره بالتبجح بالنصر، الدور الرئيس في تعاظم نقمة الشعب على السلطة الحاكمة التي أدخلت الشعب في حرب تلو الأخرى، وكذلك تضييقها على المناطق الجنوبية وعدم توفر أبسط الخدمات فيها وكذلك تضرر هذه المناطق جراء الحروب المتلاحقة وتعرضها للتدمير والخراب، فاندلعت الانتفاضة في أربع عشرة محافظة من أصل ثماني عشرة أي بمعنى خروج أكثر من 77% من الشعب العراقي منتفضاً على النظام الحاكم آنذاك، واستمرت الانتفاضة إلى أن تمّ القضاء عليها بتدخل عسكري وبعلم القوات الأمريكية مع إبادة بشرية كبيرة من قبل النظام الحاكم الذي كان يرأسه صدام حسين. راجع مادة الانتفاضة الشعبانية في:
http://en.wikipedia.org/wiki/1991_uprisings_in_Iraq.

واضحة لدول المنطقة بالنسبة إلى العرب وخصوصاً الخليجيين وهذا ما دعاهم إلى المقارنة بين الشيطان (الشيعة) و(الشيطان الأصغر) وهو (صدام) فكان الاختيار هو (السيء) بدلاً من (الأسوأ) في منع صدام من السقوط.

ولكن ما بعد حرب الخليج الثانية وبعد انكشاف المعلومات إلى العالم العربي، والعالم الغربي صار لزاماً على دول العالم المتحضر أن تبادر في العمل على إزاحة صدام بطريقة أو بأخرى، وهذا ما دفع أمريكا في التفكير جدياً في العمل على هذا المشروع بطريقة تبدو للعالم بأنها غير واقعية أو عدائية، أو أنها غير موثّقة بما فيها الكفاية من الناحية القانونية العالمية لشن حرب على دولة معترف بها في الأمم المتحدة.

فهنالك أمور صعبة الإدراك في عالم السياسة، ولكنها مهمة جداً في مخرجات الأحداث، وخصوصاً فيما يتعلق بالوضع النفسي لحاكم ما، كما هي تجربة الحكم الهتلري التي تبدو قريبة تاريخيا وهي ماثله أمام الجميع في ضحايا وصل عددهم إلى أكثر من 75 مليون إنسان[1]، ولو تمّ جمع عدد ضحايا النظام في العراق منذ أن جاء إلى الحكم عام

(1) في الحرب العالمية الأولى إجمالي الخسائر 83 مليون إنسان، الثانية 75 مليون إنسان يمثلون 2.5% من عدد نفوس الكرة الأرضية - بدون ذكر خسائر الهند -، وهيروشيما التي تتجاوز ضحاياها 200 إلف إنسان، وفيتنام 5,17 مليون ضحية، الحرب العراقية الإيرانية مليون قتيل. في القرن العشرين كان ضحايا البشر أكثر من 160 مليون إنسان، قاد معظمها شخصيات ذات سلوك مرضي بيولوجي (Psychopath) أو (Insanity) إذا أمعنا في المصطلح.

1968 وإلى تلك الفترة إلى عام 2000 لا أبالغ إن قلت أنها أرقام خيالية ولكنها غير موثقة، وربما موثقة لدى الجانب الأمريكي، أو المخابراتي وهي لازالت سرية فهذا ممكن، وهو أمر من الصعوبة أن تُعذر دولة كبرى كالولايات المتحدة التي ترى في نفسها بأنها حامية الديمقراطية وحقوق الإنسان أن تقوم شخصية بقتل أكثر من ثلاثة ملايين إنسان خلال حكم بدوي دام أكثر من عشرين سنة 1979 إلى عام 1999 (سنة الشعور بضرورة إزالة صدام شخصياً)، فهذا أمر من الصعوبة لإنسان يمتلك قسماً من المبادىء مهما كانت ضآلتها أن لا يعمل على التخلص من هكذا شخصية (ساديّة) مريضة.

وهنا أصدر الرئيس (كلينتون) في أواخر عام 1998 قانونه للتخلص من صدام، فكان ذلك حافزاً قوياً كي ينشط صدام بصورة أكبر في خلق البدلاء والأشباه له، فصاروا أكثر من ستة أشخاص في الوقت الذي كانت الخطة الأمريكية، ليس تدمير البنية التحتية العراقية أكثر منه التخلص من رأس النظام بصورة مباشرة. فاستهدفته في ضربة كانت حاسمة بعد مكالمة تلفونية مع أحد القادة الملوك وتحديد مكانه ولكنّ القتيل لم يكن غير أحد البدلاء فجن جنون أمريكا وقتها، وبدا لها بأن الأمر هي لعبة يلعبها صدام وهو يستأنس بها، ويجد فيها متعة صراع السمكة الضخمة العملاقة في شباك الصياد، أمّا السمكة الصغيرة التي لها القدرة على قرض خيوط الشبكة وعلى الخروج والدخول بصورة حرة.

فكان على صدام أن يكون حذراً جداً في خروجه من المخبأ أو

المخابئ التي أعدّها لنفسه، وقد أتقنها بشكل كبير لتجنب أيّ ضربة قد تتناوله، وكان أكثر من اهتم بهذا هم الأتباع القريبون منه، وخصوصاً أبناؤه والبعض من عشيرته وكذلك المقربون[1] معظمهم من الأسماء التي أعلنها الأمريكان في القبض عليهم والذين تمّ إمّا تسليمهم إلى القوات الأمريكية أنفسهم طوعاً، أو أن القوات قد ألقت القبض عليهم.

بعض من تلك الأسماء كانت غطاءاً للنظام مثل طه معروف، وبعضهم كان يمثل موقعاً رئيسياً، يقودهم قصي الابن الأصغر لصدام

(1) قصي صدام حسين، عدي صدام حسين، عبد الحميد التكريتي، علي حسن المجيد، عزة إبراهيم الدوري، عزيز صالح النومان، طه ياسين رمضان، طارق عزيز، برزان إبراهيم حسن التكريتي، وطبان إبراهيم التكريتي، محمد حمزة الزبيدي، همام عبد الخالق عبد الغفور، جمال مصطفى عبد الله سلطان التكريتي، حكمت العزاوي، سمير عبد العزيز النجم، عامر حمودي حسن السعدي، هاني عبد اللطيف طلفاح التكريتي، كمال مصطفى عبد الله سلطان التكريتي، برزان عبد الغفور سليمان التكريتي، إبراهيم أحمد عبد الستار محمد التكريتي، سيف الدين فليح حسن طه الراوي، رفيق عبد اللطيف الطلفاح، طاهر جليل حبوش التكريتي، حامد رجا شلاح التكريتي، عبد التواب الملا حويش، سلطان هاشم أحمد، أياد فتيح خليفة الراوي، زهير طالب عبد الستار النقيب، عبد الباقي عبد الكريم السعدون، محمد زمام عبد الرازق السعدون، يحيى عبدالله العبيدي، نايف شنداخ، سيف الدين المشهداني، فاضل محمد غريب، محسن خضر الخفاجي، رشيد طعان كاظم، عقلة عبيد صقر الكبيسي، غازي حمود الأديب، عادل عبدالله مهدي الدوري التكريتي، حسين الأواوي، خميس سرحان المحمد، سعد عبد المجيد الفيصل، لطيف نصيف جاسم الدليمي، راكان رزوقي عبد الغفور سليمان التكريتي، مزبان خضر هادي، طه محي الدين معروف، وليد حميد توفيق التكريتي، محمد دياب الأحمد، عامر رشيد محمد العبيدي، محمد مهدي صالح، حسام محمد أمين، سبعاوي إبراهيم.

الذي كان شخصية لو تعمقت فيها لوجدتها شخصية أقرب إلى الذات الشيطانية منها إلى التركيبة البشرية التي نعرفها، فهو لا يعرف الرحمة ولا علاقات الإنسان، وإنما هو عبارة عن وحش سلطة، كذلك الحال مع كلّ تلك الأسماء الأخرى كعدي الذي هو شخصية غريبة الأطوار في دمويتها، يشاركه في ذلك علي كيمياوي وحسين كامل وكلّ إسم من تلك الأسماء عبارة عن ملف متكامل من الإجرام ومن القسوة والتي تعبر عن ذات ذي هندسة وراثية معينة لا يمكن أن يتصورها عقل إنسان، لأنّ الإنسان محكوم بفطرته لا يمكن له الخروج عن ما تفكر به الفطرة أو تخرج عن نطاقها.

بل أن الكثير من المحللين النفسيين عندما يواجهون هكذا شخصيات فإنهم يعزون ذلك إمّا إلى العامل الوراثي، أو إلى العامل البيئي الفاسد، وربما علماء العرفان يرون في أن الوراثة تلعب دوراً رئيسياً في تكوين جينات الإنسان في أن يكون هكذا، ولذلك أكدت موروثات علماء العرفانيات على أصل الولادة[1] وطيب النطفة ونقائها[2]، بل أن البعض يرى في ذلك عنصر أهم بكثير من عنصر البيئة، فالمشاهد المروية عن صدام كما ينقلها من اطلّع عليها أو مَن هم من شاكلته من تلك الأسماء ليستغرب بل يجد صعوبة في التصديق في إمكانية الإنسان في ممارستها لأنها أشياء تقع خارج نطاق ما يدور في عقل البشر العادي، فقد لا تجد ذلك حتى في أشد الحيوانات ضراوة أو في الشعوب الهمجية، فالتلذذ

---

(1) كما آلينا على أنفسنا في بداية الكتاب أن لا نتطرق إلى هذا الجانب في النقاش بل نتركه إلى القارىء للبحث فيه.

(2) الحديث النبوي المروي (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) رواه ابن ماجة والديلمي.

في منظر القتل والدماء وإزهاق الروح أمر يجد الإنسان صعوبة في هضم دوافعه، بينما هو في الواقع نوع من التشفي الذي يشبع حاجة عميقة لدى الفاعل المريض النفسي[1].

بالتأكيد إن المجتمع العراقي في تلك الفترة من حكم صدام قد تحول إلى مجتمع له القدرة على خلق شخصيات ذات صفات منفصمة (Schizophrenic) وذلك بسبب توفر العوامل والظروف التي خلقها الواقع السياسي والاجتماعي، ومرض انفصام الشخصية هو مرض معدي (Contagious) ليس معدي بسبب انتقال الجرثومة كما هي الإمراض البكتيرية أو الفيروسية، وإنما معدٍ بسبب انتقال السلوك بين الناس ثم تأصله في الوراثة وفي البيئة[2]، وهو تماماً التفسير الذي

(1) (بول برناردو) و(كارلا هومولكا) شابان زوجان عاشا في اونتاريو- كندا، واشترك كلاهما في اغتصاب جنسي لثلاث بنات إحداهن أخت الزوجة ثم ممارسة الجنس أثناء عملية القتل فيما بينهما، وقد قتلت إحدى الشابات بصاعق كهربائي وتمّ رمي أخرى بعد لفها بحجر في بحيرة أونتاريو وذلك ما بين عامي 1991 إلى عام 1992، بعدها تمكنت السلطات من إلقاء القبض عليهما واعترفت الزوجة بالأمر. الغريب في الموضوع بأن الزوجين بعد أن قتلا أخت الزوجة كانا مدعوين إلى عشاء في بيت الأب، اقرأ القصة التي أثارت غضب الرأي العام العالمي في كلّ صحف كندا وكذلك في الموقع ويكيبيديا تحت: http://en.wikipedia.org/wiki/Karla_Homolka.
كما تجد ذات الروايات التاريخية عن المنصور الذي دعا عوائل المعارضين السياسيين إلى مائدة إفطار تقام في قصره، فأمر أن ينبطح الجميع وأن توضع عليهم فرش ثقيلة وأثاث ثم دعا الناس إلى تناول طعام الإفطار فماتوا كلهم تحت أقدام المدعوين، وكان المنصور يقول بعد تلك المذبحة بأنه لم يجد طعاماً لذيذاً في حياته أطيب من هذا الطعام (المصدر السابق، من تأريخ التعذيب في الإسلام).

(2) والفصام هو مرض دماغي مزمن (عضوي) يصيب عدداً من وظائف العقل وهو =

نقدمه في فداحة الأعمال الإجرامية التي نشأت فيما بعد التغيير في

= مجموعة من الاستجابات الذهنية تتميز باضّطراب أساسي في العلاقات الواقعية وتكوين المفهوم، واضطرابات وجدانية وسلوكية وعقلية بدرجات متفاوتة، كما تتميز بميل قوي للبعد عن الواقع وعدم التناغم الانفعالي، والاضطرابات في مجرى التفكير والسلوك الارتدادي، ويميل إلى التدهور في بعض الحالات، أمّا الأعراض فهي تنقسم إلى: أولاً: اضطراب التفكير: حيث يفقد المريض القدرة على التفكير بشكل واضح ومنطقي ومترابط. كما يؤدي إلى اقتناعه بأفكار غير صحيحة اقتناعاً تاماً، وقد يحمل المريض قبل العلاج معتقدات غريبة متنوعة مثل تحكّم كائن من الفضاء بأفعالهِ وتحركاته أو أن الآخرين يستطيعون قراءة أفكاره وزرع أفكار جديدة في عقله أو تحدث الشيخ في التلفاز عنهُ شخصياً وغير ذلك، أو انّه يحمل صكاً من صكوك الغفران، أو أنه مكلف من شخصيات قديسة في عمل شيء ما. ثانياً: اضطراب المشاعر: أو عدم تناسب التفاعل الوجداني مع الناس حيث يقل تفاعله مع الآخرين عاطفياً، كأن يكون بليداً غير مهتم وقد يشمل ذلك اللامبالاة، كأن يذكر لك موت والده بكل هدوء ودون أي انفعال، أو تصبح مشاعره غير متناسبة مع الموقف الحالي، كأن يضحك عند سماع خبر محزن، أو يحزن في مواقف سارة، بما يسمى بالتبلد الوجداني. ثالثاً: ضعف الإدراك: حيث يبدأ المريض بسماع أصوات أو رؤية أشياء غير موجودة على أرض الواقع، وهي ليست أفكار في البال وإنّما سماع حقيقي، كأن يسمع من يتحدث إليه معلقاً على أفكاره وأفعاله أو متهجماً عليه أو موجهاً له الأوامر أو غير ذلك، وقد يكون المتحدث شخصاً واحدا أو مجموعة من الأشخاص يتحدثون فيما بينهم عن المريض، وهذا ما يفسر ملاحظة الآخرين لحديث المريض وحده إذ هو -في الواقع- يتحدث إلى هذه الأصوات، كما يمكن أن يرى أشياء مختلفة وغير حقيقية. رابعاً: تباين السلوك: حيث يقوم المريض بسلوكيات غريبة مثل اتخاذ أوضاع غريبة أو تغيير تعابير وجهه بشكل دائم، أو القيام بحركة لا معنى لها بشكل متكرر، أو السلبية الكاملة وبشكل متواصل كالقيام بكل ما يؤمر به وكأنّه بلا إرادة. خامساً: اللغة والكلام: أكدت بعض الدراسات الحديثة أن مرضى الفصام يعانون من صور مختلفة من اضطرابات اللغة أو الكلام، حيث يمكن معرفتهم بمجرد سماع أقوالهم فيظهر اضطراب واضح في بناء الجملة الكلامية ومدلولات الألفاظ. . من الممكن المعرفة عن التفاصيل من الموقع: http://en.wikipedia.org/wiki/Schizophrenia.

ظهور العصابات والحركات المتطرفة الإرهابية التي تقتل بشكل لم نسمع به في كلّ أنحاء العالم، ربما إلّا في سوريا أخيراً، وهذا هو تفسير علمي إلى حالة التعطش إلى القتل، وسفك الدماء التي تنتاب الإنسان الذي تغيب أمامه المبادئ وتلتف حول عنقه مسائل المعيشة، واسوداد المستقبل، في الوقت الذي يوفر عامل الخوف الذي خلقه النظام السياسي جواً مناسباً وبيئة خصبة إلى نمو تلك الأمراض النفسية، فهنالك فضائح مورست في العراق لم نتمكن من أن نقول إلّا أنها فوق طاقة تحمّل الإنسان، لم يتم ممارستها إلّا من قبل شعوب تأريخنا القديم، تأريخ السلطات التي كانت تسمى باسم الإسلام[1] أو في زمن القرون المسيحية الوسطى في القرن الرابع عشر الميلادي في محاكم التفتيش (Spanish acquisition) أوروبا.

ومن الأمور الملفتة في هذا السياق هو أن الشخصية التي تعيش حالة الانفصام ليس لها من محددات أو مزايا في التشخيص أو في المعرفة، في الوقت الذي يكون التركيز على عامل الاستعداد الوراثي المكتسب بسبب التركيز في انتقاله بسبب ممارسة أحد أهم الطرق للمعرفة. فالكثير ممّن هم مصابون بالشيزوفرينيا شخصيات لها ثقل في المجتمع، أو أنها من القدرات العلمية الكبرى في السياسة أو في الاقتصاد، وقد تحدث مثل هذه الحالات أو حالات مشابهة عكسية من خلال حدوث تغيير في العقل لذلك الإنسان فقد يتحول إلى قدرة من

(1) أنظر كتاب الأديب هادي العلوي أخ الصحفي المعروف حسن العلوي المسمى (من تاريخ التعذيب في الإسلام)، أو كتب التأريخ مثل: مقاتل الطالبيين، الأصفهاني.

الذكاء بصورة مفاجئة أو العكس، وقد يروى الكثير من الأحداث بما يتعلق بهذه الصفة. بعضها أشار إليها علي الوردي في كتابه لمحات اجتماعية، وبعضها قررها علماء النفس والأطباء.

فقد أجد نفسي متعجباً في أن يعتقد البعض بأن الروايات التي جاءت تحت عنوان مؤلف الكتاب (رواية لكاتبها)[1] والتي يقول البعض بأن الرئيس العراقي صدام كان قد كتبها، فلو صدق ذلك مع أنني أنفيه، فإن كتابة القصة الأدبية أو فكرة القصة هو عمل تراكمي وليس إبداعاً مفاجئاً كما هو اكتساب القوة العضلية على سبيل المثال بسبب النمو وتغير الهرمونات، بل إنه عمل عقلي يتناسب مع الزمن، فليس من الواقعية أن يتمكن صدام من كتابة هكذا قصص مع افتقاره إلى الكثير من الأمور التي يحتاجها المثقف أو الروائي، ما لم حدثت طفرة في تفكيره، كما تحدث في الكثير من الشخصيات وتمكن أن يكتبها، ولو حدث ذلك فإنه سيندرج تحت عنوان التغير السلوكي أو الفكري المرتبط بحالة مرض انفصام الشخصية. فلم يكن هنالك من شك لدى الكثير من الأطباء المتخصصين في علم النفس في أن يكتشف الحالة المرضية لصدام أو لمن هو قد مرّ في ذات الظروف مثل هتلر وستالين ومعمر القذافي وغيرهم.

وبمجرد أن يدخل الإنسان في طور أو بدايات الحالة البيولوجية تلك فإنه يتحول إلى إنسان آخر يرى ما لا يراه الناس، أو يعتقد بأشياء أقرب هي إلى الخيال كما ذكرنا سابقاً، فقضية الأشباه لو أننا جرّدناها

(1) زبيبة والملك، اخرج منها يا ملعون، والقلعة الحصينة.

عن واقع السياسة فإنها ستتحول إلى قضية نفسية يراها ذلك (المنفصم) بأنها حالة حقيقية خصوصاً عندما يبحث عن صديق له فيما بين الأشباه كما يشير بذلك البديل ميخائيل رمضان في كتابه الذي ذكر بأن صدام كان يحب الحديث معي، وكان صديقاً مقرباً مني، وهذا معناه بأنه يبحث عن مرآة له لم يجدها لدى الآخرين، كما يروي أيضا بأنه يفتقد إلى علاقات صداقة مع الآخرين حتى مقربيه من الوزراء كطارق عزيز أو طه الجزراوي أو عزت الدوري. وهي علامات واضحة على شكل الشخصية التي تشعر بأن المجتمع قد سلبها حقها في التمتع بالحياة كما هم عليها الآخرون، وعليه أن يسترد ذلك الحق بالوسائل التي يتمكن بها من أن يعيد له حقه. وهذا التفكير هو ربما تجده لدى الكثير من الشخصيات التي غيروا التاريخ باتجاه الانتقام من جنس الإنسان وليس من ذات الفرد. وهنا يعتبر موضوع الأشباه نوع من الراحة النفسية التي يشعر بها صدام بسبب أن هنالك أكثر من شخص يشاركه أفكاره ونوعية توجهاته.

أين هي أمريكا من قصة
تغيير النظام العراقي..؟

إنّ الولايات المتحدة الأمريكية دولة براغماتية بكل ما للكلمة من معنى، فهي دولة كبرى يعنيها الناتج، ولاتعنيها مداخلات المؤامرات أو التفاصيل النظرية الخيّالية. شأنها كشأن أية دولة أخرى في العالم التي تقيس الأمور بالنتائج وليس ما قبلها، فهي تنظر إلى العراق نظرتها إلى أقطار أخرى، مع أن العراق له ما يميزه والتي لا يمكن لنا أن نقول بذلك التمييز بينه وبين الدول المجاورة أو غير المجاورة فلكل خصوصيته وأهميته وقوته وضعفه.

فليس من الصحيح أن نقول بأن الأهمية الدولية للعراق هي أكثر من مصر على سبيل المثال، ولا أن تكون الفيليبين أقل منها إلى أندونوسيا، فلكل من تلك الدول من خاصية بالنسبة إلى سياسات الدول الأخرى. وأمريكا تتعامل بمنظارين تجاه العراق أحدهما: المنظار العام، والثاني الخصوصية العراقية. المنظار العام هو طبيعة تمتع هذا القطر بمزايا عمومية متشابهة فيها مع دور المنطقة مثل وجود النفط أو موقفه من القضايا العربية والدولية، ومنظار آخر هو منظار خاص ينطلق من الخصوصية العراقية بتركيبتها الإثنية، وبعوامل التهديد أو الأمن التي توفرها هذه الدولة للسلام العالمي أو للمنطقة[1].

---

(1) فليس هنالك من نظرية مسبقة للأمريكان تجاه العراق فيما يخص مستقبله أو طريقة =

إنّ الواقع الاقتصادي العراقي، وتوفّر النفط بالشكل الذي توقع الخبراء في أن يحتل المرتبة الأولى عالمياً، قد دفع البعض في الاعتقاد بأن التحرك الأمريكي كان هو لحيازة ذلك النفط[1] والاستفادة منه، أو كما يعبر عنه البعض من سياسيي الاقتصاد بالسرقة أو النهب، أو السيطرة على هذه البقعة التي تحوي هذا الخام، وهي القصة التي سمعها العراقيون كلهم، والتي لازال الكثير منا يعتقد بأنها كانت السبب الرئيس الذي دفع النظام الأمريكي وأنظمة العالم الحر في المجازفة بحرب كالتي شنت على العراق في عام 2003.

ومع أنني أتعاطف أو لنقل أشاركهم في مخاوفهم الوطنية تلك، خصوصاً أولئك العراقيين من الذين لم يسعفهم الزمن في التمتع بثروات العراق، والتي هي ملك لأجيالهم ولعوائلهم في الوقت لم يحصل ذلك منذ أن اكتشف النفط في العراق في عام 1927 في كركوك.

فقد تعاقب على العراق وخصوصاً في فورة صعود الأسعار في

= التعامل معه، وإنما المواقف تتخذ على واقعية القضية التي تتغير بتغير الظروف. فأمريكا لا تشغل نفسها في قطر من أقطار العالم العراق كان أم غيره إن لم يكن ذلك القطر خطراً، أو سلاماً إلى العالم ودول المنطقة. ففيتنام كانت وخلال أكثر من عقدين من الزمن تمثل أولويات قائمة اهتمامات أمريكا في سياستها وفي إستراتيجيتها بسبب لما لذلك القطر من تأثير داخلي على تركيبة المجتمع الأمريكي أثناء الحرب، بينما وبعد إيقاف الحرب لم تجد لهذا القطر من ذكر لا في السياسة ولا في العلاقات الدولية، لأنه قطر لم يكن له تمثيل على مستوى السلام والاستقرار ولا على مستوى الاقتصاد أو العلاقات الدولية. بينما تمثل قطر أمراً حيويا أو إسرائيل لما لهذين القطرين من تأثير على مجمل سياسة المنطقة خيراً كان أم شراً.

(1) حجم الخزين النفطي في العراق كما قدرته وكالة الطاقة الأمريكية (DOE) عام 2003 هو 112 بليون برميل (8,17 × 109 m3).

السبعينيات أي من الأنظمة التي وجهت هذه الطاقة المهمة إلى بناء وخدمة المواطن العراقي. فتخوف الاقتصاديين العراقيين بما يتعلق بنوايا أمريكا له ما يبرره مع أنه لمن الصعوبة جداً أن يتمكن أولئك الوطنيون من تحويل تلك الشكوك إلى أرقام على شاكلة الدراسات العلمية التي تثبت بأن النفط العراقي هو الآن تحت رحمة أمريكا، وأنها جاءت لكي تنتفع منه. هذا في الوقت الذي وصلت كمية ما أنفقته أمريكا على حربها في العراق إلى تقريباً (6 ترليون «مليون مليون» دولار)، وهو رقم فوق التصور لو قارناه بواقع الاستفادة من النفط[1].

كذلك نظرية إسرائيل التي هي النظرية التي ربما يلوكها كلنا خصوصاً نحن جيل النكبة أي مواليد ما بعد الخمسينيات إلى السبعينيات الذين عاشوا نكبة حزيران 1967 وتفاعلاتها في النسيج العراقي والعربي، فقد تكون فكرة العلو الإسرائيلي واستمرار تفوقه على العرب، ومنع العراق من أن يأخذ دوره في إيقاف إسرائيل أو تحجيمها، أو طردها هو من أهم أسباب احتلال العراق، بالتأكيد هنالك الكثير من الشعارات الوطنية التي ممكن أن تقال في أن أمريكا هي الدولة الراعية للكيان الصهيوني، وأنها لولاها لما تمكنت من أن تبقى على ما هي عليه من القوة والسطوة[2].

فالمقولة التي نرددها ربما كلنا ويشاركنا فيها كلّ السياسيين

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Financial_cost_of_the_Iraq_War.

(1) لا يخلو هذا الرأي من عدم الدقة في التقدير بسبب أن العرب عموماً لا يريدون معرفة نقاط ضعفهم في مقابل معرفة قوة عدوهم.

الإيديولوجيين إسلاميها وغيرهم يرون في أن استمرار العلو والسيطرة الإسرائيلية ربما هو الذي دفع أمريكا لاحتلال العراق من أجل حماية ذلك النظام. بالتأكيد كلّ هذه الأفكار والرفض هي ناتج طبيعي لرد الفعل العربي، أو لنقل الوطني تجاه السلوك الإسرائيلي غير المبرر في طريقة تعاملها وعلوها وغطرستها، كما أنه موقف مفهوم من كلّ العراقيين الذين يرون في النظام الإسرائيلي نظاماً منحدراً من الفكرة اليهودية القديمة التي كانت تخطط ضد الإسلام منذ أن بعث الله الرسول الأكرم وإلى الآن.

فالشعوب العربية والعراقية بشكل خاص تمتلك حساسية مفرطة تجاه كلّ ما يتعلق بإسرائيل ومن يحذو حذوها. فالكثير من العرب أو حتى العراقيين يجدون ربطاً فكريا أو تاريخيا بين اليهود وبين الحكام الذين انتهكوا شعوبهم كما هي أقاويل أن أصول أمهات أو آباء بعض الحكام العرب تعود إلى اليهودية وهذه مذكورة كثيراً في الكتب وفي المنتديات وفي المحافل الدينية والأدبية[1]. هذه النظرة وجذور العلاقة الأمريكية الإسرائيلية كان له أثرٌ فعالٌ في نوعية التفسير الإيديولوجي الذي انعكس على تصورات دخول القوات الأمريكية العراق.

الولايات المتحدة من جانبها لم تشغل نفسها كثيراً لتبرير هذا الرأي أو مناطحة ذلك الرأي، وإنما كلّ ما تقول به بأن احتلال العراق كان قراراً أممياً، كما أنها في ذات الوقت لا تحتاج إلى أن تقدم أي

(1) أنظر كتاب ميخائيل رمضان في نظرته إلى صدام وكذلك رأي الكثير حول انحدار القذافي وانتسابه وكذلك شخصيات أخرى إسلامية في الوقت الذي يصعب التثبت من كلّ ما قيل علمياً.

نوع من أنواع التبريرات، بل لا تجد نفسها أحياناً بأنها المعنية بالأمر. مع أن المعارضة للحرب شأنها كشأن أي حرب تشنّ من قبل أمريكا على أية دولة كانت معتدية أم غير معتدية فإن أسلوب الحرب مرفوض اجتماعياً من قبل المجتمع الأمريكي، وليس هنالك من أرضية مناسبة إلى أي حرب أو تحرك أو حل عسكري تقوم به القوات الأمريكية أو غير الأمريكية على العموم. وهو أمر تماماً مشابه لقانون الإعدام الذي يرفضه معظم الشعب الأمريكي حتى لعتاة المجرمين[1].

وكل الدول التي تعنى بالشأن العراقي كانت تقف إلى صف أمريكا في تغيير النظام، ولكنّ لكل منها سيناريوهاتها التي تريد أن تقيسها على مصالحها. وهذا بالتأكيد أمر صعب تحقيقه في ظرف الواقع الحالي لما لكل من تلك السيناريوهات من خاصية لا تنطبق إلا في عالم الخيال.

فقد عارضت تلك الدول ما بعد التحرير فكرة التدخل ولم تعارضه فيما قبلها، لأنها كانت لا تملك أياً منها من مشروع تغيير النظام، وبذلك فإن الجميع يطالب بحصته من التغيير، وكأن العراق غنيمة كان ينتظرها الكل وبمجرد أن انفرط عقد ذلك الجمع وإذا بها تشمّر عن ساعديها في الحصول على الغنيمة.

---

(1) عدد المعدومين الذين نفذ فيهم الحكم في الولايات المتحدة لا يتجاوز الأربعين في سنة 2011، راجع الموقع الخاص بذلك على (www.iipdigital.usembassy.gov) مع العلم أن هنالك في كلّ 21 دقيقة فقط جريمة قتل، كلّ 16 ثانية جريمة عنف، كلّ 48 ثانية جريمة نهب، كلّ 5 دقائق جريمة اغتصاب، كلّ ثلاث ثوان جريمة مال، كلّ أربع ثوان جريمة سرقة، كلّ أربع ثوان جريمة سطو، كلّ عشرين ثانية جريمة سرقة سيارات. كما أن عدد الولايات التي تقر عقوبة الإعدام هي 32 وهي في تناقص عما كانت عليه فيما قبل.

فإذا لم يكن الدافع الأمريكي اقتصاديا أو سياسيا أو عسكرياً فما هو الدافع إذن..؟ بالتأكيد هذا هو سؤال (المليون دولار) وهو السؤال الذي لا يمكن إدراكه أو معرفته إلّا للعارفين بطبيعة أمريكا أي للأمريكان الأقحاح ذوي (الرقاب الحمر) كما يسمونهم (Red Necks) أو من يفهم الفلسفة الأمريكية على سعة عملها ومشاريعها.

فقد يمكن أن يوجه سؤال لماذا أقدمت الولايات المتحدة على تبني مشروع (مارشال) الذي أنفقت في سبيل تحقيقه في ذلك الوقت عام 1947 ما قيمته 13 مليار دولار، كما تنفق أمريكا سنوياً ما قيمته 40 بليون دولار للمساعدات الخارجية غير العسكرية هذا في عام 2010[1]، بالتأكيد الجواب حاضر لدينا وهو ما يلي: لابد أن هنالك مصلحة في ذلك، وإلّا لماذا يقوم (اليانكي) بصرف هذه المبالغ الهائلة في الوقت الذي ترتفع نسبة الفقر في أمريكا إلى ربما أكثر من 12% في عام 2010[2]. سؤال محير أليس كذلك..؟أو ربما يقول البعض بأن أمريكا تريد شراء الضمائر من عملها هذا...!!!

كل ذلك ممكن، ولكنّ من الصعوبة على العربي أن يتفهم دوافع

---

(1) أفغانستان 2,75، باكستان 1,35، هايتي 0,70، إسرائيل 0,59، كينيا 0,50، السودان 0,46، الضفة الغربية/قطاع غزة 0,38، الأردن 0,36، إثيوبيا 0,35، جنوب أفريقيا 0,34، جورجيا 0,33، مصر 0,32، تنزانيا 0,31، نيجيريا 0,29، أوغندا 0,26، إندونيسيا 0,26، موزامبيق 0,23، ليبيريا 0,22، كولومبيا 0,22، العراق 0,22 بليون من الدولارات أنظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/United_States_Agency_for_International_Development.

(2) .http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_countries_by_percentage_of_population_living_in_poverty.

الفكرة الأمريكية إذا لم يدرك حقيقة مهمة واحدة: وهي أن هذه الدولة هي دولة براغماتية بكل ما للكلمة من معنى، تعيش لمصلحتها وهذا أمر بديهي، ولكنّ شكل المصلحة ونوعيتها هي ما يمكن الاختلاف عليه، فهي ترى في أن التقدم الاقتصادي في (الموزمبيق) يحقق لها مصالحها مع أن (موزمبيق) ربما دولة غير ذات وئام مع أمريكا ولكن النظرة البعيدة للعملاق الأمريكي هي النقطة التي يفتقدها العربي في الفهم.

في الوضع العراقي هنالك بالتأكيد مصلحة من دخول العراق، ولكنّ أين هي المصلحة وكيف يمكن تفسيرها. . .؟ هل هي المصلحة الاقتصادية أم السياسية أم الفكرية، أي الإيديولوجية. . . ؟ في الوقت الذي وجدنا بأن المصلحة الاقتصادية ليست هي من النوع الكبير فيما يتعلق بالنفط، باعتبار أن النفط يباع في أسواق البورصة بالسعر الذي لا يمكن لأمريكا أو غير أمريكا التحكم به نوعا ما. . . كذلك الوجود العسكري في الوقت الذي يحيط بالعراق قواعد أمريكية كثيرة مثل: قطر، السعودية، تركيا، الكويت، الأردن، ماعدا إيران. . فهل أن مفتاح الفهم هي إيران. .؟ أي بمعنى آخر هل أن أمريكا تخشى من الصعود الإيراني في العراق، والتي على ضوئه بادرت إلى إسقاط النظام بالطريقة التي أسقطته خوفاً من أن تفرض إيران حلها على العراق. . . ؟ فإذا كان كذلك ما هو إذن السيناريو الإيراني. .؟ وكيف تعارض مع النظرة الأمريكية في التوجيه نحو تغيير النظام العراقي.

سيناريوهات التغيير

لم يكن هنالك من سبب لفتح ملف الأشباه لصدام أو لغير صدام لولا أن القصة تحولت إلى واقع مخابراتي يتعلق بالنظام، كما أنه صار أمراً له صلة بالتغيرات في المنطقة، أي أن الأمر خرج من النطاق الفردي أو القطري إلى الفضاء الدولي. وهنا تشتبك الخيارات بين الدولتين العدوتين اللدودتين إيران والولايات المتحدة، عدوتان فيما بينهما، وعدوتان للعراق، وكأنهما تنحصر الخيارات في النظرة الثنائية لكلي القطرين هذا في الوقت الذي بالتأكيد يغيب خيار العراق، أعني المعارضة العراقية في تقديم حلول أو مشاريع للتغيير في تغيير النظام.

فقد كان موضوع الأشباه قضية مخابراتية بحتة، أصلها هو أن صدام كان قد أدرك بأن الشعب العراقي لا يمكن له أن يقبل نوعية الحكم الذي هندسه عقله وعقل أتباعه، وأن الشعب العراقي لا بدّ وأن يفكر بألف طريقة وطريقة في سبيل التخلص منه بعملية اغتيال، أو عملية قتل، أو اختطاف. فالشعب العراقي كما يعبر عنه برميل بارود تراه هادئاً شديد الهدوء في حالته العادية، ولكنّه مدمرٌ إذا انفجر أو انطلق.

فقد خلق صدام أعداءاً كثراً له شأنه كشأن البدوي الذي لا يمكن له

أن يتعلم الحياة بدون أن يكون له أعداء، لأنّ العداوات والغارات والحروب تخلق من البدوي كياناً ذا سطوةٍ، وبدون ذلك فإنه يتحول إلى شخصية حضرية لا تفهم إلّا لغة النعومة والاستكانة، وهو الضعف بعينه والضعيف في الوسط البدوي كما يعتقد صدام ليس له من محل في العراق أو في ما حولها.

فصدام لم يكن يخطط عندما فكر في موضوع الأشباه من قبله أو من قبل مساعديه في أن يحمي نفسه من ضربة خارجية أمريكية أو إسرائيلية أو سورية أو ما إلى ذلك في الدرجة الأولى، فهذه الدول ليس من مصلحتها اغتيال رئيس، أو اغتيال أي من المعارضين، لأنّ الاغتيال صار أمراً مرفوضاً في ظل العولمة الجديدة، بل إنه مخالف للقانون الدولي. فلم يكن إذن خيار الاغتيال إلّا من قبل أعداء صدام بالذات، سواء أكانوا معارضة أم كانوا غير معارضة، أي بدافع إيديولوجي عشائري أو اجتماعي.

فقد قتل صدام كما ذكرت ما لا يقل عن مليون إلى مليوني إنسان خلال فترة حكمة في الحروب أو في السجون أو الاغتيالات، وهكذا شخصية تعيش دوماً هاجس تلك الأرواح التي ماتت، حيث تتحول إلى لعنة على القاتل دوماً إلى أن يقيّض الله من يعيد لها عدالتها ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ [الإسراء: 33]، وشخصية مثل صدام التي من الصعوبة لها في الوصول إلى الإدراك الفعلي لما هو قد فعل في ماضيه فإن عنصر الدفع الداخلي النفسي المبرر (النفس التبريرية) تبقى فاعلة، لأنها لم تجد من يحتوي أو

يحتضن عملية الشعور بالإثم أو الندم فبذلك تتحول المفاهيم التي يؤمن بها الإنسان في القتل وفي الانتقام إلى مبادئ عادية، بل إنها تتحول إلى أصل بينما تنكفئ مبادئ العقل والضمير إلى استثناء، وبهذه الحالة يتحول الإنسان إلى شبح إنسان، بينما هو في داخله كتلة من غضب على المجتمع وعلى الآخرين، وهو يعتقد ضمناً بأنه لم يصل ما وصل إليه إلا بسبب محيط المجتمع الذي زين له أن يكون هكذا، وذنب من أحاطوا به[1] فتتحول نقمته إلى المجتمع عموماً ينتقي منه من يشاء في القتل في سبيل إبقاء النفس التبريرية فعالة وهي المسيطرة على مشاعره من أن تنتفض (النفس اللوامة) فتحيل ساعاته إلى آلام وإلى متاعب وتعذيب الضمير، وبمرور الوقت يتحول إلى خطر مدمر على الشعب كله، وليس على من حوله من خلال إشاعة الحروب والقتل والدمار وتقريب المجرمين وسفاكي الدماء، بل إنه يستدعيهم ليكونوا له أعواناً كما استدعى صدام (أبو نضال صبري البنا) (ت 2002) السفاح من ليبيا ليكون إلى جنبه يماشيه في طريقة تفكيره، وفي عمله إلى أن قتله أخيراً. كذلك الأمر مع وديع حداد[2] الذي قتله في عام 1976 في ألمانيا

(1) ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54].

(2) كان مسؤولاً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عن المالية والعمل العسكري الخارجي. وأثبت من خلالهما قدرات قيادية وعملية، حيث جسد شعار «وراء العدو في كلّ مكان» كما كان وديع في ذلك الوقت أذكى شخصية فلسطينية. فخلال عمله في التنظيم الخارجي قاد خلايا تنشط في مختلف أنحاء العالم، وكان وراء عمليات خطف الطائرات الشهيرة، ومنها الطائرة (لاندسهوت) الألمانية، ونقلت (يديعوت أحرونوت) عن المؤلف أن إسرائيل قررت تصفية حداد بداعي تدبيره اختطاف طائرة =

الشرقية، مع أن الشكوك تحوم حول الموساد الإسرائيلي، ولكنّ القاتل كان عراقياً معروفاً لدى السفارة العراقية في ألمانيا، بعد أن رتب له صدام عملية مفبركة في مغادرة العراق إلى ألمانيا وهناك تمّت تصفيته.

كان العراق من شماله إلى جنوبه بيد قدرة كبرى ضخمة تسمى صدام، ولها سطوة هائلة في المنطقة وهو شخصية لا تتورع في أن تفني العالم أمام طموحاته، وأمام من يفكر في معارضته أو الوقوف أمامه في تلك الطموحات، وقد أدركت إيران بعد حرب ضروس دموية لمدة ثمان سنوات أن التفكير في حرب مع صدام لإسقاطه ما هو إلا حلم يحلم به الجميع من أعدائه، ولذلك أعلنت في حينها بأنها تقبل وقف إطلاق النار ثم إعادة العلاقات إلى الحين الذي تمتلك فيه الوقت للتفكير واقعياً في طريقة للتخلص منه من خلال أسلوب غير الحرب.

فإيران لعلها الدولة التي اهتمت أكثر من بقية دول المنطقة في التخطيط للتخلص من صدام، والتي كانت تقول دائماً بأن المشكلة مع العراق هو ليس صدام، وهذا يعني في العرف الدبلوماسي هو (النظام). ولكنّ إيران كانت تعني من ذلك كلمة (النظام العراقي) هم المحيطون بصدام من أقاربه ومن معارفه، وأجهزة مخابراته الذين تحولوا إلى قدرة اتخذوا من صدام غطاءاً لهم تماشياً مع طموحه في إبقاء السطوة بيده.

= (أير فرانس) كانت في طريقها من باريس إلى تل أبيب، إلى (عنتيبي) أوغندا عام 1976، وانه كان مسؤولاً عن سلسلة من العمليات الإرهابية الخطيرة. أنظر ترجمته ومقتله على: http://en.wikipedia.org/wiki/Wadie_Haddad.

فكانت في الوقت ذلك تريد أن تجد أسلوباً آخر للتخلص من صدام، أنها أي إيران كانت معتقدة بغياب البديل للحكم الصدامي، مع البديل هم ذاتهم الدوائر السياسية التي تحيط به من الجيش والمخابرات والأمن، وبقية الأجهزة الشعبية المنتفعة من وجود النظام، فكان السيناريو الذي في ذهن الإيرانيين هو صعوبة وصول القوى الوطنية إلى استلام زمام الحكم من خلال اغتيال شخصية صدام ذاتها، كما ترى المقاومة العراقية التي كانت آنذاك تعيش على الأرض الإيرانية.

وقد استفادت إيران من واقع الانتفاضة الشعبانية في عام 1991 حيث تمكنت من أن تسيطر على كلّ العراق إلّا بغداد إلى أن فشلت خلال أقل من شهر، مع أنها -أي إيران- والمقاومة العراقية كانت تلقي باللوم على أمريكا في السماح لصدام في أن يستعمل طائراته العمودية في ضرب المقاومة، ومع قبولنا بهذا الرأي فإنه يبقى هنالك عامل أكثر حسماً وهو الذي غيّر المعادلة إلى صالح النظام العراقي ذلك هو غياب الاستعداد الواقعي، وغياب القيادة الفعالة التي تتمكن من أن تسد الثغرة فيما بعد سقوط صدام، وهي قضية مهمة جداً في عداد التفكير في تغيير الأنظمة، بل أن البديل كان هو ذاته أي المخابرات أو الأنظمة القمعية الداخلية، والجيش العقائدي الذي تمّ إعداده في العراق.

ومع أن المعارضة العراقية كانت ترى العكس، كانت ترى بأن أي تخلخل في النظام كاف لانطلاقة انتفاضة عارمة تكون بديلاً إلى النظام باعتبار أن المعارضة كانت تعتقد بأن الشعب العراقي شعب رافض لصدام، وأنه ينتظر أي فرصة للتخلص منه ثم إقامة حكم بديل

ديمقراطي أو إسلامي وهو تصور واهم تماماً كما أثبتت أحداث ما بعد السقوط.

إذن وأمام هذا السيناريو يبقى السؤال عن ماهية الخطة الإيرانية لإسقاط النظام العراقي. . ؟

إيران أولاً ليست الدولة الطامحة في العراق كما هي كلمة الطموح التي تقال عن هذه الدولة أو تلك الدولة، فهي دولة لم يشر تأريخها إلى تعطشها في التمدد على حساب جيرانها، فهي دولة كبرى ومهمة للمنطقة، وغنية لها قدرات وحضارة عميقة ولها شعب واعٍ متماسك تجمعه الثقافة الفارسية المتميزة التي تستظل بظلال الإسلام مع افتخار الإيرانيين إلى ذلك الانتماء، وخصوصاً الانتماء المذهبي لخط (آل البيت) حيث أن الجذور الدينية لإيران موجودة في العراق من خلال أضرحة الأئمة المدفونين في العراق[1] كما أنها تهتم بواقع (الحوزة العلمية) في النجف التي تُعتبر بمنزلة مدرسة العالم الشيعي، والتي من خلالها تتصل مدارس إيران بها كمرجع رئيس في تقرير البحوث الدينية.

فالرابط الفكري الديني هو الجانب المعمق لدى الإيرانيين في نظرتهم إلى العراق، وهو أمر جداً مهم كما هي حاجة الدول الأوروبية والأمريكية إلى (الفاتيكان) لا يمكن لها أن تكون إلّا من خلال انفتاح كامل في التواصل وفي تبادل العلوم. أو كما هي رابطة البحوث الطبية بعضها مع البعض الآخر فيما بين الجامعات الأمريكية العالمية. وهو

(1) ستة من الأئمة الإثني عشر، وعشرات من الصالحين والأولياء.

أمر يمكن لنا تفهمه وإدراكه، مع أن العرب، أي العراقيين لم يدركوا ذات المعنى تجاه مدارس الدين أو الحوزارت الموجودة في إيران، وذلك لعوامل كثيرة منها: الفرق الكبير بين الحرص العربي عن الحرص الإيراني في التوجه إلى دراسة العلوم الدينية، ومنها الوضع الاجتماعي والسياسي لرجل الدين الإيراني عنه من العراقي أو العربي، وغيرها من الفروق الكثيرة التي ميّزت دوافع الاهتمام الإيراني بالعراق من أجل إبقاء هذا القطر مفتوحاً أمام تحقيق ما يصبو إليه الشارع وعلماء الدين الإيرانيين.

إنّ صدام وقيادته من العراقيين لم يكونوا ليُدركوا ذلك أبداً، بل إنه كان يستهين بعقائد الدين عموماً والشيعة[1] خصوصاً، بل كان يرى في التشيع (الفكر) عقبة كبرى في طريق تحقق أهدافه في دوام السيطرة على العراق وإبقائها واستمرارها في التمدد إلى طموحات أخرى ضمن الأقطار المحيطة بالعراق.

فقد قتل صدام من الشيعة عدداً كبيراً منهم ستة مراجع[2] ثم

(1) هنالك معنيان لكلمة (الشيعة) كما هو لكلمة (السنة) أولهما هو المعنى (الطائفي) الذي يشير إلى مدرسة فكرية لها أسسها في تصريف الأحكام الدينية، وهنالك مصطلح (الفئة) أو (المجموعة) وهو الموضوع الذي أشير إليه هنا في هذا الفصل من الكتاب والذي أعنيه في ذكري لكلمة (الشيعة) أو (السنة). كما هي مصطلحات (اليهود) و(الكاثوليك) وغيرها. فعندما أقول شيعة العراق لا أعنيهم طائفيا أو فكرياً، بل أعنيهم كمجموعة سكانية.

(2) (الشهيد الصدر الأول 1980) (الشيخ الغروي 1988) (السيد الخوئي 1992)، و(السيد السبزواري 1993)، و(الشيخ البروجردي 1998)، و(الشهيد الصدر الثاني 1999).

استباحته المراقد الدينية ومحاربة الجانب البحثي الديني، والتضييق على الحوزة وعلى الدراسات والمدارس. هذا بالإضافة إلى التخطيط الذي كان صدام قد أعدّه للتخلص كلياً في مذبحة كبرى من الشيعة كما هو رأيه في التوجه نحو الكرد، مع أن الكرد تمّت حمايتهم فيما بعد عام 1991 من قبل قوات التحالف، فأقاموا بعد ذلك كياناً مستقلاً ليس للنظام العراقي من يد في الوصول إليه أو ضربه.[1].

وهكذا بقي الشيعة شعباً مستباحاً أمام سطوة جبار قوي متغطرس يملك قدرات كبرى، وقوى أمنية مكتملة يتمكن من خلالها أن يمارس مذابح عظيمة ليست أقل وحشية من مذابح الهولوكوست[2] التي

(1) أعتقل نابليون بونابرت البابا (بيوس السابع) ثم ساومه بالتنازل عن شروطه (الدينية) خصوصاً بعدما طلق زوجته جوزفين، إلّا أن البابا رفض ذلك. ورفض ثلاثة عشر كاردينالاً حضور حفل زفافه، فأمر بسجنهم جميعاً. بقي البابا في الأسر طيلة 5 سنوات.

(2) (هولوكوست) هو مصطلح استخدم لوصف الحملات الحكومية المنظمة من قبل حكومة ألمانيا النازية، وبعض من حلفائها لغرض الاضطهاد والتصفية العرقية لليهود في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية. كلمة هولوكوست هي كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية λόκαυστον holókauston والتي تعني (الحرق الكامل للقرابين المقدمة لخالق الكون)، في القرن التاسع عشر تمّ استعمال الكلمة لوصف الكوارث أو المآسي العظيمة. أول مرة استعملت فيها كلمة هولوكوست لوصف طريقة معاملة هتلر لليهود كانت في عام 1942 ولكنّ الكلمة لم تلق انتشاراً واسعاً لحد الخمسينيات، ومع السبعينيات أصبحت كلمة هولوكوست تستعمل حضريا لوصف حملات الإبادة الجماعية التي تعرض لها اليهود بالتحديد، على يد السلطات الألمانية أثناء هيمنة الحزب النازي بقيادة أدولف هتلر والتي راح ضحيتها حسب الوثائق المتوفرة ستة ملايين ونصف يهودي تمّ تصفيتهم في أفران الغاز. اليهود أنفسهم كانوا يستعملون =

ارتكبها النظام النازي في أعقاب الحرب العالمية الثانية ومذابح الأنفال[1] ومذابح حلبجة[2] التي ارتكبها النظام في الوقت الذي لم

= كلمة شواه (שואה) في الأربعينيات بدلاً من هولوكوست وهي كلمة مذكورة في التوراة وتعني الكارثة. راجع المصدر:
Pinkus, Oscar (2005). The War Aims and Strategies of Adolf Hitler. Jefferson, NC: McFarland & Company.

(1) عمليات (الأنفال) أو حملة (الأنفال) هي إحدى عمليات الإبادة الجماعية (Genocide) التي قام بها صدام حسين سنة 1988 ضد الأكراد في إقليم كردستان شمالي العراق، وقد أوكلت قيادة الحملة إلى علي حسن المجيد وكان وزير الدفاع سلطان هاشم القائد العسكري للحملة. وقد سميت الحملة (بالأنفال) نسبة للسورة رقم 8 من القرآن الكريم. و(الأنفال) تعني الغنائم أو الأسلاب، قام بتنفيذ تلك الحملة قوات من الحرس الجمهوري بالإضافة إلى قوات الجيش الشعبي وأفواج ما يسمى بالدفاع الوطني التي شكلها النظام العراقي آنذاك لمحاربة أبناء جلدتهم. وقد تضمنت العملية ستة مراحل: الأولى بالهجوم على منطقة (سركلو وبركلو) وقد استغرقت هذه المرحلة 3 أسابيع، الثانية بالهجوم على منطقة (قره داغ) واستمرت هذه العملية من 22 آذار إلى 30 آذار من سنة 1988، الثالثة بالهجوم على منطقة (كرميان)، الرابعة الهجوم على منطقة حوض (الزاب الصغير)، الخامسة الهجوم على المناطق الجبلية لمحافظة أربيل، وجرى تدمير القرى الكردية هناك، السادسة وهي آخر المراحل بدأت في 25 من شهر آب 1988 وقد شملت منطقة (بهدنان). وقد استمرت هذه العملية حتى 6 من أيلول دمرت الحكومة العراقية آنذاك ما يقارب من 2000 قرية، وقتل الآلاف من المواطنين الأكراد في مناطق إقليم كردستان، وأجبر قرابة نصف مليون مواطن كردي على الإقامة في قرى أقامتها الحكومة العراقية آنذاك خصيصاً كي تسهل عملية السيطرة عليهم، وجرى إلقاء القبض على ما يقارب من 182,000 مواطن كردي جرى تصفيتهم ودفنهم في قبور جماعية في مناطق نائية من العراق. وفي يوم 5 كانون الأول من سنة 2012 م أقرّ البرلمان السويدي أن عمليات (الأنفال) كانت إبادة جماعية بحق الأكراد العراقيين. أنظر تفاصيل المذبحة على الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Al-Anfal_Campaign.

(2) قامت القوات العراقية بالهجوم الكيميائي في آخر أيام حرب الخليج الأولى بين =

تعرف به أي من دول العالم، وإنما كانت من خلال صدفة تمّ تصويرها من قبل مراسل إيراني اسمه (جوليستان كاوه) إذ كان في الجبهة الأخرى من الهجوم، ومذابح الكرد (الفيلية)[1] ومذابح الأهوار[2].

= العراق وإيران، من 16-17 مارس 1988. قُتل من سكان حلبجة وعلى الفور 5000 شخص وأصيب منهم 7000-10000 كان أغلبهم من المدنيين، وقد مات آلاف من سكان البلدة في السنة التي تلت من المضاعفات الصحية والأمراض والعيوب الخلقية. كانت الهجمة التي تعرّف أحيانا بـ(الإبادة الجماعية)، أكبر هجمة كيمياوية وُجّهت ضد سكان مدنيين من عرق واحد وهم الأكراد حتى اليوم. وهذا أمر يتفق مع وصف (الإبادة الجماعية) في القانون الدولي التي يجب أن تكون موجهة ضد جماعة أو عرق بعينه بقصد الانتقام أو العقوبة.

(1) الكرد الفيلية هم شريحة من الكرد تقطن المناطق الحدودية من العراق وإيران ابتداءاً من مناطق جلولاء وخانقين ومندلي شمالاً إلى منطقة علي الغربي جنوباً مروراً بمناطق بدرة وجصّان والكوت والنعمانية والعزيزية، وتقع أغلب هذه المناطق في محافظة واسط العراقية، إضافة إلى بعض قرى محافظة ميسان وشرق محافظة ديالى، يقال لها في العراق الفيلية وفي ايران الZلهورية، الكرد الفيلية يدينون بديانة الإسلام، وهم شيعة إثنا عشريون، سكن الكرد الفيلية في بغداد وكان العديد يزاولون النشاط التجاري فيها، وقد تمّ إبعاد الكثير منهم قسراً من العراق في 1970، وإبريل 1980، بحجة التبعيّة لإيران، وعدد كبير من الكرد الفيليّة في العراق لا يتقن اللغة الكردية ويتكلم اللغة العربية كلغة أم بحكم الاختلاط الطويل بالعرب ومناطق سكنهم المحاذية لمناطق العرب، لم تعرف أعداد الفيلية في العراق مع أن الإحصائيات الأخيرة تقول بأنهم يصلون إلى 3 ملايين عراقي. اعتبرت حملات الإبادة ضد الكرد الفيلية (إبادات جماعية ضد الإنسانية) (Genocide) والتي أقرتها المنظمات الدولية (تقرير وزارة الهجرة العراقية لسنة 2009). (الحركة الكردية المعاصرة، د. عثمان علي، التفسير للنشر والإعلان، اربيل 2011). أنظر الموقع التالي: .http://en.wikipedia.org/wiki/Feyli_Kurds

(2) بعد الانتفاضة الشعبانية بدأ الآلاف من المدنيين والجنود الهاربين والثوار بالهرب من بطش السلطة حيث هربوا إلى الأهوار الواقعة في جنوب العراق مثل هور (الحويزة) وهور (الحمّار) وغيرها، وحينها حدثت عمليات إنتقام واسعة من قبل قوات الحرس =

ومذابح التركمان[1].

أمّا الأنفال فإنها بقيت وصمة عار على جبين الإنسانية جمعاء تلاحق القانون العالمي والدول الكبرى التي وقفت موقف المتفرج أمام

= الجمهوري والجيش العراقي ضد الثوار في الأهوار، وفي نفس الوقت تمّ تجفيف أهوار العراق من خلال تحويل تدفق نهري دجلة ونهر الفرات بعيداً عن الأهوار مع نقل إجباري للسكان المحليين إلى مناطق أخرى بالإضافة إلى إعدام وقتل الآلاف من الثوار الهاربين حيث قال كلاوس توبفر (المدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة) عن جريمة تجفيف الأهوار أنها (كارثة بيئية كبرى ستبقى في ذاكرة الإنسانية كواحدة من أسوأ الكوارث البيئية التي سببها إنسان). أنظر أيضاً الموقع العالمي التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Human_rights_in_Saddam_Hussein%27s_Iraq.

(1) يعود تأريخ استيطان التركمان في العراق إلى سنة 54 هجرية، وقد بدأ إطلاق اسم التركمان على أتراك العراق في عهد السلاجقة، حيث يتفق المؤرخون أن هذه التسمية لا تعني بأي حال من الأحوال عرقاً آخر غير الترك. واسم التركمان جاء من دمج كلمتي (ترك وإيمان) وهم كانوا من الترك المسلمين الساكنين في ضفاف نهر جيحون (بلخ) ثم صنّف الاسم مع كثرة الاستعمال وصار (تركمان) لتميّزهم عن باقي (الأتراك)، وبلغ عدد المحكومين بالإعدام بالآلاف وعدد المفقودين قسراً يصل إلى أكثر من 20 ألف شخص، كما تمّ حرمانهم من أبسط حقوق المواطنة ومن حقوق الإنسان الأساسية ومنها: حق الانتماء القومي، حيث أرغموا على التخلي عن انتمائهم القومي واستبداله بقوميات أخرى من أجل طمس الهوية التركمانية بأبشع اشكالها، تمّ هدم القرى والقصبات في المناطق التي يسكنها التركمان وتهجير سكانها أو إرغامهم على الهجرة. بالإضافة إلى جريمة (الصهر القومي) المتضمن تحويل الانتماء القومي للعراقيين من غير العرب (الكرد والآشوريين والتركمان والأرمن) إلى الانتماء القومي العربي، وتعريبهم وإصدار تشريعات جائرة بتعريب أسماء المواليد الجدد. إنّ أعداد التركمان متفاوت بين ثلاثة إلى ثلاثة ملايين ونصف يسكن معظمهم في محافظة كركوك والموصل وبغداد. أنظر الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Turkmen_people.

إبادة لم يحدثنا التاريخ عنها في العصر الحديث. فلقد كان لصدام قدرات كبرى في إبادات مشابهة في غفلة عن أنظار العالم وأنظار الأمم المتحدة كما هي مذابح الانتفاضة الشعبانية التي راح ضحيتها أكثر من مليون إنسان على حسب التقارير (غير المؤكدة) التي بثتها المعارضة.

وهنالك وإلى الآن تمّ اكتشاف أكثر من 400 مقبرة جماعية ارتكبت في حق الشيعة في الجنوب لم يتم التوصل إلى نوعية المذابح التي مورست وكيفيتها من قبل النظام[1]، وبعض تلك المقابر كانت لأطفال لم تتمكن منظمات حقوق الإنسان من معرفة الدوافع الحقيقية وراء هذا العدد الكبير وكانت تخلو من جثث لبالغين وهذا العرف المتبع في المذابح التي تحصل في مناطق العالم الأخرى.

كانت إيران ترى بأن الشعوب العربية كان لها ضلع من قريب أو بعيد في إبادة الشيعة في العراق، وهذا الرأي لا يخلو من واقعية لحد ما، وخصوصاً فيما يتعلق بالموقف السعودي[2] الذي ما فتىء يصدر

(1) من الأمور التي تحزّ في النفس أن النظام الجديد ما بعد عام 2003 لم يعط الفرصة الكافية لتوثيق الانتهاكات التي كان صدام يمارسها تجاه شعبه، وتجاه الشيعة، مع أن الحكومة العراقية قد أنشأت مؤسسة أطلق عليها (مؤسسة الشهداء) ولكنّ ضعف الأداء، وغياب العلميّة، وتدخل عامل (المحاصصة) ترك هذه المؤسسة تعيش في توجه لم يخدم الهدف الذي بنيت من أجله. كما أن الجانب البيولوجي لرفات الشهداء لم يتم بالصورة العلمية التي كان المفترض أن يكون، وبهذا ضاع تراث مهم جداً من تأريخ العراق، وتأريخ الصراع مع الحكام من قبل الشيعة وغير الشيعة من مواطني العراق، وهي خسارة جمّة وكبرى لا يمكن لي أن أقدر فداحتها، كما أنه لمن الصعوبة أن أوجه إصبع الاتهام إلى أي من المسؤولين في الوزارات المعنية، بل هو من مسؤولية الكلّ، وكلهم مسؤول أمام هذه المأساة الكبرى.

(2) أنظر مواقع الكترونية كثيرة لا يمكن عدّها والتي تدعو إلى إبادة الشيعة فكرياً وجسدياً، =

الفتوى تلو الأخرى في حلّيّة قتل الشيعة منذ زمن ليس بقريب وربما منذ بداية القرن العشرين يشاركه في ذلك الكثير من العرب. وهذا موقف تُبنى دوافعه على التعصب الطائفي الأعمى الذي تبنته الأنظمة العربية في المنطقة.

وقد لا نستغرب ونحن نعيش في القرن الواحد والعشرين أن نرى بأن هنالك دعوات يرفع عقيرتها شخصيات تحتل موقع الرئاسة في دول عربية، وليس من قبل شخصيات هامشية كما هو مصطلح (الهلال الشيعي)[1]. كما تعتقد إيران بأن الولايات المتحدة تشارك العرب بدورها وخصوصاً السعودية هذا التوجه، وإلّا فما هو تفسير سكوت أمريكا عن جرائم مقتل الملايين من قبل الأنظمة العربية من ضمنهم صدام، بينما تقوم أمريكا ولا تقعد عن تصريح في وسيلة إعلام مغمورة لشخص قال بعبارات يُشم منها أنها تقصد أذى اليهود. . . .

وهذا الاعتقاد ربما نابع من خلفيّة كانت الولايات المتحدة تعتقد

= وقد تمكنتُ من عدّ ما لا يقل عن 75 موقع تثير البغضاء وتحرض على القتل ضد الشيعة تنطلق أساساً من فتاوى وشخصيات سعودية.

(1) مصطلح سياسي استخدمه الملك الأردني عبدالله الثاني (للواشنطن بوست) أثناء زيارته للولايات المتحدة في أوائل شهر ديسمبر عام 2004، عبّر فيه عن تخوفه من وصول حكومة عراقية موالية لإيران إلى السلطة في بغداد تتعاون مع طهران ودمشق لإنشاء هلال يخضع للنفوذ الشيعي ويمتد إلى لبنان ويخل بالتوازن القائم مع السنة، ورأى في بروز هلال شيعي في المنطقة ما يدعو إلى التفكير الجدي في مستقبل استقرار المنطقة، وهذا ما يمكن أن يحمل تغيرات واضحة في خريطة المصالح السياسية والاقتصادية لبعض دول المنطقة. أنظر تفاصيل ذلك على الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Shia_Crescent.

ربما منذ بداية القرن الماضي وإلى حين تأريخ حرب الخليج الثانية، وبعد عام 1991 وبالتحديد ما بعد أحداث سبتمبر لعام 2001 من أن التشيع هو فكرة قريبة من القاعدة وأنها تعني الرفض أو الثورة أو المواجهة ضد الآخرين، وقد استقت هذا الرأي من جهود كبيرة كانت دول العالم العربي تجتهد في تثبيتها بمراكز البحوث الغربية وجامعاتها وخصوصاً السعودية كما ذكرتُ مندفعة بالنَفَس الطائفي المتعصب الذي تقوده المؤسسة الوهابية الدينية التي تمتلك قدراً كبيراً في تركيبة النظام السعودي والأنظمة الأخرى.

كانت إيران ترى أن شيعة العالم في خطر، وأن التعاون الدولي في مشروع إبادتهم هو قرارٌ صادر مع وقف التنفيذ، وهذا بالتأكيد أمر له أكثر من سبب في أن تتحرك الدولة الشيعية الوحيدة في العالم لكي تحمي شيعة العراق من الذبح ومن الإبادة، ولذلك فإن صدام فَهَمَ المعادلة تماماً، وفَهَمَ أن وصول الإمام الخميني إلى السلطة في عام 1979 سيكون الحامي للتشيع العراقي، فعليه إذن أن يبادر إلى إسقاط النظام وإلى إبادة أكبر قدر من الشيعة بطريقة الحرب[1] مع أن الشاه كان يقوم بذات الدور، ولكنّ من منطوق البراغماتية السياسية، وليس من باب التوجه الفكري.

وهذه المخاوف لها ما يبررها كما هي المخاوف التي تبديها

(1) ضحايا الحرب العراقية الإيرانية كان قد تجاوز ومن كلي البلدين ربما أكثر من مليون ونصف، ربما غالبيتهم من الشيعة، سواء أكانوا عراقيين أم إيرانيين، فغالبية منتمي الجيش العراقي من الجنود وضباط الصف هم من الشيعة، نعم ربما القيادة وبأعداد قليلة، كان السنة هم المسيطرون عليها، ولكنّ الغالبية العظمى كانت من الشيعة.

السعودية أو مصر تجاه السنة في العراق أو الفاتيكان للمسيحيين في العراق وفي مصر ولبنان، أو التخوف الإسرائيلي تجاه اليهود المغاربة، وهذا أمر أصبح اليوم طبيعي في عالم العولمة، ومن حق الانتماء المشترك أن يحمي أبناء طائفته من عوادي الزمن.

فالحرب بين رواندا وبوروندي[1] اعتبرت من أعتى الحروب وحشية في التاريخ الحديث بسبب ما ارتكبت فيها من مذابح كانت دوافعها هو الانتماء الطائفي ما بين (الهوتو) و(التوتسي)[2]. وكذلك

---

(1) منذ استقلالها عن بلجيكا عام 1962، حكمت بورندي أقلية التوتسي كما هم الطائفة السنية في العراق، ولدى إجراء أول انتخابات ديمقراطية عام 1993، فاز زعيم حزب (الهوتو) (ملكيور نداداي) فأصبح أول رئيس من الأغلبية الهوتو، وبعد عدة أشهر قامت مجموعة من ضباط التوتسي بإسقاط طائرته، فاندلعت حرب أهلية انتهت ببقاء السلطة في يد أقلية التوتسي. وتحت ضغط دولي من قِبل الزعيم الجنوب أفريقي (نلسون مانديلا) قبل على مضض، ترؤس لجنة المصالحة لفترة، ثم انسحب لرفض التوتسي مبدأ (لكل شخص صوت) الذي سينهي احتكار أقلية التوتسي للسلطة. أنظر الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Burundian_Genocide.

(2) وقعت في إبريل 1994 حيث تعرضت الدولة الأفريقية الصغيرة في رواندا إلي أكثر الإبادات الجماعية في التاريخ في القرن العشرين. تمّت بواسطة حدث سياسي خطير قام على أساس الدعاية العنصرية من مجموعة الأغلبية هوتو، وقاموا بذبح أكثر من ثمانمائة ألف فرد من جماعة الأقلية التوتسي في مدة 100 يوم بواسطة استخدام المنجل. وقد تمّ تفسير هذه الصراع على أساس التنافس القبلي بين الجماعتين الممتد منذ قرون، ولم ينجحوا حتى في التصالح في مرحلة ما بعد الاستعمار. ولم يتدخل العالم أو يرغب في التدخل لإنقاذ الموقف. والمشكلة الكبرى المشابهة للوضع العراقي هو أن بلجيكا عند استعمارها لهذا البلد فرّقت في التجنس كما هو في العراق جنسية (أ) وجنسية (ب) ويعتبر هذا من أهم الأسباب التي أطلقت دوافع القتل الوحشية. أنظر الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Rwandan_Genocide.

الأمر في أحداث البوسنة والهرسك[1] فالمذابح التي حصلت في البوسنة التي أجبرت الأمريكان أن يبدأوا حملتهم الجوية المكثفة ضد (صربيا) بعد أن فشلت قوات الأمم المتحدة في حماية المسلمين من غضبة الصرب الأرثوذكس. كذلك الأمر تكرر في إقليم (كوسوفو)[2] الذي كان للدول المجاورة ولتركيا وللولايات المتحدة وألمانيا أن

(1) قتل حوالي 200,000 بوسني مسلم بواسطة السلطات الصربية السياسية (بقايا النظام الشيوعي في يوغوسلافيا)، بعد حدوث مذبحة سربرنيتشا (اغتصبت ألفا امرأة مسلمة وقتل 8 آلاف مسلم) عندها بدأت الحملة الجوية (للناتو) ضد جيش جمهورية صرب البوسنة في أغسطس 1995، ورافقها هجوم بري للقوات المتحالفة من الكروات (الارثوذوكس) والبوسنيين (المسلمين) لطرد القوات الصربية من المناطق التي تمّ أخذها في غرب البوسنة. وفي ديسمبر تمّ التوقيع على اتفاقية (دايتون) (أوهايو) بين رؤساء كلّ من البوسنة والهرسك برئاسة (علي عزت بيغوفيتش) والكرواتي (فرانيو تودجمان) والصربي (سلوبودان ميلوسيفيتش) لوقف الحرب والبدء بإنشاء الهيكل الأساسي للدولة الحالية. وتقدير العدد الإجمالي للقتلى كان ما لا يقل عن 110,000 قتيل ما بين مدني وعسكري، وتم تهجير حوالي 1,8 مليون شخص عن مناطقهم. وقد تمّ إعلان هذا من قبل اللجنة الدولية لشؤون المفقودين. أنظر الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Srebrenica_massacre.

(2) أنتفض الألبان (المسلمون) في إقليم كوسوفو والذي كان جزءاً من يوغوسلافيا الصربية (المسيحية)، ولكنّ الانتفاضة قمعت بوحشية متناهية ممّا دفع الولايات المتحدة إلى التدخل لحماية الكوسوفيين من غضبة الصرب عام 1997-1999 (تماما كما حدث في الانتفاضة الشعبانية في العراق)، وقد شنّ هجوم على (صربيا) و(الجبل الأسود) وقد استمر 78 يوماً حتى وقف الحرب في كوسوفو في عام 1999، بناءاً على قرار أصدره مجلس الأمن الدولي، حيث قامت الأمم المتحدة بإرسال بعثة لإدارة محافظة كوسوفو، بتاريخ 17 فبراير 2008 أعلن البرلمان في كوسوفو الاستقلال، (جمهورية كوسوفو). وبناءاً على اتفاق بروكسل تعترف صربيا بانفصال كوسوفو واستقلالها، لكنها لا تعترف باستقلالها بشكل رسمي. أنظر الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Kosovo.

تتدخل لحماية جالية إسلامية ضعيفة لا تمتلك القوة في مواجهة الصرب اليوغسلاف في محاولة لتخليص وطنهم من السيطرة الديكتاتورية التي بدأت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

فالتدخل لحماية الجاليات التي تحتفظ بروابط مشتركة كاللغة أو الدين أو المذهب أو الثقافة قضية أصبحت اليوم أمراً متعارفاً عليه ما بين دول العالم المتقدم، فالتدخل الأمريكي وإنقاذ مسلمي البوسنة والهرسك (2 مليون مسلم) وكذلك إنقاذ مسلمي كوسوفو (2 مليون مسلم) من سطوة قوات حكومية، أو التدخل الأمريكي في أحداث رواندا (المسلمين 5.2 مليون نسمة) لإنقاذ المواطنين من قتال بعضهم البعض،هي قضية أكبر من موضوع الانتماء العرقي أو الديني أو القومي. فهذا أمر إنساني مفروض على الجميع المبادرة له، سواء أكان المضطهدون مسلمين أم كفرة أم عرب أو غيرهم. وهذه من طبائع البشر والإنسانية، فقد أجد أحياناً صعوبة كبرى في تفهم موقف الدول العربية من كلّ المذابح التي كان يرتكبها صدام ضد شعبه منذ أن تولى الحكم في عام 1979 والتي راح ضحية تهور هذه الشخصية أكثر من مليوني عراقي[1].

(1) إنني لأستغرب عدم مبادرة الدول العربية أو الإسلامية عدم إصدار أقلّ ما يمكن عمله وهو بيان استنكار، أو تدخل أو معارضة، بل على العكس نجد بأن تلك الأنظمة تستّرت على واقع النظام، وأنها حاربت المعارضة وكلّ من سنحت له الفرصة للهرب من جحيم العراق. كما فعلت الكويت والسعودية والإمارات، ولم تقف مع الشعب العراقي كمعارضة إلّا سوريا وإيران في قبولهم على أراضيها. ولا يمكن لي من تفسير الأمر أو تقديم تبرير إلّا الإشارة إلى الحس الطائفي المتعصب الذي استحكم في عقول القادة =

وهنا نلاحظ من خلال هذا السرد في أن إيران ترى بأن هنالك مصلحة تربطها بالعراق عليها أن تحققها من خلال التفكير في مستقبل النظام، ومستقبل الطائفة الشيعية التي يصل نسبتها إلى أكثر من 60% من نفوس العراق في الداخل، وهذه المصلحة ليست متجاوزة لمسؤوليتها الإنسانية والفكرية في ضرورة منع صدام من الاستمرار في ذبح الشيعة، وهذا ما دفعها في التفكير جدياً في أن تكون في الصدارة للعمل على إسقاط النظام، ولكنّ ليس من خلال المنظار الأمريكي الذي تشكك إيران في جديته أو منبعه الإنساني، بل ترى فيه بأنه كما يسمى دموع التماسيح في الوقت الذي شاركت هي بصورة مباشرة أو غير مباشرة في مساندة صدام لأكثر من عقد من الزمن على الاستمرار في حرب السنوات الثمانية، وزودته بقدرات هائلة في سبيل سحق المعارضة ومنعه من السقوط.

وكان آخر ما نشرته مجلة (فورن بوليسي) هو أن أمريكا كانت قد ساعدت صدام على استخدامه للأسلحة الكيمياوية التي ضرب بها حلبجة والأهوار وبقية جيوب المعارضة[1] وهنا نتوقف أمام هذا السرد قبل أن ننتقل إلى الرأي الأمريكي لنرى موقف الدول الأخرى التي

= العرب باعتبار أن المعارضين لنظام صدام كان معظمهم بل غالبيتهم من الشيعة، نعم ربما هنالك من مبرر آخر لا نعرفه وهو لازال في طي الكتمان هذا إذا أحسنّا الظن بالأنظمة العربية المذكورة.

(1) نشرت مجلة (فورن بوليسي للكاتبين Shane Harris and Matthw M. AID) ولأول مرة أنّ أمريكا ساعدت صدام على استعماله للأسلحة الكيماوية في الحرب ضد إيران وضد المعارضة. . فورن بوليسي عدد 26 أغسطس 2013.

كانت لها مصلحة في إبقاء أو عدم إبقاء النظام وأهمها: تركيا ثم السعودية باعتبارهما الدولتين الكبيرتين اللتين كان لهما دور واضح في سياسة المنطقة، وفي مستقبل الاستقرار في العراق وعلاقتهما في موضوع إبقاء النظام والعلاقة مع الأشباه.

تركيا: تركيا ليست كإيران في موضوع مشروعها لإسقاط صدام، مع أنها كانت ترى في إسقاط النظام أمراً لا يخصها كثيراً مع أنها لا تمانع في ذلك، بل كانت كلّ توجهاتها: هي الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي والاندماج مع الأوروبيين بطريقة تتحول تركيا إلى بوابة أوروبا على العراق. وعلاقتها أو تفاصيل إسقاط النظام وموضوع أشباه صدام ليس هو الشغل الشاغل لها كثيراً، فهي ليست ممّن يعارض التوجهات والنظرة الأمريكية في أي مسعى تقوم به أمريكا تجاه إسقاط صدام. من الصحيح أن لا نغفل الطموحات التركية تجاه العراق، خصوصاً بما يتعلق بموضوع القتال الدائر مع حزب العمال الكردستاني الذي يتخذ من العراق قواعد له في ضرب أهداف تركية. ومع أن حكومة صدام وحتى كما يعتقد حكومة ما بعد التغيير لم تكن تعارض أن تلاحق القوات التركية المتمردين داخل العراق، ولكنها كما هو واضح أمر آخر تقوم تركيا بتنفيذه بعيداً عن موضوع هذا الكتاب.

السعودية: ومهمة السعودية في العراق كانت تنحصر في أمرين مهمين هما: منع الشيعة من الوصول إلى الحكم، والثاني هو قصّ أجنحة صدام بالطريقة التي تجعله أسداً على شعبه نعامة على الشعوب الأخرى. وهذا يفسر لنا الموقف الغريب الذي وقفته السعودية بعد الانتفاضة الشعبانية 1991 في الضغط على أمريكا أن توقف تقدمها ثم

مساندة صدام ثانية في ضرب الثورة، مع أن صدام قاد الحرب المدمرة في احتلال الكويت وفي الدخول إلى منطقة (الخفجي) السعودية، وطموحه في إسقاط النظام السعودي، هذا بالنسبة إلى السعودية ليس مهماً بقدر وصول الشيعة إلى الحكم في العراق. وهذا بالتأكيد منطلق من مقولات إرثية قديمة تتحكم بها عوامل الطائفية التي بنيت في السعودية ضد الشيعة قبل وصول آل سعود إلى حكم الجزيرة العربية، فيبدو أن معاداة محمد بن عبد الوهاب (ت 1791 م) إلى الشيعة عميقة بعد أن استند الأخير على تعاليم أستاذه ابن تيمية (ت 1327 م) في محاربة التشيع كفكر بسبب الوضع السياسي الذي كان سائداً في زمن نشأة عبد الوهاب وتحالفه مع محمد بن سعود في الدرعيّة، في الوقت الذي حسم الإيرانيون معركتهم الفاصلة قبل ذلك مع الأتراك وانتصروا عليهم في عام 1730 وبداية الدولة الإفشارية التي كانت في السابق قد اعتنقت المذهب الجعفري في زمن (خدابندة) حفيد هولاكو (ت 1316م) وكان الأتراك آنذاك قد استاؤوا من معركة الفصل ما بينهم وبين الإيرانيين فعمل العثمانيون على كلّ الأصعدة من أجل تشويه المذهب الفكري للشيعة، وكان من ضمنهم أو المتأثرين بهذا الاتجاه هو محمد بن عبد الوهاب، فسافر إلى البصرة ويقال إلى النجف[1]

(1) هنالك كتاب اسمه (مذكرات همفر) لم يذكر فيها اسم المطبعة وسنة الطبع، ولم يشر إلى هوية الكاتب (همفر) الذي يقول عن نفسه بأنه الجاسوس البريطاني إلى الشرق الأوسط في سنة 1710، يشير الكتاب إلى الكثير من سيرة محمد بن عبد الوهاب ونشوء الفكرة الوهابية، ص 30. إننا هنا لسنا من الذاهبين إلى توثيق هذا الكتاب لأنه لا يحمل التوجه البحثي والعلمي في النقل.

متخفياً لكي يطلع على علوم الشيعة من أجل محاربتهم من الداخل، وكما نعلم فإن الوهابيين قد هاجموا أماكن الشيعة في النجف وكربلاء لتهديم أضرحتهم، كما تمكنوا من سرقة ضريح الإمام الحسين في سنة 1800، و1801، 1806، 1812.

ويبدو أن الفكرة الوهابية كانت قد تمّ احتضانها بسبب توازن القوى بين الأتراك وبين إيران في الوقت الذي كان يخشى أن يكون الشريف حسين (ت 1931 م) أكثر ميلاً إلى الشيعة أو أن يكون شيعياً، وهو شخصية طامحة إلى سيادة البلاد العربية بعيداً عن التأثير التركي. وقد فُسر ذلك بأن الانفصال عن الأتراك يعني التشيع، وهذا فهم خاطئ كانت السياسة تلعب دوراً كبيراً في تأصيل مفرداته. وفي النهاية تعاون آل سعود مع البريطانيين ضده فتمكنوا من هزيمته ونفيه ثم موته.

إنّ السعودية ومنذ نشأتها في سنة 1927، كيّفت دستورها وعملها لكي تحارب الفكر الشيعي بصورة أو بأخرى، ولم تنكفئ هذه الجهود وإلى الآن وبشكل يعجب المرء أن يرى هذه الدولة الكبرى الغنية التي تحتل موقعاً مهماً وكبيراً لا في العالم الإسلامي فحسب، وإنما في العالم لا زالت تبث روح الكراهية والحقد والقتل ضد الشيعة، ولازال خطباؤهم ومفكروهم وجامعاتهم تحارب الفكر الشيعي بشكل مستمر، وقد نمت من هذا التطرف فكرة (القاعدة) التي كانت أصلاً موجهة ضد الشيعة، فهم يعتبرون أن خطر الشيعة على السعودية أكثر بمرات من الخطر اليهودي أو الإلحادي.

ولذلك فإن السلطات السعودية تعمل ليل نهار من أجل محاربة التشيع فكراً وعقيدةً، وهذا تجده في المدارس وفي الجامعات وفي

السياسة وفي كلّ مرافق الدولة. وهي الدولة الوحيدة في العالم التي تحارب فكرا مذهبياً بهذا القدر من الكراهية.

ومما زاد في الطين بلّة هو أن عدد نفوس السعودية يضم نسبة كبرى من الذين ينتمون إلى التشيع، وخصوصاً في مناطق النفط وإنتاجه[1]. كذلك الأمر في الواقع اليمني الذي يحوي طائفتين شيعيتين كبريتين هما الزيدية نسبتهم 45% أو أكثر والشيعة الإثنا عشرية ونسبتهم في تصاعد قد يصل إلى 10%، أمّا في سواحل ودول الخليج: عمان والإمارات والكويت وقطر والبحرين فإن نسب الشيعة كبيرة إلى الدرجة التي فرضت هذه الحالة على السعودية في التدخل البحريني لمنع المظاهرات السلمية التي تجتاح هذه الدولة الخليجية، وهي أكبر دولة في الخليج تتمتع بأكثرية شيعية خلافاً لكل دول المنطقة.

أما في العراق فإنهم ابتلوا بغالبية شيعية وصلت إلى حكم العراق في عام 2003. فالخوف من الشيعة لا أرى له من تبرير إلا التبرير التراثي التاريخي القديم الذي لا يستند على أساس، إلّا على المقولات الصفراء التي عفا عنها الزمن. ولكنّ السعودية جادة جداً وبشكل حثيث في مواجهة المد الشيعي، وبشكل منظم ليس في السعودية فحسب،

---

(1) تضاربت الأرقام الخاصة بتلك النسبة مع أنها لم تظهر في أي تقرير إلّا تقرير المخابرات السعودية الخاص والذي تمّ الاطلاع عليه من قبل البعض، وهو أن نسبتهم تنحصر بين 22-25% من نفوس المملكة، أمّا المعلن فهو 15%. هذا في الوقت الذي يخفي الكثير من السكان تشيعه خوفاً من البطش المسلط من قبل النظام، كما هو ظهور أرقام عدد الشيعة في مصر بعد الإطاحة بمبارك، وعدد الشيعة في العراق بعد التغيير في عام 2003.

وإنما في لبنان وسوريا وفي أفريقيا وفي المغرب وفي تركيا وفي مصر وكلّ أقطار العالم الشرقية منها والغربية. وهذا التوجه من قبل السعودية أمر ملازم للدولة منذ بداية التأسيس. فكل العمليات الإرهابية التي تقع في العالم اليوم هي في الأصل منبعها الفكر الوهابي السعودي، كما أن الأموال التي تمول تلك العمليات معظمها من المال الخليجي السعودية أو نظيراتها.

فقد أُسست المنظمات الإرهابية (كالقاعدة) وغيرها من أجل تحقيق غاية مواجهة كما يسمونه (الخطر الشيعي) أو أحياناً بصفاقة (الروافض). ولكنّ تلك الحرب الفكرية الإستراتيجية على الشيعة تطورت بالشكل الذي شمل الكثير من التجمعات التي يعتقدون بأن الشيعة يحتمون بهم كما هي حربهم في العراق التي كانت موجهة أصلاً ليس ضد الأمريكان، وإنما ضد الشيعة باعتبار أن الأمريكان سيقفون حجر عثرة أمام طموحات الحركات المتطرفة في التخلص من الشيعة أو غيرهم في العراق.

أما موقفهم أحيانا ضد الحكم السعودي فهو بسبب التهاون الذي يُعتقد بأنه تهاون من قبل الحكومة تجاه الشيعة وبذلك يعتبرونها مشاركة لهم بطريقة أو بأخرى[1].

(1) من الصعوبة جداً الإحاطة بهذا الموضوع بشكل موسع بسبب اتساعه وكثرة معلوماته والتي لم تكن هي المجال الذي كتب من أجله هذا الكتاب، فلا نريد أن يطغى هذا الموضوع على أصل فكرة الكتاب وهو سر صدام وأشباهه، بل إنه لمن المجدي مراجعة ثلاثة كتب في هذا الموضوع هي: الوصول إلى السلطة إسحاق نقاش، الانبعاث الشيعي لولي نصر، الشيعة والدولة القومية لحسن العلوي.

وتعيش الحكومة السعودية بسبب هذا الموقف المتعصب الطائفي في أزمة أمام ربيبتها أمريكا في كيفية تفسير هذا السلوك وتقديم مبرر عالمي أو إنساني لهذا النوع من التعامل. بعدها ظهر بأن الشيعة ليسوا بأناس يميلون إلى العنف والقتل والإرهاب، بل إنهم ضحايا العنف في كلّ أنحاء العالم وهو ما تمّ اكتشافه أخيراً من قبل الدوائر السياسية والبحثية الغربية، تلك التي كانت تقف إلى صف تلك الفكرة فيما قبل سبتمبر 2001. فوجودهم في المملكة السعودية بنسبتهم المذكورة لم يتبين منهم من خلال عملهم وتأريخهم ومشاركتهم في بناء الدولة بأن هنالك ميلاً من قبلهم إلى التطرف، أو القتل كما هم المتطرفون من الوهابيين الذين انتشروا في العالم متّخذين من السعودية أرضاً آمنةً لنشر مبادئهم (Save Haven)[1].

ومع أن السعودية لم تقدم أي مشروع لإسقاط النظام، ولم تتبنّ موضوع مشاركة الأطراف الأخرى في تغيير شخصية صدام، ولكنها في ذات الوقت كانت تضغط من قبل الّلوبي على تضعيف الشيعة في العراق، وكانت تبث شجون الخوف من مقولة ظهور مارد شيعي جديد كما هو (الغول) الإيراني الذي أقضّ مضاجع أمريكا منذ الثورة عام 1979 وإلى حين ذلك التأريخ الذي سقط فيه النظام، فكانت السعودية تضم على أراضيها عُتاة المؤيدين إلى النظام الصدامي، وكانت ترى في

(1) مؤخراً ونحن نكتب هذا الكتاب أصدرت السعودية قانوناً يجرم من يدعو إلى إصدار فتاوى قتل الآخرين، وذلك في الشهر الثاني من عام 2014. وهي سابقة تبدو محاولة من قبل الدولة أو بعض أركان السعودية بأنها تكفير عن جرائم الماضي.

أن البديل هو الفكرة السلفية التي صرفت السعودية أموالاً كبيرةً في سبيل نشرها بين أوساط العراقيين، وتمكنت في زمن الحصار من أن تحصل على عددٍ لا بأس به من الشباب الذي وجد ضالته في الأموال السعودية السخيّة وفي احتضان إحباطاته من جرّاء الوضع السيء الاقتصادي الذي كان يعيشه العراقيون. وقد تمكنت من خلال ذلك من أن تحصل على قدر من سياسيي العراق ليكونوا بديلاً مستقبلياً لشخصية صدام.

إسرائيل: من المتعارف عليه أن إسرائيل ترى في شخصية صدام عدوة لها بسبب المواقف التي صدرت في الصحافة، والتهريج الذي كان يمارسه النظام العراقي آنذاك، هذا بالإضافة إلى إطلاق الصواريخ على إسرائيل إبّان حرب الخليج الثانية. وهذا ربما له واقعية على مستوى الإعلام، ولكنّ إسرائيل في حقيقتها وكما ظهر بعد إبريل 2003 بأنها كانت من أكبر المتضرّرين من سقوط النظام الصدامي واستبداله بنظام ديمقراطي، ولذلك فقد تبنت بسبب هذا الضرر أسلوب الإرهاب الذي تمارسه (القاعدة) والسلفيون وبالتعاون مع السعودية، وقد بذلت إسرائيل جهوداً مضنية وكبيرة في سبيل منع أمريكا من تغيير النظام الصدامي في تلك الحرب. وذلك من خلال تخويف أمريكا بظهور إيران ثانية في العراق وهي ذات المقولة التي يتغنى بها ويرددها الأنظمة التابعة إلى السعودية، والتي تدور في فلك الطائفية، ولكنّ الطموح الإسرائيلي هو أكثر عمقاً وأكثر علمية بنظرتها المستقبلية تجاه تداعيات وجود نظام عربي ديمقراطي وحيد في المنطقة العربية، وخصوصاً قطر مهم مثل العراق، وهذا الخوف بالتأكيد له ما يبرره إذا

أدركنا بأن القوة الإسرائيلية وتعاطف الشعوب الغربية معها متأتٍّ من حالة الديمقراطية التي تتبناها إسرائيل، والتي تعتبر وحيدة ومميّزة في الشرق الأوسط، في الوقت الذي يرزح كلّ الوطن العرب تحت أنظمة توليتارية، وأنظمة عشائرية تتأصل فيها الديكتاتورية بأجلى صورها، ويكاد وضعها أن يكون أنموذجاً من نماذج الأنظمة الشمولية العميقة في الديكتاتورية.

من مصلحة إسرائيل أن تترك الأمر العربي أو العراقي كما هو في أن يكون هنالك فاصل حضاري بين التركيبة العربية في شكل الحكم وبين ديمقراطية إسرائيل العتيدة، والتي تعتبر من الديمقراطيات المشهود لها في العالم، والتي من خلالها حضيت هذه الدولة بمكانة محترمة في المحافل الدولية وفي أمريكا.

وممّا يقودنا إلى النتيجة التي لا تسرّ إسرائيل في رفضها إلى قيام نظام عربي يمتلك ديمقراطية حقّة وطنية تختلف عن الأنظمة الأخرى، فإسرائيل تدرك بأن أمريكا إذا ما دخلت قطراً من الأقطار فإنها تؤصّل حالة الانتخابات والتعددية الحزبية والنظام البرلماني، ولا تقبل أمريكا بدولة تستعمل الديمقراطية الشكلية كما هي السعودية ومصر ودول الخليج في خلال وجود الولايات المتحدة الأمريكية على خط العلم والتنسيق معها.

وليس من العسير لنا أن ندرك لماذا لم يُنتخب الرئيس بوش الأب ثانية في عام 1993 أمام منافسه كلينتون (الفلاح) الذي لا يمتلك أية خبرة في عالم السياسة، وخصوصاً السياسة الخارجة، في الوقت الذي أجريّ استفتاء ما بعد حرب الخليج الثانية في عام 1992 وظهر بأن

الرئيس بوش الأب له من التأييد الشعبي ما لم يحصل عليه رئيس في تأريخ أمريكا على مدى تأريخها. وذلك بسبب أنه شخصية امتلكت كلّ عوامل الفلسفة الأمريكية، فخبرته عالية جداً، وعائلته ونظرته وأمريكيته تعتبر من النوع المميز في كلّ ما يمكن أن يتحلى به قائد أمريكي. ولكنّه فشل أمام جهد اللّوبي الصهيوني الذي أسقطه لأنه كان يريد أن يغيّر النظام الصدامي إلى كيان ديمقراطي، وأن يعمل على إسقاط النظم الخليجية العشائرية، وكذلك فصل المسار الإسرائيلي عن المسار الأمريكي في صناعة القرار.

وكان ينوي في حربه في 1991 أن يتمّم المشهد بإسقاط صدام والانتهاء من هذه المشكلة التي أصبحت عصيّة على العالم. ولكنّ وبمجرد أن ضغط عليه اللّوبي اليهودي في عدم الذهاب إلى خطته في ذلك، بيّت في داخل نفسه بأنه سيتمّها في رئاسته الثانية إذا لم يتمكن من أن ينجزها في الأولى. وهنا لعبت الصهيونية العالمية لعبتها الذكية في محاصرة الاقتصاد الأمريكي من خلال نقل الأموال والاستثمارات من السوق الأمريكي، وكذلك فعلت دول الخليج وحذت حذو الموقف الإسرائيلي ممّا سبب أزمة اقتصادية كبرى داخل أمريكا وهذا ما انعكس سلباً على توجّه الناخب إلى بوش الأب لانتخابه ثانية.

وعندما سئل بوش وهو في طريقه إلى الخسارة عن سبب ذلك لم يكن له أن يقول غير أن يشير إلى الأصابع اليهودية في القول بأنها الصحافة[1]، وهنا سقط بوش الأب سقوطاً ذريعاً بشكل لم يتوقعه

(1) كلمة (Media) في العرف الأمريكي هو خليط من صحافة ولوبي وتشويه، وغالباً ما =

الناس خصوصاً المواطن الأمريكي الأصل، ولم يتوقعه هو ذاته. وبفشله تأخّر مشروع العراق وتغيير صدام آنياً، وفشل مشروع فصل المسار الأمريكي عن المسار الإسرائيلي.

فجاء بعده كلينتون في عام 1993 ولم يفكر في أن يعمل ميدانياً كما عمل بوش الأب، فبقي لفترتين رئاسيتين، في الوقت الذي كان صدام يقوّي موقعه في دفع العمولات في (برنامج النفط مقابل الغذاء)(1) وفي شراء ذمم سياسيين كثر في العالم وخصوصاً في فرنسا، وكانت إسرائيل بالمقابل تبغي إلى مواصلة إطالة المدة التي تبقى العراق وصدام على ما هو عليه، هذا في الوقت الذي عانى الشعب العراقي الويلات الكبرى بسبب تعاون دول العالم الطامحة إلى المال مع النظام العراقي بشكل غير مباشر وهذا ما ساعد على إبقاء الأمر كما هو عليه بسبب الضغط الإسرائيلي الذي يريد أن يمنع وصول قطر عربي إلى

= يشار إليه من قريب ومن بعيد إلى اليهود باعتبارهم المسيطرين على الإعلام وعلى اللّوبي الأمريكي، في الوقت الذي ليس له قانونياً أن يقول أو أن يصرح بأنهم اليهود، لأنه سيطلب منه لو أراد اللّوبي اليهودي من أن يقاضيه أمام المحاكم، وعليه أن يقدم أدلته على ذلك. كما أن تهمة (معاداة السامية) حاضرة في جره إلى المحكمة وإلى التسقيط كما فعلوا مع (نكسون) في عام 1974 بعد تدبير فضيحة (ووتركيت) له، مع أن السبب الرئيسي هو أن اللّوبي الإسرائيلي تمكن من أن يلتقط حديث مع نائبه يشير فيه إلى بغضه لليهود وأنهم سبب مشاكل العالم، أنظر الموقع التالي حول الأشرطة:
http://www.dailymail.co.uk/news/article-1338217/New-tape-recordings-reveal-Richard-Nixons-racist-rants-resigning-Watergate-scandal.html

(1) قرار الأمم المتحدة، النفط مقابل الغذاء، تمكن العراق من الالتفاف عليه بصورة معينة، مع اشتراك أطراف عالمية معظمهم من الحكوميين الفرنسيين. ويمكن الاطلاع على كامل التقرير في الموقع التالي:
Counsel Foreign Relation AT: (www.cfr.org/iraq/iraq-oil-food-scandal/p7631).

واقع الأنظمة الديمقراطية، والقول بأن صدام خير رمز من رموز الإرهاب والعنجهية والبدوية العربية والإسلامية التي من خلالها يعطى الحق إلى إسرائيل من قبل دول العالم الأخرى في مواصلة سياستها واستعلائها وامتلاكها السلاح النووي في محيط الشرق الأوسط.

فصدام بالنسبة إلى إسرائيل يقدم فائدتين عظيمتين هما: منع وصول حكم ديمقراطي إلى العراق، والثانية هو تقديم نموذج سيء إلى الغرب عن واقع العرب والمسلمين، فالحفاظ على هكذا شخصية مهمة كما هي جهود المحافظة على شخصية الحكام العرب التي بذلت إسرائيل جهداً كبيراً في سبيل الحفاظ على مواقعهم في السلطة لهذه المدة الطويلة من الزمن في الوقت الذي تبدلت معظم أنظمة العالم الديكتاتوري خصوصاً ما بعد الستينيات من القرن الماضي.

وفي عام 1992، أرسلت إسرائيل فرقة إلى العراق في مهمة سمتها (نبتة العوسج) لاغتيال الرئيس العراقي كما جاء في تقارير (الموساد) الإسرائيلي والتي كان يشرف عليها (ايهود باراك) التي نشرتها صحيفة (يديعوت أحرونوت) في عددها الصادر في يوم 7 سبتمبر 2012، والتي نقلت معلومات لا تتوافق مع الأسلوب الإسرائيلي في عمليات الاغتيال التي تتبعها السياسة الإسرائيلية، كما أشارت أيضاً صحيفة (انديان اكسبريس) إلى مشروع من نوع آخر في الاغتيال من خلال إرسال ظرف بريدي، كما نشرت المخابرات الإسرائيلية بأنها أخطأت في التدريب وقتل على إثر ذلك أربعة من خمسة متخصصين كان عليهم أن يدخلوا العراق ويتم اغتيال صدام في ذلك العام في المقبرة التي سيدفن فيها خير الله طلفاح الذي كان يشارف على الموت، وهي تنتظر

موته لتنفيذ العملية. في عام 2002 كان من المفترض وصول (شاؤول موفاز) رئيس الأركان الإسرائيلي إلى واشنطن بعد أن بات من المؤكد بأن الأمريكيين جادون في اغتيال صدام، ولذلك فإن تنفيذ الخطة هذه لو تمّت فإنه من المتوقع أن يقوم صدام بضرب إسرائيل كما ضربها في عام 1991 بصواريخ سكود. ولكنّ الزيارة أرجئت بسبب زيارة الجنرال (زيني) إلى المنطقة[1]. ولكن لا الأمريكان قاموا بمحاولة عملية الاغتيال ولا الإسرائيليون، مع أن هنالك سرٌ كلاهما لا يريد أن يكشفه إلى الآخر، لأنّ المخابرات الأمريكية باتت لا تثق في مسيرة ربيبتها الصهيونية إسرائيل، لأنّ لكل حساباته في الموضوع العراقي.

فإسرائيل كانت ترى في أن الرئيس العراقي لم يعد له من وجود وأنه قد مات في مرض في حدود عام 1999 من جراء إصابته (Lymphoma) سرطان الغدد اللمفاوية، ولكنهم لم يعلنوا الخبر انتظاراً للوضع الدولي وكيفية التعامل مع الوضع الخطير المتدهور في العراق وفي المنطقة، ما لم يعلنه العراق رسمياً فعندئذ فإن لكل حادث من حديث.

كان الإسرائيليون مقتنعين من أن صدام قد مات، وذلك بعد أن تمكنوا من القيام بعملية إنزال عسكرية في مقبرة تكريت واستخلصوا من الجثة عيّنة لفحص الـ (DNA) وتأكدوا من أن صدام قد مات في الشهر السابع من ذلك العام، مع أن شبيهه ميخائيل رمضان كان قد أشار في كتابه بأنه ترك صدام وهو شبه مقعد بسبب المرض الذي منعه عن أداء

(1) جريدة الشرق الأوسط، عدد 8438 في 4 يناير 2002.

مهامه، وتحول إلى جثة بلا حراك، وهنا فإن المخابرات الإسرائيلية كانت تعتقد في أن سرّ موت صدام أمر مهم جداً لهم، وأن هذه المعلومة هي من المعلومات الخطيرة التي يمكن أن تغيّر المشهد تماماً، وأن توقف العمليات الحربية التي تنوي الولايات المتحدة القيام بها للتخلص من النظام.

أما الولايات المتحدة من جهتها فلم تتمكن من أن تمتلك الدلالة على موت صدام، لأنها لا تملك خارطة الـ (DNA) لصدام عندما كان حياً، ولا تمتلك العيّنة عندما مات. أما المخابرات الإسرائيلية فتمتلكها، وهذا هو الدليل القطعي على موت هذه الشخصية.

وقد حلّ محل صدام بعد موته بسرطان الغدد اللمفاوية الشبيه الشخصية الغريبة التي لا يعرف من هي ولا يعرف هويتها أو اسمها الحقيقي التي كانت نتتحل اسم (جاسم محمد علي أو العلي) والتي لم يعرف عنها لا قبلاً ولا فيما بعد مَن تكون هي..؟ والتي كان يذكر في الأوساط العراقية بأنها كانت شخصية مثقفة متزنة عارفة بما يجري في كواليس السياسة، وكانت تمتلك قدرات ذهنية كبيرة مختلفة عن بقية الأشباه الذين استعارهم صدام في الاستعاضة عنه في الاجتماعات الرسمية، وفي الظهور العلني، وفي لقاء الوفود، فصار هو الشخصية التي تحكم العراق من خلال المجموعة التي ذكرناها سلفاً (قيادة الظل) وهم الفئة التي لا يعرف عن هذا السر إلّا هم فقط، بينما يُقتل كلّ من يشك في أنه اكتشف اللغز أو توصل إليه من خلال البحث أو بطريق المصادفة.

لكن إسرائيل كانت تعلم يقيناً ما هو الأمر، وكانت تدرك بأن

العراق يمكن له أن يُحكم من خلال أشباه صدام، وكانت إيران تشارك إسرائيل في فكرة أن الأشباه لصدام هم من يحكمون العراق فيما بعد عام 1999، وأن صدام قد توفي بمرض السرطان، ولذلك فإنها أي إيران كانت غير مستعجلة للحل، وواثقة من أن صدام لم يعد له من وجود وهي ربما أيام معدودة وستنكشف الأسرار بطريقة أو بأخرى إلى الشعب العراقي، حيث كانت ترى بأنه لمن الصعب على العراقيين أن يعتقدوا بموت قائدهم، كما من الصعب عليهم أن يصدقوا بأن الشبيه هذا ليس صداماً[1].

فقد تبع جنود فرعون قائدهم وهو يحاول الّلحاق بموسى في عبوره النهر مع إيمانهم بأن فرعون سيغرق أو سيموت، فليس من العقل في أن يمتلك إنسان قدرة في السير على الماء، ولكنهم مع ذلك اتّبعوه وماتوا

(1) فالخوف يوحي للإنسان واقعاً ليس له من وجود، بل إنه يقلب الأمر إلى صورة مخالفة إذا اقتضى الظرف. فهو مرض نفسي يغيّر من شكل الإفرازات ومن حواس الناس إلى الطريقة التي يتبدل استلام الحواس أحيانا بالمقلوب، وأحيانا بإيعازات خاطئة تدفع الإنسان إلى رؤية الأشياء أو سماع الأشياء أو تحسس الأشياء بما هو مخالف لحقيقتها، فالموقف الذي يتطلب أن يبكي فيه الإنسان فإنه ربما يضحكه، والعكس صحيح. وكذلك حالات الألم التي تنتاب الإنسان من جراء إهدار شيء مهم في حياته مثل ألم الجسم، وألم انتهاك المبادئ، وألم الاستيلاء على ممتلكاته، كلها تتحول في جو الخوف إلى انعكاسات متبدلة أحياناً معاكسة للمبادئ التي تعلمها الإنسان في حياته، فيتحول القتل والاعتداء على الآخرين إلى حماية لذاته، وتصير ذاته التي أهدرتها عوامل الخوف والسلطان المتحكم بالشعب إلى تضحية مقدسة، وتتحول ممتلكات الإنسان عندما يسلبها السلطان إلى هبة منه إلى الدولة، وكذلك يتغير الشعور بالمبادئ سواء أكانت الأديان أم الفضائل إلى شيء نسبي يراه متناسباً مع الظرف. وهذا الشعور حتى وإن تمكن من نفس الإنسان، فإن المجتمع بطبقاته التي تسير نحو هاويتها تدع الفرد في التصديق بكل ما يمارسه القوي أو من بيده عامل الخوف.

في اليمّ، فلم يعبأوا في عملية الغرق، لأنهم كانوا ذوي إحساس متعلق بالخوف وليس بذات العقل، لأنّ الخوف غيّر من طريقة تفسير العقل إلى المحسوسات أو إلى الطبيعيات[1].

وكانت إسرائيل تتحين في أمريكا الفرص أن لا تمتلك كلّ مفاتيح التغيير في العراق، وأن لا تقع في حماقة التغيير الديمقراطي الذي تنشده، والتي جاهدت نفسها في العمل عليه في العراق، فهو البلد ربما الوحيد الذي يمتلك مقومات التغيير المستقبلي، كما أنه ليس بإمكان أية دولة في العالم أن تتدخل في إزالة رئيس ما، خصوصاً ما بعد الحرب الباردة التي انتهت في عام 1996 والتي أوقفت كلّ مخاطرات الدول في التفكير بإزالة الأنظمة المعادية.

فبقاء النظام العراقي ليس هو ما يقلق إسرائيل، وإنما إزالته مخاطرة كبرى تنعكس سلبياتها لا بسبب التغيير وإنما بسبب القادم الديمقراطي الجديد المقترح لوراثة هذا القطر. وهذا ما أعبّر عنه بما تراه إسرائيل بالخطر، هذا إذا أخذنا بنظر الاعتبار بأن العراق هي الدولة التي تقع إلى جانب إيران، تلك الدولة التي تحولت خلال الحقبة الأخيرة من تلك الفترة إلى شيء مرعب غيّر من معادلات العلاقات الدولية، وانعكست سلبياً على العراق.

إنه لمن الصعوبة تفهم الاستحقاق الذي لحق بالعراقيين الذين ولدوا في محيط فوجدوا آباءهم ينتمون إلى المذهب الشيعي، وهم

(1) The Mass Psychology of Fascism. Wilhelm Reich, Orgone Institute Press. New York 1946. Find it on: http://www.relatedness.org/Mass_Psychology_of_Fas cism.pdf.

بالسليقة صاروا شيعة، كما السنة والمسيحيون واليهود. وهذا ما خلق لهم واقعاً كان عليهم أن يكونوا ضحايا خيار السماء في أن يولدوا في هذه الأرض وأن يدفعوا استحقاقات هذا الجوار، وثمن الانتماء إلى الفكرة الشيعية.

فقد وقفت ضدهم ربما كلّ دول العالم من شرقيّها وغربيّها ومنذ الحرب العالمية الثانية، أو ربما منذ أن صار لهم كيان أو وجود في العراق منذ زمن طويل، فكان عليهم أن يكونوا الخاصرة الضعيفة في المنطقة وفي العراق بعد أن مورس معهم شتى أنواع التهميش والتشريد ليس في العراق فحسب، وإنما في المحيط العربي كله.

فالرحلة الإسرائيلية المحتملة في ذلك التأريخ بقيادة (موفاز) إلى واشنطن كانت لتسوية أمر ضربة صدام، وهذا يعني منع أمريكا من ضرب البديل أو الشبيه وهو جاسم العلي، فلو تمّ ذلك فإن الأمر سيتحول إلى حقيقة صعبة التعويض، فالمنطق الإسرائيلي كان يقول بالتالي: بموت شخصية صدام (البديلة) قد ينتفض الشيعة أو القوى المعادية للحكم في العراق بمجرد سماعهم لنبأ الموت، فهم ينتظرون الحادث هذا بفارغ الصبر ومنذ عام 1968 وإلى الآن ولهم معه ثارات عميقة مع صدام وحكمه، فقد أوغل فيهم قتلاً وذبحاً وتشريداً في الوقت الذي يستعد أكثر من نصف مليون مجند من قوات (بدر) والمليشيات العراقية القابعة على الحدود الإيرانية في الدخول إلى العراق لإنهاء المهمة، مهمة تغيير النظام بمجرد ظهور إشارة أو لمحة إلى أن صدام قتل أو مات، ولو كان العراقيون على علم بهذا الموضوع، منذ عام 1999 أعني العراقيين عموماً أو المعارضة لتغيرت

الموازين بشكل درامي، ولما نشبت الحرب في عام 2003، ولكان هنالك أكثر من حل لمسألة العراق.

ولكنّ إسرائيل ربما تملك الوثيقة الوحيدة على موت الرئيس العراقي الأصلي والتي أسرّتها إلى شخصية عراقية[1] فالشبيه جاسم العلي هو نسخة طبق الأصل لا يمكن التفريق بينه وبين صدام، وحتى أقرب المقربين ممّن عرف صدام كان يعاني من صعوبة في معرفة أيهما الحقيقي وأيهما الشبيه، ولكنّ البطانة التي كانت تعلم علم اليقين بأنه ليس صداماً، وأن الشبيه هو الذي يمثل الدور المناط به، فإنهم تصرفوا مع جاسم وكأنه صدام بكل ما في الكلمة من معنى، كما هي قصة الملوك العباسيين الذين كانوا يعينون في مناصبهم من قبل الحاشية الأتراك كمظهر ليس إلّا، لكي يعطيهم شرعية الخليفة أو شرعية استمرار الحكم[2]، أي بمعنى آخر كان منصب الخليفة شكلي ليس له

---

(1) لم يعرف بالضبط اسم هذه الشخصية من تلك التي كانت من ضمن المجموعة التي كانت تدير النظام ما بعد عام 1999 وربما أحتمل أن يكون طارق عزيز أو طه رمضان وأخبرته بأن إسرائيل على علم بأن الرجل قد مات، ولكنّ تلك الشخصية اعتبرت هذا الكلام من قبيل التكهنات التي تسربها المخابرات الإسرائيلية حيث تنتظر رد الفعل والذي على أساسه يتم تحديد الموقف، وقد أجاب الشخصية العراقية التي أسرّها هو إلى زميله قائلاً: بأنه لو كانت المخابرات الإسرائيلية على علم بالأمر لكان من الأولى أن تكون أمريكا قد علمت بالأمر مسبقاً، ولذلك اعتبر ذلك السياسي بأن هذا القول منطلقاً من تكهنات. ويُعتقد بأن الشخصية التي كانت على علم بذلك أيضاً هو نزار حمدون عندما أخبرته المخابرات الإسرائيلية بذلك.

(2) قائدَ الأتراك العام (إيتاخ)، الذي ربَّى المتوكل في بيته فكان يناديه: يا أبي إلى أن قتلوه، وأمسكوا بالخلافة، فكانوا ينصّبون الخليفة ويعزلونه، حتى قتلوا أربعة خلفاء في سبع =

من تأثير في الدولة، وإنما كانت تدار الأمور من قبل البطانة التي تشبه لحد كبير بطانة صدام في تعاملها مع الشبيه، فالفرق في الأمر هو أن الشبيه في الزمن الماضي كان هو ذات الخليفة، بينما الآن هو شخص معين له ذات الصفات التي يملكها صدام.

فالعرب عموماً وفي تأريخ تعاملهم مع الخليفة أو الرئيس، فإنهم لا يخطئون في النظر إليه بنفس حماسة العلاقة مع الآلهة مع الاختلاف في التشبيه، وفي طبيعة النظرة وموقعها فيما يتعلق بالعلاقة والطاعة، فهو ليس بأقل من ذلك من الخوف والتمجيد[1].

فقد كان العراقيون يقولون بأن للحائط آذان، فكان لا يجرؤ مواطن

= سنين: وكانت الطريقة المفضلة لقتل الخليفة أن يعصروا خصيتيه حتى يموت! المنتصر (247- 248) والمستعين «248-252» والمعتز «252-255» والمهتدي «255-256»، ثم جاؤوا بالمعتمد، فحكمَ طويلاً «256- 279». وترى ذات الأمر مع خلفاء بني أمية وكذلك مع العثمانيين حيث كانت الإنكشارية (أي الجيش) هي الذي تقود عملية التغيير والاستبدال.

(1) فقد مجدت العرب كلّ الخلفاء الذين توالوا على حكمهم إلى الدرجة التي نزهتهم عن الخطأ، مع أنهم كانوا من أعتى ما شهده تأريخ البشرية من قسوة في التعامل مع الشعوب. بل إن الخليفة الذين يفتخر به العرب هم السفاحون والجلادون، بل يذهب البعض في أن الحاكم يجب أن يملك هذه الروح من القسوة، وإلّا فإنه ليس له من قدرة على الإمساك بزمام الحكم، وبتصفح لتأريخ العرب تجد أن السفاحين في التأريخ هم من ينصب لهم التماثيل وتسمى المدن بأسمائهم وتمتلئ كتب التأريخ بمآثرهم وتدرّس في المدارس، ثم توضع حول شخصياتهم هالات التقديس وتستعار من أجل رفعتهم أحاديث وألقاب كثيرة من هنا وهناك تمنع الشعب من أن ينتقد الحاكم أو ينظر إلى عيوبه. في ذات الوقت يعيش الشعب في خوف دائم ومستمر من انتقاد الخليفة الذي يقيم أسس حكمه على جماجم ذلك الشعب، وكلما أوغل الحاكم في القتل، كلما ازداد الخوف منه، واستكان الشعب لتوجيهاته.

على ذكر صدام حتى في خلوته[1] ومع نفسه حتى كان الشعب يقول بأنه ما له وما للحاكم فليس له أن يتدخل، ولا أن يناقش فيمن يحكم أو كيف يحكم أو كيف يصل إلى الحكم فهذا ليس من شأنه، وكان يحدّث نفسه بأنه حتى لو لم يكن صدام عادلاً فإنه ليس له إلا الطاعة حقناً لدمه ودم عائلته، فلم يكن له من القدرة على مقاومة النظام سواء أكان صدام على رأس الحكم أو شبيهه أو من ينوب عنه. ولذلك كانت الأرضية مهيأة جداً إلى إبقاء سر موت صدام خلال الأعوام التي تلت عام 1999 إلى حين تتغير الظروف بصورة طبيعية يتريّض عندها المجتمع العراقي ويتغير ويأتي جيل جديد بعد أن أكلت ماكنة الحرب والمرض والاغتيالات والأزمات النفسية، الجيل الأول من العراقيين، فقد ذكرت التقارير بأن معدل عمر العراقي قد قلّ بشكل كبير خلال فترة الحروب والحصار[2] كما أن صدام كان يمتلك من الذكاء ما مكّنه في أن يثير الرعب في كلّ الطبقات الاجتماعية وحتى الذين في الخارج فقد حاربهم من خلال أقاربهم إلى الدرجة الرابعة، وحتى أصدقائهم، كما استعمل جانب المرأة، كعنصر ضغط على كلّ من يفكر في أن يخرج عن الإطار الذي رسمته له الدولة، وكلنا يعرف ما للمرأة من تأثير على مجمل نفسية الإنسان الشرقي العراقي الملتزم.

(1) أصدر صدام قانوناً يعاقب بالإعدام من يمس القائد بكلمات نابية.

(2) معدل عمر الشخص العراقي هو 68 سنة ويعتبر العراق في الدرجة 115 من بين الدول العالم في نسبة الأعمار. أمّا أقل عمر في العالم فهو في الكونغو التي تحتل الرقم 194 والمعدل هو 47 سنة، بينما أعلى عمر فهو في استراليا بعمر 80 سنة:
http://www.nationmaster.com/country-info/stats/Health/Life-expectancy/Men.

ولم يكن في هذا المورد من سبب في إعلان وفاة صدام من قبل البطانة (قيادة الظل) التي بدأت تدير أمر الدولة، بل إنها جعلته أمراً لا يمكن حتى التفكير به في تلك الأوقات، عندما كيّف كلّ من أعضاء تلك القيادة نفسه في أن يتماشى مع الحدث الجديد وكأنه حقيقة، أو أن الله قد بثّ روح صدام الحقيقي في شخصية جاسم العلي أو شبيهه في الوقت الذي بدأ الكثير منهم يعتقد صدقاً بأن الله قد أراد لهذا الرجل (صدام) أن تحل روحه في جسد هذا (الشبيه)، وكان جاسم يتصرف بشكل ذكي إلى الدرجة التي فاق بها ذكاء أستاذه صدام، فهو مثقف كما ذكرت ودارس لكتب التأريخ وله مساهمات فاقت أقران المجموعة التي تدير أمور البلد[1].

أما مدراء الشركة إن صح التعبير فهما عدي وقصي، مع أن الإدارة في التنفيذ لم تكن بيديهما بصورة كاملة، بل كانت بيد المجموعة التي لا يمكن التفريط بأي منهم (قيادة الظل).

واحتمالات محاولة قتل صدام (أي الشبيه جاسم) هو ما أرادت إسرائيل الوصول إليه من خلال منع أمريكا من الاستمرار في محاولاتها، مع الميل إلى عدم ذكر الأسباب، أو أن صداماً تحول إلى تأريخ، وأنه الآن تحت التراب.

---

(1) كتب الشبيه أو صدام ذاته في عام 2003 رواية في هذا المعنى، معنى حلول روح شيطان في جسد شخص آخر سماه (أخرج منها يا ملعون) ووضع في أعلاها أسم المؤلف (رواية لكاتبها)، مغزى الرواية هو أن الشر والخير عبارة عن حلول في جسد الإنسان، وهي الفكرة التي أراد صدام (الشبيه باعتبار أن صدام قد مات قبل ذلك التأريخ) أن ينقلها إلى قيادة الظل في أن فكرة حلول شخصية صدام الأصلي (الخيّرة) قد حلت في جسد الشبيه جاسم العلي. أنظر الرواية ذاتها بدون سنة ومكان الطبع.

وعندما فاتحت إسرائيل أمريكا بأنها لا ترى من مبرر لقتل الرئيس العراقي، استغربت أمريكا الموقف الإسرائيلي الذي اعتقدت بدايةً بأنه نوع من التنافس السياسي الذي غالباً ما تقوم به إسرائيل لسبب أو لآخر، والتي لا تقدم مبرراته ولا تدعمه بالحجج. وكانت الحجة الكبرى التي تذرعت بها إسرائيل في إقناع أمريكا في العدول عن التوجه إلى قتل الشبيه هي معزوفة الخشية من إيران والشيعة.

كانت خطوة الانكفاء الإسرائيلي عن اغتيال صدام من خلال الأخذ بيد أمريكا عن التنفيذ بدايةً لأمريكا في أن تفكر في الأسباب التي كانت وراء الرفض الإسرائيلي، وكانت المخابرات الأمريكية قد عملت بجد واجتهاد في تفسير الحدث، وكان من جملة من استعانت بهم في ذلك هم الحلفاء القريبون، وهم الأكراد الذين يمتلكون أكثر من باع في تفسير الحدث مع شكوك كانت قائمة في تفكير الأمريكان بأن التقارير التي أعلنها الأطباء الفرنسيون بأن صداماً في طريقه إلى الموت بسب سرطان الغدد اللمفاوية ليس بذي جدوى، أو أنها تقارير مخابراتية، فقد كانت تلك التقارير قد أكدت استشراء السرطان في جسم صدام منذ فترة ليست بالقصيرة.

جاء الرد الكردي (غريباً) بأن المعلومات المتوفرة لديهم ليست مؤكدة، وأن صدام لازال يحكم وأنه مريض، ولكنّ ليس بتلك الدرجة من المرض العضال الذي يمنعه من مواصلة عمله في الرئاسة. ويبدو أن الأكراد (القيادتان) كانوا على علم بموت صدام ولكن مصلحتهم كانت قد التقت مع المصلحة الإيرانية والإسرائيلية في مقولة: عراق ضعيف أفضل من عراق ديمقراطي.

ولكن السؤال المطروح هو: هل كانت أمريكا على علم بكل ما تفعله إسرائيل من أن صدام ليس على قيد الحياة، وأن كلّ ما يقوم النظام به كان يجري من خلال الشخصية البديلة التي حلت روحها فيه وهو جاسم العلي. . . ؟.

وكان ينتاب أمريكا أمران: أحدهما هو عدم تقدير الأمر من خلال العقلية المعقدة العربية إلّا ضمن النسق المتعارف عليه في عالم السياسة الدولية التي يجب أن تمتلك مصاديق على الأرض. فموضوع أن يحل رجل محل رجل بهذه الصورة من الإخراج ومن السرية في زمن العولمة وتناقل المعلومات أمر لم يسبق له أن قام به رئيس أو شخصية مهمة، وفي منطقة ساخنة مثل العراق. فهذا الأمر هو من الأمور التي يصعب على المرء تصديقها أو قبولها، خصوصاً العقلية الغربية الأمريكية التي تبتعد كثيراً عن عالم الخيالات والمؤامرات المدبلجة المعقدة التي تمارسها بعض الشعوب، وخصوصاً الشعوب التي تؤمن بالسحر وبتدخل عالم الغيب في مسيرة السياسة[1]. وأقول ربما لأنّ أمريكا لا

(1) كان صدام ذاته يؤمن بأعمال السحر وتنبؤات العرّافين، وكان كذلك (البكر) الرئيس العراقي السابق، ويبدو أن أعمال الإيمان بالسحر أمر متعارف عليه في المجتمعات البدوية، إذ أن البدوي غالباً ما يعيش في الصحراء بمفرده مصاحباً لتغيرات وحركة النجوم وتحفزه لهجوم الوحوش على قطعانه، وهذا ما يدفعه إلى التعلق بقوى الغيب وقوى السحر وما إلى ذلك. فالمجتمع البدوي العراقي هو من المجتمعات التي تسود فيها قصص الخيال والسحر وصور القوى الخارقة للطبيعة، وللشعر العربي في كلّ مراحله من وقفة على هذا النوع من الاعتقاد والذي يعتبر من أساسيات الخيال العربي وفي تخطيط حياته. ويقال بأن الرئيس العراقي صدام كان على صلة ببعض العرّافين وقارئي المستقبل الذين يزخر بهم العراق، وهنالك أسماء معروفة كان الرئيس العراقي قد استخدمهم في كشف المستقبل بعد أن وفّر لهم في قصوره مكاناً خاصاً لهم.

زالت تعيش عقلية مادية لا ترى من مبرر في أن يستعمل صدام أسلوب التخفي بالشكل الغريب المعقد الذي لا يمكن أن يتقبله عقل الإنسان بالسهولة التي يمكن تقبل أساليب مخابراتية أخرى.

فتبديل الشخصيات في حياة رئيس الدولة له أكثر من تبعات سلبية على مسيرة القطر. أخطرها هو فقدان الثقة بالدولة وبنظامها السياسي والاقتصادي، وفقدان الثقة يعني أن العلاقات الدولية ستكون على المحك، وسيعزل القطر عن العالم وعن جوانب العمل الذي تتطلبه الدولة في علاقاتها مع جيرانها أو مع الآخرين. مع أن المخابرات الأمريكية كانت على علم بأن (ميخائيل رمضان) الذي نقلته إلى واشنطن قد قدّم تقريراً شاملاً إليها في هذا الخصوص، ولكنّ أمريكا لم تثق به ولم تر من مبرر للتصديق بما رواه، بل اعتبرته بأنه شخصية مريضة نفسياً (وهذا واقع)[1] وقد أباح بتلك القصة من أجل أن يبعد

(1) كلّ الشخصيات البديلة سواء أكانت لصدام أم لغيره كانت تصاب بأمراض نفسية معقدة بسبب أن القدرة العقلية للإنسان تعيش صراع مستمر ما بين المنهجين للشخصيتين اللتين تعيشان في داخله، شخصيته الذاتية وشخصية المتلبس بها. هذا الصراع المستمر القاسي غالباً ما ينتج عنه انفصام في قدرة العقل على تحمل هذا الألم الذي يتحول وبمرور الوقت إلى ضغط هائل يؤدي بالإنسان إلى الانهيار أو المرض النفسي المعقد. وهذا كما ذكرنا لا ينطبق فقط على هذا النوع من العمل، بل تجد الشيء ذاته بما تحمله من أعراض في القتلة الذين يحاولون إخفاء شخصيتهم الحقيقية لمدد زمنية إلى الدرجة التي تنكسر قدرات التحمل ويسقط الإنسان في مرض نفسي أو غياب عن تفهم العالم الذي حوله. فقد أجريت مقابلة مع شخصية طارق عزيز بثتها العربية في نهاية عام 2012 ظهر فيها هذا الرجل الذي وكأنه فاقد للذاكرة أو فاقد لمستوى قدرات شخصيته الأصلية التي عرف فيها والتي كانت تتميز بنوع من القيادية ومن المعرفة وإذا به قد تحول إلى شخصية لا تدري أين هي ولماذا هي هنا، كما لم يتمكن عزيز من معرفة الكثير من =

بعض الشبهات عنه، كما ترى بأنه استغل موضوع التشبه بصدام كحادثة مثيرة لجلب الأنظار وحاول الاستفادة من ذلك في سبيل الحصول على مساعدة من أمريكا في طلب اللجوء أو في غيرها.

وكان ميخائيل رمضان شخصية غير متزنة، وهذا لم يكن في البداية، كما ينقل عنه العارفون بشخصيته ودواخلها، وإنما كان ذو شخصية هادئة تفكر بما يفكر به الشخص الطبيعي في الوصول إلى غاياته، ولكنّه وبعد أن عمل في القصر كشخصية شبيهة لصدام تمّ تعريضه إلى الكثير من التغييرات النفسية التي كان يتطلبها الموقف، وكانت تلك التغييرات مخالفة في معظمها إلى تفكيره، مع أنه استسلم لها خوفا أو طمعاً، ولكنّه كان وبعد كلّ عملية تغيير في نفسيته يتحول إلى نوع من الشخصية أضعف ممّا كان قبلاً، بل كان عامل الإحباط النفسي ملازماً له بشكل كبير إلى الدرجة التي كان يبحث أن يخرج إلى موقف من المواقف التي يمثل فيها الرئيس لكي يعيد له الثقة بنفسه، وقد عانى مدربه (محمد الجنابي) خلال فترة العمل معه من التغيير الكبير في شخصيته وفي استقرارها ممّا سرّب خبر إلى صدام بأنه لم يعد له القدرة في السيطرة على تصرفات ميخائيل بسبب ذلك التغيير في سلوكياته وشخصيته وانهياره في الكثير من أيام التدريب، وعندما عرض على طبيب نفسي أجنبي كان الجواب واضح وهو أن ميخائيل رمضان مصاب بنوع حاد من أمراض انفصام الشخصية وإنه من الصعوبة له أن

= بديهيات المعلومات. . . انظر الموقع:
http://www.youtube.com/watch?v=Eaq7EUyzd9o.

يقوم بتنفيذ أي عمل مهم ولذلك فإن على القصر أن يستغني عنه لفترة إلى حين شفائه.

وهنا وفي عام 1993 أعطيت إلى ميخائيل رمضان إجازة طويلة للاستشفاء في الداخل ولم يسمح له من مغادرة العراق أو بيته الفاخر في القصر إلّا بعد أن يتماثل إلى الشفاء حسب تقارير الأطباء، كان رأي صدام هو التخلص من ميخائيل رمضان وقتله بطريقة خاصة، وهو تسليمه إلى المعارضة بطريقة معينة ثم استنقاذه بطريقة أخرى ثم قتله ثالثة. وفعلاً خطط لهذه العملية جهاز صدام الخاص ونفذه ابناه فوقع في الأسر ثم تمّ إنقاذه إلى أن جيء به ثانية إلى العراق ولكنّه تمكن أخيراً أن يهرب إلى أمريكا بطريقته الخاصة فجنّ جنون صدام ووجد بأن الأمن العراقي مخترق، وعلى أثر هذه الحادثة أعدم الكثير ممّن كان على علم بالموضوع[1].

وهكذا لم تر أمريكا مصداقية في أقوال ميخائيل، وخصوصاً أن الكتاب الذي كتبه لم يكن موفّقاً في الطّرح، ولم يقدم الكثير ممّا كان يدلّ على أن ميخائيل مطّلع على تفاصيل حياة صدام أو مواقفه السياسية أو غيرها من الأمور، مع أن الحقيقة هي أن ميخائيل تحول إلى شبح إنسان وليس له من إرادة في كلّ شيء في الحياة، ولذلك لم تهتم به المخابرات ولم تستمع له، بل أعتبره الكثير من المسؤولين الأمريكان بأنه مجنون أو ما شابه.

هذا من جانب، أمّا من الجانب الآخر فإن الجهاز المخابراتي

(1) المصدر السابق، شبيه صدام، ميخائيل رمضان.

الأمريكي لا يتعامل مع الأحداث إلا من خلال دلائل أو وثائق، ولم يكن آنذاك أي وثيقة بيدهم في إثبات موت صدام، فمعناه أنه حي، فعليها أن تتخلص منه لأنه أصبح في عرف العالم شخصية غير مرغوب بها، ومقتله سوف لا يثير أي ردود فعل لا عربية وعالمية ولا داخلية، بل أنه سيغير من وجهة الحرب.

لم تتوقف قوات الكوماندوس الإسرائيلية عن المضي في مخططهم القاضي بالتدخل في حالة تغير الظرف العراقي، مع أنهم قالوا بعد ذلك بأن الفرقة المسماة (نبتة العوسج) كانت فرقة مهمتها اغتيال صدام، وأنهم تدربوا عليها لمدة طويلة وذلك بعد أن يموت خاله خير الله ويحضر هو جنازته، ولكنّ كلّ ذلك من باب ذر الرماد في العيون، فالإسرائيليون أذكياء جداً في العمل المخابراتي مع أنهم أخفقوا في مرات كثيرة وفشلوا وظهر فشلهم الذي برّروه (بالتكتيك) غير المحسوب له كما هي عملية اغتيال زعيم حماس مشعل في الأردن سنة 1997، فلم يتمكنوا منه، وبعدها حدثت أزمة كبرى بين الأردن (البريء) وبين المخابرات الإسرائيلية والتي انتهت بأن أعطي المصل الخاص لإنقاذ حياته ثم إطلاق سراح الشيخ (أحمد ياسين) الزعيم الروحي لحماس وانتهت القصة. كذلك عملية اغتيال المبحوح في دبي عام 2010، وعمليات أخرى في أنحاء العالم كانت فيه المخابرات الإسرائيلية محل انتقاد كلّ قادة العالم بسبب الوحشية الكبرى التي استعملوها وتعاملهم مع القانون الدولي[1].

(1) قتلت إسرائيل علماء ذرة مصريين مثل د. يحيي المشد عام 1980 (المتعاون مع العراق) ود. سميرة موسى، وسمير نجيب، واختفي نبيل القليني عام 1975 في ظروف =

وفي علمية اغتيال صدام لم تكن إسرائيل بالتأكيد جادة في ذلك، فإسرائيل لم تفكر وليس بإمكانها اغتيال رئيس عربي كما هو التفكير باغتيال رئيس وزراء إسرائيل مثلاً، فهذا الأمر يعتبر من الخطوط الحمراء التي لا يمكن الإقدام عليها مهما تأزّمت الأمور ما بين الدولتين. . . . .

إذن ما هي الخطة الأصلية للمخابرات الإسرائيلية وما سبب الإعلان عنها في جريدة (يديعوت أحرنوت). . . ؟ كانت الفكرة هي اختطاف أشخاص كانوا على علم ببرنامج العراق النووي، وكذلك بعض القادة العسكريين الذين لهم معرفة ببرنامج الأسلحة الكيماوية، إذ أن العراق يُعتبر من البلدان التي تملك خزيناً ضخماً من هذا النوع من السلاح، ولكنهم بعد أن وجدوا أن فرق الأمم المتحدة جادة في انتزاع أسلحة الدمار الشامل من العراق أبقت الفرقة الخاصة على وضعها مع تدريبات تقنية إلى أن حدث انفجار مركز التجارة العالمي في عام 1993 فتوجّهت إسرائيل لرسم عملية اختطاف (سعيد السامرائي) أو (عبد الرحمن ياسين) الذي تسميه المخابرات العراقية (عبود) والذي اشترك في تفجير مركز التجارة العالمي في عام 1993 مع (رمزي يوسف) و(محمد سلامة) وهو الذي يحمل جواز سفر

= غامضة، ثم نبيل أحمد فليفل أصغر عالم ذرة، وعلي مصطفي عثر عليه مسموماً في عام 1950، من إيران اغتالت إسرائيل علماء الذرّة الإيرانيين: د. مسعود علي محمدي، د. ري، وادريوش رضائي نجاد، ومصطفى أحمدي روشن. (نقلا عن الأهرام المسائي 19 فبراير 2013). الثلاثاء: 19/ فبراير/ 2013.

أمريكي من خلال عملاء للموساد من داخل العراق[1] وهي الشخصية الأكثر أهمية باعتباره على صلة بشخصية إسرائيلية كان لها ضلع ما بالقاعدة وبحادثة الهجوم في ذلك العام.

وكانت السلطات الأمريكية قد أفرجت عنه بعد أن اطّلعت على بلاهته وضعف قدراته، ولذلك فإنها عرفت بأنه إذا ذهب إلى العراق فإن المخابرات العراقية ستجنده ثانية ضد أمريكا، وانه سيعود ثانية محملاً بالألغاز والمعلومات التي تبحث عنها أمريكا فيما يتعلق بعلاقة أمريكا بالقاعدة وواقع النظام المخابراتي العراقي.

هذا الشخص (عبود) بالحقيقة هو مَن جنّدته المخابرات الإسرائيلية للعمل مع (رمزي) وهي ما فتئت تبحث عنه حراً طليقاً لا في مراكز الاعتقال أو لدى السلطات الأمريكية. ولكنّ العراق بدلاً من أن يستفيد منه ألقاه في السجن، وقد ألحّت المخابرات العراقية على أمريكا لاستلامه منها ضمن بروتوكول تبادل الإرهابيين. ولكن أمريكا كانت تعتقد بأنه شخص تافه ولذلك لم تشغل نفسها به، وإنما كانت على ثقة بأنه سيصل بدون ثمن إليها (Free).

وهنا كانت المخابرات الإسرائيلية قد شكلت فرقة خاصة التي ذكرناها في بداية المقال والتي كانت مهامتها التعامل مع أزمات العراق. وفي أثناء التدريب انفجر صاروخ في يوم 5 نوفمبر من عام 1992، وقتل أربعة متخصصين من مخابرات الفرقة تلك. لم تتوقف هذه الخلية بمقتل أعضائها الأربعة، وإنما تغيّرت من حالة إلى حالة

(1) جريدة الشرق الأوسط الثلاثاء يونيو 2002 العدد 8589.

أخرى بإدخال عناصر جديدة مع تخطيط جديد خصوصاً بعد أن تمّ تفجير مركز التجارة العالمية في العام الذي يليه 1993. وكانت من أولى مهمات تلك الفرقة ليست اغتيال الرئيس العراقي، وإنما اختطاف (عبود) إلى إسرائيل ليس إلّا. ولكنها لم تفعل لأسباب غير معروفة، وظلت تراوح في المكان وتنتظر الفرصة فيما لو جازفت المخابرات الأمريكية في الذهاب إلى قتل صدام.

فالمخابرات العالمية في كلّ أقطار العالم عندما تنوي تنفيذ مهمة كبرى فإنها تحاول تغطيتها من خلال إظهار مهمتها نحو قضية تبدو طبيعية، فالطبيعي في الفرقة تلك هي اغتيال الرئيس العراقي، وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان في أهميته لإسرائيل، ولا يثير أي استفسار عن أحقيته، ولكنّ من غير الطبيعي هو اختطاف شخصية (عبود) الذي يُعتقد بأن المخابرات الإسرائيلية كانت قد جنّدته ليكون العين على عملية تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك. (عبود) هذا لم يُعرف عنه ما بعد إبريل 2003 أين انتهى به الأمر، وقد اختفت آثاره كلياً من العراق[1].

(1) بعض المعلومات عن الموضوع في مقابلة مع سالم الجميلي رئيس شعبة أمريكا في المخابرات العراقية سابقاً مع صوت روسيا:
http://arabic.rt.com/prg/telecast/658078.

الموقف الجديد

- مات صدام في عام 1999 بمرض السرطان، ودفن في مركز مدينة تكريت في المقبرة الجديدة التي بدأ الدفن فيها منذ سنة 1960م، أبو صدام حسين المجيد مات في عام 1937م حيث كان الطفل في بطن أمه لذا فإن مقبرة أبو صدام حسين المجيد لا يمكن أن تكون في هذه المقبرة الموجودة حالياً في مركز تكريت حيث كتبوا عليها قبر حسين المجيد و شيدوا قبره مجدداً سنة 1999م. بل أن الصحيح هو أن صدام دفن في هذا التأريخ في هذه المقبرة والتي من خلال ذلك تمكنت إسرائيل في الأسبوع الأول، ويبدو أنه كان في الشهر السابع من ذلك العام من انتزاع عيّنة من جسده لتحديد شكل الحامض النووي (DNA). أما قبر أبو صدام فيجب ان يكون في العوجة (12 كم) عن تكريت وأن صدام البديل المعدوم نهاية 2006 مدفون في العوجة أيضاً، وصدام الحقيقي الذي دفن في سنة 1999 في المقبرة في مركز تكريت قد كتبوا عليها أسم أبيه للتمويه. وبموت صدام تم عزل أقرب الشخصيات إليه مع اعتقاد المعارضة بأن صدام قد تنازل عن السلطة إلى ولديه قصي وعدي وليس موته. فمن الأسماء التي أزيحت في تلك الفترة شنان آل رباط رئيس أركان الجيش، رافع التكريتي وكذلك حميد شعبان. كذلك قرينة أخرى هي إعادة (سميرة الشابندر)

زوجة صدام العلنية الثانية إلى زوجها الأول (نور الدين صافي حمادي) مدير الخطوط الجوية العراقية الأسبق، وهو أمر من المستحيل أن تتم في المحيط العشائري خصوصا زوجة رئيس العراق التي تحرم مس الزوجة حتى بعد الموت مع إبقاء ابنها علي تحت رحمة عدي وقصي فيما لو فكرت في كشف السر.).

- حلّ جاسم العلي رئيساً فعليّاً للعراق بشكل غير معلن مع إبقاء السر في صدور عدد محدد جداً من قيادة الظل[1].
- أمريكا تحاول اغتيال الشخص مهما يكن هو جاسم العلي، أو صدام أيهما تصله يدها فهو المطلوب لتقديمه أمام صحافة العالم والتي على أساسه سينهار النظام كلياً.
- إسرائيل، ليس من مصلحتها اغتيال الشبيه لأنّ ذلك يعني سقوط النظام، وتولي حكومة شيعية أو موالية لإيران (البديل الوحيد الأقوى) وإن ما تريده هو إبقاء الأمر إلى أن تنجلي الغُبرة.
- إيران كانت تعلم بموت صدام، ولكنها لا تريد أن يتغير نظام محكوم عليه بالفناء أمام معارضة مهلهلة لا تتمكن من أن تدير قطراً مهماً مثل العراق، وهذا ما سوف ينعكس بالتالي على إيران

(1) في عام 1249 م مات ملك مصر المملوكي الصالح أيوب في الوقت الذي كانت مصر تحارب الصليبيين الذين وصلوا إلى المنصورة، فما كان من زوجته (شجرة الدير) إلا أن كتمت وفاته وعينت ابنه طوران شاه ملكاً مع الاتفاق مع أعضاء قيادتها وتابعوا الحرب فألحقوا الهزيمة بالصليبيين بعد قتل وأسر عدد كبير منهم، وكان من بين أسراهم قائد الحملة نفسه لويس التاسع الذي لم يسرح إلا بفدية كبيرة مع الالتزام بألا يعود إلى مثلها في قادم الأيام.

بعد أن تسرح المخابرات الإسرائيلية والأمريكية فيه شمالاً وجنوباً. في ذات الوقت فإن إبقاء الوضع على ما هو عليه في ضعف وانكفاء صدام أو العراق هو أمر رئيسي في سياسة إيران إلى أن تتمكن من بناء قاعدة وقوة صلبة تتمكن بها من أن تجد بديلاً ندّيّاً للنظام الصدامي، لذلك فمن مصلحتها أن لا تدخل أمريكا العراق من خلال الحرب. وعليه فقد بقي موضوع سر موت صدام أمراً خاصاً بإيران، هي فقط تلعب بورقته إلى الحين الذي تأتي الفرصة المناسبة لتغيير النظام بالطريقة التي تراها مناسبة بدون الحاجة إلى التدخل الأمريكي.

- السعودية... قتلتها وأعمت عينيها أحقاد الطائفية القديمة، فكأنها تعيش خارج عالم التاريخ، وهي تريد لصدام البقاء في سبيل أن لا يأتي الشيعة إلى الحكم.
- تركيا... لا يهمها الواقع الداخلي ولايهمها من يأتي، بقدر اهتمامها بالواقع الاقتصادي للعراق.
- الكويت.... تريد رأس صدام بأي ثمن وبلا حساب.
- الأردن... تريد عراق أزمات، سواء أكان صاحب الأزمة صدام، أم شبيهه مع تحفظ كبير على وصول الشيعة إلى الحكم.
- سوريا... كما هي السعودية في عماوة عينيها فقد أعمى بصرها وبصيرتها الخوف من أمريكا فيما لو تمّ الدخول إلى العراق. فهي مع صدام ولكنّ بحذر أصلاً كان أم شبيهاً، ولا تبالي بواقع شخصيات صدام من يحكم ما دام كلّ تلك المسميات هي قدرات مهلهلة.

الخيبة الأمريكية

من الصعوبة بمكان تقدير الخيبة الأمريكية بعد أن صارع صدام أمريكا بالطريقة التي اكتشفها هو بنفسه، والتي لم تكن أكثر من نوع قديم من أنواع الصراعات التي استوحاها من الواقع البدوي العربي الذي يتعامل مع العدو بنوع من الغموض، فقد تروى المقولات والقصص العربية القديمة بأن فلان البطل كان يمتلك سيفاً طوله عشرة أذرع، أو أن عضده كانت تحجب وجهه عن الشمس لما لها من ضخامة وقوة، أو أن فارساً واحداً تمكن من أن يهزم جيشاً بأكمله، أو أن البطل الموهوم تنكّر بهيئة فقير أو بهيئة ملك من الملائكة لكي يبثّ في أعدائه الرعب.

والرئيس العراقي كانت تستهويه تلك الأساطير وتملأ عقله طريقة تطبيقها على العراقيين. فقد كان يراوغ أعداءه بهذا الأسلوب بعد أن تمكن من ترويض شعبه إلى الدرجة التي أقتنع هذا الشعب بأن صدام يملك قدرات خارقة لا يمكن أن تقف أمامها أي قوة أخرى، وخصوصاً أمريكا التي لم تتمكن أن تهزم شعب فيتنام الضعيف[1] فخرجت ذليلة أمام إصرار وقدرة الفيتناميين، كذلك الأمر في الصومال وفي افغانستان ولبنان.

(1) كانت قدرات الفيتناميين الفنية والعسكرية بدرجة لا تقارن مع القدرات التكنولوجية =

فكانت السلطات العراقية تبث هذه الدعايات التي لم تكن تمّت إلى الواقع بصلة لا من قريب ولا من بعيد. ولكنها دعايات تمكن بها صدام من أن يبثّ الرعب والخوف في نفوس أبناء الشعب العراقي لكي يتمكن هو أو شبيهه ماسكاً بزمام السلطة ضمن سيناريو دولة الحرب الكبيرة حتى ولو كلفهم ذلك إبادتهم، فهو لم ير في إبادة الشعب العراقي أي ضير، لأنّ نظرة الشخصية المتألّهة لا ترى في الناس إلا أن يكونوا فدية أو قرابين إلى القائد، بل إنّ موتهم هو استحقاق لما يمتلكه القائد من قدرة على إبقائهم على هامش الحياة، وهو الشعور الذي يتحول فيه القائد المتألّه إلى شخصية لا ترى بعين الإنسان العادي المعروف في تعاطفه مع الناس أو إحساسه بأحاسيس الناس، وإنما يكون ذا ضمير ميت يفتقد قدرة التفاعل البشري. ويتحول إلى شخصية تريد أن تثبت إلوهيتها بطريقة أو بأخرى.

فقد كان صدام أو أشباهه يدركون أن نقطة الضعف الأمريكية هو المزيد من القتل في صفوف كلي الطرفين، لأنّ ذلك سيثير الشارع الأمريكي والعالمي، وهو السلاح الفعّال في مواجهة أي حكم في العالم الغربي[1]، فالشارع له قوة وسطوة كبرى، لأنّ البطاقة الانتخابية

= الأمريكية التي استعملت في ذلك الوقت أسلحة متطورة جداً وبجيش قوي، ولكنها مع ذلك خسرت الحرب التي دامت 19 سنة. وتوحدت فيتنام بعد أن خسرت أمريكا تقريباً 85 ألف قتيل. راجع مادة حرب فيتنام على:
http://en.wikipedia.org/wiki/Vietnam_War.

(1) جنّدت الحكومة العراقية بعد الحصار على العراق عام 1991 شخصيات كثيرة في العالم الغربي من حسني النية، ومن المحبين إلى الشعوب لإثارة الرأي الغربي وتقديم صور مرعبة عن عدد الوفيات ونسبة الأمراض واستياء الحالة المعيشية وموت الناس =

تخرج من الشارع، وكذلك ذات الرئيس الأمريكي الذي قد يفقد شعبيته أو قد يطرد من الرئاسة من خلال خطأ من أخطاء التعامل مع الشعب أو مع القانون، فإحراج الرئيس هو الشارع الأمريكي والرأي العام، فكان صدام أمام هذا الأمر يرى بأنه يملك قدرة، كما هي قدرة الفأر الصغير الذي تمكن من أن يقرض شبكة الصياد التي اصطادت أسداً حتى وإن كان ملك الغابة.

فليس بالضرورة أن يكون القوي دوماً منتصراً، فصدام (قيادة الظل) كان يريد أن يجرّ أمريكا إلى المنطقة لتدميرها في أتون حرب كبرى تعمّ الجميع، وتعمّ مصادر الطاقة باعتبار أن الفكر الأمريكي الذي تقام عليه فلسفة الحكم هو أنها تبحث بشكل حثيث عن رئيس متعطش للسلطة، ومستميت في سبيلها، فإذا وجدت هذه الشخصية فإنها تدور حوله وترى فيه هبة السماء.

وكانت فلسفة صدام في السلطة منطلقة من قدرته على استغلال التناقضات في شخصيات الدول العالمية ومحاولة شرائها من خلال

= بالجملة بسبب الحصار المفروض على الشعب العراقي، مع أن الأمم المتحدة قد سمحت للحكومة العراقية في استعمال أموال النفط لتغطية الغذاء والدواء، وكان صدام ومجموعته قد وجهت تلك الأموال والأغذية إلى شراء ذمم الناس والسياسيين العالميين وخصوصاً الفرنسيين. وقد قدمت الحكومة العراقية آنذاك معلومات خاطئة عن إحصائيات الأمراض والوفيات في الوقت الذي ترى منظمة الصحة العالمية بأن الرقم الذي تعتمده هو الرقم الذي تقدمه الحكومة، باعتبار أنه ليس من المعقول أن تقدم دولة رقماً مبالغاً فيه عن عدد المرضى أو عدد الموتى في الوقت الذي كان المفترض أن يكون العكس، للمزيد عن الموضوع يمكن الاطلاع على آلاف الوثائق عنه في الانترنيت: http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/4131602.stm.

الصفقات التجارية والعمولات التي ليست بالضرورة أن تكون غير قانونية، وكان يعتقد بأنه قادر على شراء كلّ شخص من خلال المال ومن خلال السلطة. ولذلك فقد كان له أكثر من ذراع في تنفيذ عملية البحث عن الصيد الثمين للوقوع في فخ المال والسلطة.

فالشخصية المحورية موضوع مهم لواقع المخابرات الأمريكية في تركيبة الدول الديكتاتورية كما هو واقع شاه إيران (ت 1980)، وعبد الناصر مصر (ت 1972)، وبورقيبة تونس (ت 2000)، وماركوس الفيليبين (ت 1989)، وموبوتو سيسي زائير (ت 1997) وغيرهم.

فقد تعاملت المخابرات الأمريكية مع شخصية عبد الناصر (ت 1972) بعد أن تمّ اختيار (كرمت روزفلت جونيور) (ت 2000 م)[1] حفيد الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت الرئيس السادس والعشرين للولايات المتحدة (ت 1919) وهي التي اقترحت في أن يكون عبد الناصر الشخصية التي من الممكن المساومة عليها لا شخصية محمد نجيب (ت 1984) والتي كانت هي فعلاً القائدة في مسيرة ثورة مصر في عام 1952. ولكنّ شخصية نجيب كانت شخصية مختلفة عن عبد الناصر فالتعطش إلى السلطة كان واضحاً لدى ناصر، بل كانت

(1) شخصية سياسية مخابراتية معروفة في التأريخ الأمريكي، وقد تمكن من أن يقود انقلاباً على رئيس الوزراء الإيراني (محمد مصدق) في عام 1953 ويعيد محمد رضا بهلوي إلى السلطة، وهو أول من نبّه أمريكا إلى خطورة مساندة الصهيونية على المدى الطويل، أقرا الكتاب الذي أصدره معهد:
The Institute of Arab American Affairs, Pamphlet No. &, 19480.
Partition of Palestine: A Lesson in Pressure Politics.
https://archive.org/details/PartitionOfPalestineALessonInPressurePolitices.

شخصيته بهذا الاتجاه جلية وتفوق أقرانه بدرجات كبرى، كذلك شارك (روزفلت) خليفته (ستيفن ميد)[1] الذي قدّم إلى وزير الخارجية الأمريكي في ذلك الوقت (جون فوستر دالاس) (ت 1959) تقريره في القول بأن محمد نجيب لم يكن إلاً ستاراً لعبد الناصر يقيس به واقع الشعب المصري إلى أن تحين الفرصة لطرده وإزاحته، وهذا تماماً ما قد تمّ فيما بعد[2].

فالواقع العربي الذي درسه صدام في حاجة أمريكا له لم يخطئ تقديره صدام، بل كان يرى في نفسه بأنه الشخصية الوحيدة التي تبحث عنها أمريكا، والتي تتمكن من أن تسيطر على القرار الأمريكي من خلال حاجتها إليه. ولذلك فإنه لم يكن يعتقد بأن الولايات المتحدة ستتدخل في احتلاله للكويت، بل إنه كان يطمح في أن يستمر في احتلاله للمنطقة الشرقية من السعودية في ضم المضطهدين (الشيعة) من تلك المناطق ومن ثم إلحاقها كأجزاء إلى العراق وفرض سياسة الأمر الواقع كما فرضت تركيا سياستها على قبرص بعد احتلالها في عام 1975 والتي لازالت إلى اليوم تقسم إلى منطقتين تركية ويونانية، وكذلك مناطق كثيرة في العالم والتي من خلالها فرضت الدولة القوية

---

(1) شخصية متمكنة في الشرق الأوسط لها دور كبير في تغيير السياسة الدولية. يمكن مراجعة وضعه في المخابرات الأمريكية من خلال التقارير السرية التي نشرت بعضها على موقع:
http://www.iranonline.com/newsroom/Archive/Mossadeq/THE-DECISIONS-ARE-MADE.html.

(2) لعبة الأمم، مايلز كوبلاند، ترجمة مروان خير، طبع في انترناشيونال سنتر بيروت 1969.

سياستها في المنطقة بالرغم من اعتراضات الأمم المتحدة أو غيرها، وربما أقرب مثال إلى ذلك هو احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة ومناطق أخرى في الجولان وفي لبنان.

فالقدرات هي نقاط القوة، أو نقاط الضعف الأمريكي، وصدام يدرك ذلك جيداً ولكنّه في ذات الوقت كان يريد أن يقيم علاقاته مع أمريكا على مقاييسه، وليس على مقاييس النمط العالمي أو الدولي، وهو النمط - كما أشرت له - البدوي الابتزازي الذي أتقنه صدام بشكل جيد.

ففي هذه الحالات قد تحصل عمليات تجاذب بين الطرفين إلى أن يصل كلاهما إلى حلٍ مرضٍ، ولكنّ صدام لم يمهل أمريكا، فقد كان في غاية الثقة من رأيه في قدرته على إمساك الدولة الكبرى من نقطة ضعفها، هذا بالإضافة إلى صفة التعجرف التي يتميز بها في رفضه للنقاش، فهو يريد فرض الأمر الواقع تماشياً مع الفلسفة الأمريكية في ضرورة وجود شخصية قادرة في الإمساك بواقع العرب المهلهل، والذي يحتاج إلى شخصية ناصرية لا شخصية مباركيّة أو سعودية أو أسدية، وإنما النموذج المقترح هو فقط الشخصية الصدامية الطموحة التي تعشق السلطة، والتي تتمكن من أن تقود شعباً بكامل إرادته، بما يريد هو، وأن يخلق حوله من الأتباع ومن القدرات الذين ينساقون معه وهم قانعون بل مسرورون بما يريده الرئيس وبدون أن تبدو منهم بادرة اعتراض أو توضيح.

لو حلّلنا الأمر من واقع العقلية الميدانية، ولو تمّ وإن كان احتلال الكويت في زمن غير زمن الرئيس (بوش) الأب كشخصية تنتمي إلى

الحزب الجمهوري، لما وجدنا عندئذ بأن أمريكا قد بادرت إلى الدخول في حرب الخليج الثانية، ثم في إخراج العراق من الكويت، فلو كان على سبيل المثال (كلينتون) أو (أوباما) الديمقراطيان في سدة الحكم لما قاما بما قام به (بوش) الأب في التحرك سريعاً وضرب صدام بهذه العجالة التي كانت بمثابة الخطوة المستحيلة التي حققتها أمريكا.

هنالك الكثير من مناطق العالم لازالت محتلة من قبل دول متصارعة[1] ولكنّ ليس هنالك من دافع للدخول في حرب مدمّرة كما هي الحرب التي دارت في عام 1991 في الكويت والعراق. ولو كان قد حدث ذلك في غفلة من الزمن لتقدمت القوات العراقية إلى مناطق خليجية أخرى ولفرض صدام سياسة الأمر الواقع، كما فرض هتلر سياسته في احتلال الدول الأوروبية وإقامة حكومات محلية تدين بالولاء إلى ألمانيا كما هي حكومة (فيشي) الفرنسية[2] وغيرها من دول العالم.

---

(1) (ناغورني كاراباخ) من قبل (أرمينيا)، فلسطين من قبل إسرائيل، الجولان من قبل إسرائيل، مزارع شبعا اللبنانية من قبل إسرائيل، الصحراء الغربية متنازع عليها بين المغرب وجبهة البوليساريو،أيرلندا تعتبر أن محافظاتها الستة في الشمال هي محتلة بصورة غير رسمية من إنكلترا، كشمير من قبل الهند، قبرص من قبل الأتراك، (سبته ومليلة) من قبل أسبانيا، الاسكندرونة من قبل تركيا. الصومال، تايوان، شط العرب، جزر الفولكلاند..، جزر الخليج، (مكاو)، (طنب) و(أبو موسى)....الخ.

(2) فرنسا الفيشية، الدولة التي استمرت بين تموز 1940 إلى أيلول 1944، وقد خلفت الجمهورية الثالثة، وأعلن قيام حكومتها المارشال (فيليب بيتان) وذلك عقب سقوط فرنسا بيد ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية، وانتخبت تلك الحكومة من قبل =

إن الاحتلال عملية متناوبة يقوم بها القوي إلى أن يضعف ثم تتغير السياسات كما حدث في احتلال الروس إلى الجمهوريات الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن سقط الاتحاد السوفيتي وعندها تغيرت معادلات القوة وعادت تلك الجمهوريات إلى واقعها الفعلي. وكذلك يحصل اليوم في (شبه جزيرة القرم) وتمكنت روسيا من استعادتها ثانية من (أوكرانيا).

ولو افترضنا جدلاً بأن إيران لم تفز بثورتها التي قامت بها في عام 1979 ولم تتمكن من أن تفرض أمراً واقعيّاً في المنطقة لما تدخلت أمريكا أصلاً في حرب الخليج الثانية، كما أنه لمن نافلة القول الإشارة إلى أن إيران هي ذاتها لو كانت ضعيفة بما فيه الكفاية كما هي السعودية على سبيل الفرض كذلك لم تكن الحرب لتقع مع صدام، فإيران عامل مهم في رد الفعل الأمريكي، مع أن أمريكا ولحين تأريخ ما قبل احتلال العراق في عام 2003 لم تكن تدرك ماذا تعني السياسة الإيرانية، وقد بانت دلائل معرفة كلّ طرف إلى الآخر بعد أن تمّ الدخول الأمريكي إلى العراق، وخصوصاً ما بعد عام 2005 وربما عام 2010 العام الذي تمّ به تتويج تفهم كامل من قبل كلي الطرفين إلى الآخر بما يخص العراق.

لم يكن أمام أمريكا بعد حرب الخليج الأولى من سبب لمعادة صدام من الناحية السياسية والعسكرية، فلقد قدم العراق إلى المصالح

= الجمعية الوطنية الفرنسية بتاريخ 10 يوليو 1940 مع منحها صلاحيات واسعة (لبيتان) كرئيسٍ للحكومة. أنظر الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Vichy_France

الأمريكية الشيء الكثير، وكان أهمها هو إيقاف زحف الثورة الإيرانية وتمددها على حساب الخليج والمنطقة، مع أن العارفين بالمنطقة لا يرون في ذلك من مصداقية أو سبب في التخوف الغربي من انتشار الثورة الإسلامية في الخليج على شكل ثورة، نعم قد تؤثّر من الناحية الإيديولوجية والناحية الفكرية والثقافية، ولكنها من المستبعد أن تقدم إيران على تغيير أنظمة أو إحداث قلاقل في الدول المجاورة كما هي مطامع صدام تجاه الدول المجاورة، ولكنّ التخويف العربي والسعودي والعالم السني (السياسي) قاد الولايات المتحدة إلى امتلاك تصور بعيد عن الحقيقة، والذي مفاده بأن هنالك دولة جديدة ستكون قاعدة لضرب حضارة الغرب، وفي ذات الوقت ستشعل منطقة الخليج بنار النفط ذاته، وتحرم الغرب من تجهيزه بالطاقة وتعمل على تغيير سياسة المنطقة بشكل درامي، هذا التصور اشترته أمريكا بسهولة بسبب الخلفية التي تمتلكها عن واقع التشيع الذي زرعته مراكز البحوث الأمريكية المزودة من المصادر العربية التي كان الحكام هم من ورائها.

وعليه فإنها لم تجد بدّاً إلّا أن تشن حرباً صداميّة على إيران، مع أنها كانت مقتنعة بأن الحرب هذه سوف لا تغيّر من معادلة الثورة، وإنما كان هدفها هو إعطاء الفرصة لأعداء الثورة للانقضاض عليها من الداخل. هذا التصور قد يكون له مصاديق في بعض البلدان، ولكنّه لا ينطبق على إيران باعتبار أن وطنية الشعب الإيراني وطنية مميّزة مقارنة بالبلدان التي تحيط بها وبما هو في دول كثيرة في العالم العربي خصوصاً. وبالعكس فقد ظهر أن الشعب الإيراني بمجمله نسي

معارضته للحكومة الجديدة في إيران وتوجه إلى القتال لإنه اعتبر هذا الأمر أمراً وطنياً بامتياز.

وهنا لم تتمكن أمريكا من أن تغيّر من لعبة المنطقة من خلال حرب، في الوقت الذي كان العالم يعيش هاجس الصراع ما بين الشرق والغرب، وكان الخوف من أن يحدث صراع مزمن في المنطقة بقدوم السوفيت وتقدمهم من خلال إيران، ولكنّ ذلك لم يتم، بل كانت المعاداة الفكرية التي حملتها الثورة الإسلامية الإيرانية إلى الشرق لا تقل ضراوة عنه ضد الغرب.

بعد سقوط الاتحاد السوفيتي في عام 1991 كان هنالك نظام جديد مختلف عن النظام القديم، ميزته هو تطليق الأقزام الذين كانوا يعيشون على فتات الصراع، والتوجه من قبل الغرب إلى الشعوب في سبيل نقل الرسالة الأمريكية التي بدأها أول رئيس أمريكي وهي مبدأ الديمقراطية والحرية، وهي الرسالة التي شعرت أمريكا بأنها نسيتها أو تناستها في صراعها في فترة الحرب الباردة. في الوقت الذي وصلت سمعة أمريكا إلى درجة متدنيّة ما بين شعوب العالم، حتى كتب عندئذ المستشرق الكبير برنارد لويس كتابه الشهير (أين الخطأ)[1] الذي بيّن فيه واقع النظام الغربي الذي لم يستمع إلى نداءات الشعوب، واستغاثات القطاع العالمي من مواطني الشعوب التي تعبت من تسلط الحكام.

وهنا بدأت أمريكا تفكر جدياً في موضوع تغيير الأنظمة. وكانت تلك الانعطافة هي بعد ثلاث أو أربع سنوات من سقوط الاتحاد

(1) أين الخطأ، برنارد لويس.

السوفيتي. فكانت الدراسات الغربية تشير وتؤكد بأن أعتى عصبة من الأنظمة الشمولية في العالم تتركز في المنطقة الإسلامية وبالتحديد العربية، فلم تتمكن تلك الدراسات من انتشال إسم لدولة واحدة تتمتع بالقدر القليل جداً من الحرية ومن احترام الإنسان وفي شكل الحكم.

لم ير الأمريكيون من بدّ في أن يكون هنالك تغيير في المنطقة العربية، وخصوصاً وأن الحظر على العراق لازال مستمراً ولازال فاعلاً وأن النظام العراقي نظام ذو وجه أسود أمام العالم، وهنا كان صنّاع القرار قد أشاروا إلى أهمية إبقاء حالة النظام العراقي على ما هو عليه إلى الحين الذي تتهيأ المنطقة باتجاه التدخل الفعلي العسكري في المنطقة العربية لتحقيق هدف نقل الرسالة، رسالة الديمقراطية الأمريكية على مستوى الحكم وعلى مستوى الشعب[1].

وقد عُزّز الرأي بأهمية أن يكون التغيير من خلال وسائل سلميّة، مع أن الأمريكيين والغرب يدركون جليّاً بأن الوسائل السلميّة في التعامل مع الحكام العرب أمر ليس هيّناً، فحكام المنطقة معظمهم من الطبقات البدوية التي لا ترى في التغيير في النظام الحاكم إلا انتحاراً، بل إنه ذلّ كبير عليه أن يموت أو أن ينتحر قبل أن يرى ذلك اليوم[2] وهو أمر نفسي فُطرت النفسية العربية على طبيعته، فلم نر من حاكم عربي على مدى التأريخ الذي ربما يصل إلى أكثر من ألفي عام ومنذ أن

---

(1) الديمقراطية في أمريكا، الكسيس دي توكفيل.

(2) فقد قال حاكم عربي مسلم لابنه وهو يعظه: يا بني لو نازعتني على الملك لأخذت الذي بين عينيك أو الذي فيه عيناك يعني رأسه.

سكنت قريش في مكة أن تنازل عن المنصب إلا ربما معاوية الثاني (ت 64 هج) أمّا البقية فإنهم اتخذوا الملك عضوضاً[1].

فقد اعتقد صنّاع القرار الأمريكي من الجمهوريين ومن عتاة الفكر الليبرالي بأن الزمن قد قدم لهم النظام الصدامي فيما بعد عام 2002 ذريعة طبيعية لإحداث التغيير بدون مقابل، أو على طبق من ذهب لإتخاذها حجة قانونية ودولية للدخول إلى دائرة الدول العربية من أجل القيام بما تمليه الفلسفة الليبرالية الأمريكية في التغيير الديمقراطي الذي تعتقد به أمريكا.

هذا الأمر ليس متعلقاً بواقع البحث عن أسلحة الدمار الشامل، وليس له من صلة بواقع كلّ ما يتصل بتعليق صدام السماح للمفتشين الدوليين أو غيره من الأمور، وإنما الموضوع هو مبيّت من قبل أمريكا في أن يكون واقع النظام الصدامي ذريعة لها في تغيير كامل المنطقة من خلال وضع قدمها في القطر الأول وهو العراق، لأنه يتميز بامتلاكه أعتى نظام ديكتاتوري في المنطقة، بل في العالم، ولذلك فإن التجربة من الدخول في هكذا بلد سيكسب الولايات المتحدة خبرة كبرى في مسيرة القيام بعمليات التغيير في البلدان العربية الأخرى.

وقد أثبتت الأحداث صحة الرأي الأمريكي عندما تحرك العرب وتحركت المنطقة بشكل هائل في انتفاضة الربيع العربي وسقط على أثرها أهم وأقوى نظام عربي وهو النظام المصري، في الوقت الذي

(1) ممكن في هذا الموضوع مراجعة كتاب المغازي للواقدي،أو مقاتل الطالبيين للأصفهاني.

سقط قبله بأيام أفضل أنظمة العرب من الناحية القانونية والثقافية وهي تونس، كما سقط فيما بعد ثاني أعتى نظام عربي بعد صدام وهو نظام القذافي، وهكذا شمل الربيع العربي اليمن وأزاح رئيسها ثم امتدّ إلى الدولتين اللتين تصارعان بطريقة متباينة، البحرين وسوريا. كما هاجت الشعوب العربية كلها وبدون استثناء، ولكنها أخمدت إمّا بالسلاح والنار وإمّا بطريقة المساومة.

وهنا نرى السيناريو واضحاً من خلال القراءة الأمريكية التي ترى أن طبيعة النظام الصدامي الديكتاتوري هو مدخل ضروري لإحداث عملية التغيير في كيانات الأنظمة العربية الأخرى، كلّ ذلك جاء من خلال الشواهد التالية:

- استعداد صدام للاستسلام لكل المطالب الأمريكية فيما يتعلق بكل ما هو مرتبط بموضوع المفتشين الدوليين وغيرها من قرارات الأمم المتحدة.
- المعارضة المستميتة للتدخل الأمريكي وإزالة صدام من الحكم، بل ترك الأمر إلى الدول العربية لكي تعالج الأمر بطريقتها، وكان يقود هذا الرأي السعودية ومصر والإمارات.
- تضارب تصريحات القادة الأمريكان في مبررات الحرب، ورفض كلّ خيارات عدم الحرب.
- عدم اكتشاف أسلحة كيمياوية أو نووية أو بيولوجية لدى العراق وكانت المهمة قد أعطيت إلى الجنرال الأمريكي الخبير المتخصص الجنرال (ديفيد كاي) (Davide Kaye) الذي لم

يتمكن من ذلك إلى حين تأريخ 12 كانون الثاني 2005 حتى آل الأمر له في أن يستسلم ويستقيل من منصبه بعد أن عجز عن التقاط رأس الخيط[1] بعد أن أعلن مجلس الشيوخ ذلك.

- لم تقدم المخابرات على قتل صدام، وإنما تمّ التعامل مع أشباهه بطريقة سياسية سنتطرق لها في الفصول المقبلة.
- تصريح لمدير (السي أي ايه) جورج تنيت بأن الرئيس الأمريكي كان قد اتخذ قرار الحرب قبل أن يطّلع على تقريره النهائي الخاص بالأسلحة الكيمياوية أو غيرها.

وهل يحق للولايات المتحدة الأمريكية قانونياً أن تمارس الحرب التي مارستها على العراق. .؟

لا، ليس لدى أمريكا وحسب واقع نظامها الداخلي في أن تمارس عملية شن حرب على دولة أخرى إلّا بموافقة الكونغرس:

استناداً لدستور الولايات المتحدة لا يمتلك الرئيس صلاحية إعلان الحرب، وأن هذا الأمر هو من صلاحيات الكونغرس الأمريكي، ولكنّ حسب قانون صلاحيات الحرب الأمريكي لعام (War 1973 Powers Resolution of) يمكن لرئيس الولايات المتحدة إرسال الجيوش إلى دولة أجنبية لمدة 60 إلى 90 يوماً دون الرجوع إلى الكونغرس.

(1) هنالك في العراق أكثر من 130 مخزن عملاق للسلاح وكلّ مخزن عبارة عن مدينة كبرى من السعة، إثنان منهما كما يصفهما (جورج تينت) مدير المخابرات الأمريكية بأن كلّ منهما أكبر من مدينة منهاتن.

في 3 أكتوبر 2003 حصل جورج بوش على موافقة الكونغرس بعد خلافات عديدة من أعضاء الكونغرس من الحزب الديمقراطي. كما تمّ بعد ذلك انتزاع قرار من مجلس الأمن رقم 1441[1] في عام 2002، وافق عليه مجلس الأمن بالإجماع. عند صدور القرار أعلنت كلّ من روسيا والصين وفرنسا وهم من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن أن القرار 1441 لا يعطي الصلاحية باستعمال القوة ضد العراق، وكان هذا الموقف هو نفس الموقف الأمريكي والبريطاني في بداية الأمر ولكنّ موقف الولايات المتحدة تغيّر بعد ذلك.

كانت المملكة المتحدة وحتى أيام من بدء الحملة العسكرية تحاول الحصول على قرار دولي صريح وبدون غموض يشرّع استخدام القوة على عكس الإدارة الأمريكية التي بدت قبل أيام من بدء الحملة غير مبالية كثيراً بالحصول على إجماع دولي، ويعتقد البعض أن الحملة

(1) يتضمن هذا القرار أربعة عشر بنداً، من أهمها أن (العراق كان ولا يزال في حالة خرق جوهري لالتزاماته المنصوص عليها في القرارات ذات الصلة)، وأن المجلس (يمنح العراق بموجب هذا القرار فرصة أخيرة للامتثال بالتزاماته المتعلقة بنزع السلاح.) كما يتضمن القرار جدولاً زمنياً لكل من استئناف عمليات التفتيش وتقديم تقرير شامل عن سير هذه العمليات، بالإضافة إلى موعد نهائي لتقديم العراق (بياناً دقيقاً ووافياً وكاملاً عن الحالة الراهنة لبرامج تسلحه). ويمنح القرار للمفتشين صلاحيات واسعة منها: إمكانية الوصول فوراً ودون عوائق إلى كلّ المناطق التي يودون تفتيشها، وإلى جميع الأشخاص الذين يودون مقابلتهم، ويجوز للمفتشين حسب القرار إجراء مقابلات داخل العراق أو خارجه وتيسير سفر الأشخاص الذين تجرى مقابلات معهم وأفراد أسرهم إلى خارج العراق. ويحذر القرار العراق أنه سيواجه عواقب خطيرة إذا لم يمتثل لمقتضيات القرار.

العسكرية كانت مخالفة للبند الرابع من المادة الثانية للقوانين الدولية والتي تنص على أنه: (لا يحق لدولة عضو في الأمم المتحدة من تهديد أو استعمال القوة ضد دولة ذات سيادة لأغراض غير أغراض الدفاع عن النفس)، ومن الجدير بالذكر أن السكرتير العام للأمم المتحدة (كوفي عنان) صرح بعد سقوط بغداد: أن الغزو كان منافياً لدستور الأمم المتحدة.

من هو صاحب قرار الحرب...؟ ولماذا...؟

هذا هو سؤال المليون دولار كما يقال... هل هو بوش نفسه أم أمريكا كدولة أم الغرب كله، أم المخابرات..؟ من هو الذي أطلق صيحة الضربة الأولى....؟ ولكي نتوصل إلى هذا الجواب أمامنا سيناريو تسلسل الأحداث العالمية والتي من خلالها يمكننا أن ندرس الأمر بواقعية وجدية....

عام 2003

1 - 28 يناير: جورج بوش يقول أن بلاده مستعدة لمهاجمة العراق حتى دون تفويض أممي.

2 - 14 فبراير: تقرير لكبير المفتشين (هانس بليكس) يتحدث عن تقدم طفيف في تعاون العراق مع الخبراء الأمميين، ووزير خارجية فرنسا (دومينيك دو فيلبان) ينتقد بشدة في خطاب شهير في مجلس الأمن الرغبة الأميركية البريطانية في شن الحرب، ويفند المزاعم بشأن أسلحة الدمار.

3 - 22 فبراير: (هانس بليكس) يأمر العراق بتدمير صواريخ (صمود 2).

4 - 24 فبراير: مشروع قرار أميركي بريطاني أسباني يقول إن الوقت قد حان لاستخدام القوة ضد العراق، وفرنسا وألمانيا وروسيا

تدعو لمواصلة عمليات التفتيش وتمديدها وتشديدها لوجود فرصة حقيقية لتحقيق حل سلمي.

5 - 17 مارس: جورج بوش يمهل صدام حسين 48 ساعة لمغادرة العراق تحت طائلة شن هجوم على بلاده[1].

6 - 19 مارس: جورج بوش يعلن الحرب على العراق.

7 - 20 مارس: الحرب تبدأ بغارة جوية حاولت استهداف صدام حسين (لالتقاط الشبيه جاسم العلي).

8 - 9 أبريل: سقوط بغداد، وإعلان سقوط نظام صدام حسين.

9 - 1 مايو: الولايات المتحدة تعلن نهاية العمليات القتالية الكبرى.

10 - 12 مايو: تعيين الدبلوماسي الأميركي (بول بريمر) حاكماً مدنياً للعراق.

11 - 22 مايو: مجلس الأمن يرفع العقوبات عن العراق، ويدعم الإدارة الجديدة.

12 - 13 يوليو: تدشين مجلس الحكم المؤقت المكون من 25 عراقياً.

13 - 22 يوليو: مقتل عدي وقصي في الموصل.

---

(1) بعد أن دخلت قوات التحالف باريس عرض نابليون على قادة جيشه الهجوم على العاصمة الفرنسية وتحريرها، ولكنّ القادة رفضوا ذلك، ثم واجهوا نابليون بهذا الأمر بقيادة المشير (ميشيل ناي)، أحد الضباط القدامى في فرنسا وصديق مقرّب من بونابرت، فقال الأخير أن الجيش سوف يتبعه، فأجابه (ناي) أن الجيش لن يتبع سوى قادته. فلم يجد نابليون بداً من أن يتنازل عن العرش لصالح ابنه (نابليون الثاني)، إلا أن الحلفاء لم يقبلوا بهذا الأمر، فاضطر نابليون أن يتنازل دون قيد أو شرط.

14 - 2 أكتوبر: تقرير مبدئي للخبير الأممي (ديفد كاي) يقول: إنه لم يُعثَر على أسلحة دمار شامل بعد.

15 - 9 ديسمبر: تعليمات من (بول ولفويتز) - نائب وزير الدفاع الأميركي - تمنع فرنسا وألمانيا وكندا والمكسيك والصين وروسيا من التنافس على العقود الضخمة في عملية إعمار العراق.

16 - 13 ديسمبر: اعتقال صدام حسين (الشبيه جاسم العلي) على يد الجيش الأميركي.

العام 2004

1 - 17 يناير: (ديفد كاي) الرئيس السابق لفريق المفتشين الأميركيين يقول في شهادة أمام مجلس الشيوخ إن كلّ المعلومات الاستخبارية عن أسلحة الدمار كانت (جميعها تقريباً مغلوطة).

2 - 8 مارس: مجلس الحكم العراقي يقر دستوراً انتقالياً.

3 - 16 يونيو: لجنة التحقيقات الأميركية في هجمات أيلول 2001 تقول إنه لا أدلة ذات مصداقية على ضلوع العراق والقاعدة في الهجمات.

4 - 9 يوليو: تقرير للجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ الأميركي أقرّه الحزبان الديمقراطي والجمهوري ينتقد بشدة المعلومات الاستخبارية التي استخدمت لتسويغ الحرب.

5 - 14 يوليو: (تقرير باتلر) في بريطانيا يقول: أن المعلومات الاستخبارية التي اعتمدت لشن الحرب كانت محل مبالغة.

6 - 22 يوليو: (تقرير فلود) في أستراليا يصف الأدلة على وجود أسلحة دمار شامل بالعراق بـ(الغامضة وغير المكتملة).

7 - 15 سبتمبر: الأمين العام للأمم المتحدة حين ذاك (كوفي أنان) يصف في لقاء صحفي الحربَ على العراق بغير الشرعية.

8 - 25 أكتوبر: اختفاء مئات الأطنان من المتفجرات شديدة المفعول من موقع عسكري في منشأة القعقاع.

العام 2005

1 - 12 يناير: البيت الأبيض يعلن رسمياً أن عمليات التفتيش في العراق قد انتهت دون العثور على أسلحة الدمار الشامل.

2 - 28 أغسطس: البرلمان العراقي يتسلم مسودة الدستور الجديد الذي رفضه السياسيون السنة.

3 - 25 أكتوبر: اللجنة الانتخابية تعلن إقرار الدستور الجديد بـ 79% من الأصوات.

4 - 15 ديسمبر: انتخابات برلمانية لاختيار أول برلمان دائم منذ بدء الاحتلال.

العام 2006

1 - 15 فبراير: تقرير لمجلس الشيوخ الأميركي يقول إن كلّ مرافق البنية التحتية في العراق ما زالت دون مستويات ما قبل الاحتلال رغم إنفاق 16 مليار دولار على تأهيلها.

2 - 15 مارس: صدام حسين (الشبيه جاسم العلي) يدلي بشهادته لأول مرة خلال محاكمته في ما عرف (بقضية الدجيل).

3 - 22 أبريل: الموافقة على تعيين نوري المالكي رئيس (حزب الدعوة) رئيساً للحكومة بعد أربعة أشهر من الخلافات بين الفرقاء السياسيين.

4 - 7 يونيو: الإعلان عن مقتل (أبو مصعب الزرقاوي) في غارة أميركية.

5 - 23 سبتمبر: تقرير استخباراتي أميركي سري سرب إلى الصحافة، يقول أن حرب العراق زادت خطورة (الإرهاب).

6 - 6 نوفمبر: الحكم على صدام حسين (الشبيه) بالموت شنقاً بعد إدانته في قضية الدجيل.

7 - 6 ديسمبر: تقرير للجنة من الحزبين الديمقراطي والجمهوري ينصح بالانفتاح على إيران وسوريا لاحتواء الوضع في العراق حيث (المهمة تبدو بلا نهاية منظورة).

8 - 31 ديسمبر: تنفيذ حكم الإعدام شنقاً في صدام حسين (الشبيه ميخائيل رمضان) لتقديمه إلى المالكي.

العام 2007

1 - 7 يونيو: عزل إبراهيم الجعفري من قيادة حزب الدعوة.

2 - 1 أكتوبر: الحكومة العراقية تتولى الإشراف على قوة من الصحوات يفوق عددها خمسين ألف مسلح.

3 - 7 أكتوبر: العراق والولايات المتحدة يتوصلان إلى مشروع اتفاق أمني يحدد نهاية 2011 كآخر أجل انسحاب الجيش الأميركي.

4 - 16 نوفمبر: الحكومة العراقية تقر اتفاقاً أجازه البرلمان ومجلس

الرئاسة لاحقاً ينظم وجود الجيش الأميركي حتى تاريخ انسحابه بنهاية 2011، ويحدد صيف 2009 كآخر أجل لخروجه من المدن.

العام 2009

1 - 30 يونيو: القوات الأميركية تنهي انسحابها من مدن العراق بما فيها بغداد.

العام 2010

1 - 31 أغسطس: (باراك أوباما) يعلن نهاية المهمات القتالية الأميركية في العراق.

2 - 21 ديسمبر: البرلمان العراقي يصدّق على حكومة جديدة برئاسة نوري المالكي.

العام 2011

1 - 17 ديسمبر: الجيش الأميركي يعلن إنهاء انسحابه من العراق.

تقرير لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ الأمريكي

أقرت لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ الأمريكي في سابقة هي الأولى من نوعها تقريراً مكتوباً يوجه اللوم بشكل مباشر إلى الرئيس الأمريكي جورج بوش وإدارته بتهمة إساءة استخدام المعلومات الاستخباراتية لتبرير حرب العراق. وقد تمّ تمرير التقرير بلجنة الاستخبارات التي انعقدت برئاسة السيناتور الديمقراطي (جونو روكفلر) بتصويت 10 أعضاء بالموافقة مقابل 5 حيث لوحظ انضمام

عضوين جمهوريين بارزين إلى الديمقراطيين في الموافقة وهم السيناتور (تشارك هيجل) والسيناتور (أوليفياسنو). وكان الجزء الأول من التقرير أكد أن تصريحات بوش وإدارته للتحريض على الحرب في العراق لم تكن قائمة على معلومات استخباراتية ومن ضمنها:

- تصريحات وتلميحات الرئيس الأمريكي بأن هناك علاقة بين العراق والإرهاب والقاعدة.
- تصريحات نائبه (ديك تشيني) التي تشير إلى وجود الاستعداد لدى صدام حسين لمنح أسلحة دمار شامل إلى مجموعات (إرهابية) تستخدمها للهجوم على الولايات المتحدة في تناقض صارخ مع ما كانت تقوله الاستخبارات الأمريكية.
- تصريحات بوش وتشيني المتعلقة بالموقف فيما بعد الحرب على العراق لم تكن مبنية على ما أبدته الاستخبارات الأمريكية من قلق وخوف حول الاحتمالات المتوقعة.
- تصريحات (بوش) و(تشيني) قبل أكتوبر 2002 بالنسبة لأسلحة العراق الكيماوية لم تكن تعكس رأي أجهزة الاستخبارات التي لم تتحقق من حقيقة وجود مثل هذه الأسلحة.
- تصريحات (رامسفيلد) من أن الحكومة العراقية لديها مصانع تحت الأرض لإنتاج أسلحة الدمار الشامل على الرغم من عدم تأكد الاستخبارات من صحة هذه المعلومات.
- إدعاء (ديك تشيني) عدة مرات وتصريحاته العلنية مراراً وتكراراً بحدوث لقاء بين (محمد عطا) مع أحد ضباط الاستخبارات

العراقية في بلغاريا عام 2001 وذلك على الرغم من عدم تحقق الاستخبارات من هذه الواقعة.

إذن نحن أمام متابعة واضحة تبدو غريبة في عالم الدول التي تقاتلت، أو تحاربت أو التي شن عليها حرب، أو التي تستعين بأمم أخرى من أجل حمايتها. فالعراق قانونياً ليس هنالك مادة تجيز شن الحرب عليه أو ضربه بالطريقة التي تمّت من قبل الأمريكيين، وقد حمّل الكل لوم ذلك على الأسماء التالية:

- الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن.
- نائبه ديك تشيني[1].
- وزير الدفاع رامسفيلد[2].
- ساندي بيرغر مستشار الأمن القومي[3].

---

(1) ترأس مجموعة تطوير سياسة الطاقة الوطنية في بداية فترة رئاسة جورج بوش الأولى. وتشير جميع التقارير إلى أن ديك تشيني كان له دور مهم في أحداث حرب الخليج. وذلك من جهة توقيت الحرب واختيار القادة الأمريكيين، ثم التنسيق مع البيت الأبيض ووزارة الخارجية والبنتاجون. كما تشير التقارير إلى أن عدداً من الأحداث، والعمليات العسكرية، التي جرت أثناء الحرب، كانت من تخطيطه المحكم. أنظر: http://en.wikipedia.org/wiki/Dick_Cheney.

(2) ولد 1932 وزير الدفاع الأمريكي الأسبق ذلك منذ عام 2001 وحتى عام 2006 عندما قدم استقالته. وهو الشخص الأكبر عمراً الذي يتولى هذا المنصب وكان أيضاً الأصغر عندما كان وزيراً للدفاع في زمن الرئيس الأمريكي (جيرالد فورد). يعتبر (رامسفيلد) واحد من أهم الأعضاء في ما يسمى بالصقور أو بالمحافظين الجدد، وهو من المؤمنين بالإمبراطورية الأمريكية وباستخدام القوة لتحقيق الغايات. أنظر الموقع:
http://en.wikipedia.org/wiki/Donald_Rumsfeld.

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Sandy_Berger.

- بول ولفويتز نائب وزير الدفاع[1].
- ريتشارد بيرل رئيس لجنة الاستشارية لمجلس السياسات الدفاعية[2].
- الجنرال تومي فرانكس قائد القيادة الوسطى الأمريكية[3].

(1) مواليد 1943 في نيويورك، عمل في وزارتي الدفاع والخارجية، كما تمّ تعيينه سفيراً لدى إندونيسيا العام 1986، إذ اكتشف الإسلام المعتدل وأعلن انفتاحه على الحوار سياسياً وثقافياً مع الحضارة الإسلامية، يعتبر (ولفويتز) منّظَراً نموذجياً للسياسة الخارجية الأميركية. وهو يؤمن بأن لدى بلاده مهمة جليلة تقضي بنشر الديمقراطية والحريات في العالم على الطريقة الأمريكية. كان مسؤولاً عن الشرق الأقصى في وزارة الخارجية، إذ تشير نبذة عن حياته إلى قيامه بتنسيق السياسة الأميركية تجاه (الفلبين) مؤيداً انتقالاً هادئاً للسلطة فور الانتهاء من دكتاتورية (فرديناند ماركوس). وتولى منصب مساعد وزير الدفاع (دونالد رامسفيلد) وفي إدارة أضخم موازنة في الإدارة الأميركية والتي وافق مجلس الشيوخ بالإجماع على تعيينه في هذا المنصب العام 2001. ، إذ تبدي الأوساط اليمينية تقديراً خاصاً له. انظر الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Paul_Wolfowitz.

(2) تولد عام 1941، أحد أهم منظرّي السياسة الأمريكية ومن أبرز من دعوا لدخول القوات الأمريكية إلى المنطقة، ويرى بأن العراق هو الهدف التكتيكي للحملة، والسعودية هي الهدف الاستراتيجي (و كان يدعو إلى التخلي عن السعودية كحليف لأمريكا)، أمّا مصر فستكون الجائزة الكبرى، كما كان يدعو علناً إلى تغيير النظام العراقي أو صدام بالذات. ويعتقد بأن على أمريكا تغيير كلّ النظم الديكتاتورية في العالم، وخصوصاً الأنظمة العربية، منزعج جداً من السعودية باعتبارها حاضنة الإرهاب العالمي، وكان يسمي العلاقة مع السعودية بالعلاقة (الشاذة). أنظر:
http://en.wikipedia.org/wiki/Richard_Perle.

(3) من مواليد 1945، شارك كرئيس ركن في حرب العراق، ذو صفات متميزة في القدرة التخطيطية العسكرية، مثقف تعرف على الإسلام من خلال بحوث المستشرقين الجدد وليس القدماء أي (برنارد لويس) و(ادوارد سعيد) وغيرهم، متميز في احترامه للأديان، في الوقت الذي كان يرى في القوة هي الوسيلة الأخيرة في رفع الظلم عن الناس أينما كانوا. أنظر الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Tommy_Franks.

- جون أبي زيد نائب الجنرال فرانكس[1].
- ديفيد كاي مفتش الأمم المتحدة[2].
- ريكاردو سانشيز قائد القوات البرية[3].
- كولن باول وزير الخارجية[4].

(1) من مواليد 1951 قائد القيادة المركزية الأمريكية (27 قطراً) لبناني النشأة من قضاء (جزين) قرية (مليخ) في جنوب لبنان. له شخصية متمكنة يجمع ما بين العلم العسكري وبين التأريخ لما عرف عن أهل هذا القضاء (جزين) من قدرات علمائية وثورية، تمّ إناطة مهمة القيادة الوسطية له بعد أن ظهر تمكنه من الثقافتين العربية الإسلامية والأمريكية. وهو يجمع ما بين العمل العسكري والانجاز العلمي، كان يرى بأن وجود نظام كما هو نظام صدام يشكل نقطة سوداء في التأريخ الأمريكي، لما يمتلكه هذا النظام من ديكتاتورية متميزة. أنظر ترجمته في: http://en.wikipedia.org/wiki/John_Abizaid

(2) وهو خبير البحث عن أسلحة الدمار الشامل ورئيس أول بعثة إلى العراق، باحث معروف يحمل شهادة الدكتوراه كما أن له بحوثاً مهمة في الدول التي تضررت من الديكتاتورية. استعانت به القوات الأمريكية بعد الدخول إلى العراق للوصول إلى أسلحة الدمار الشامل والتي لم يتمكن من أن يحققها، فاستقال من منصبه في كانون الثاني 2004 بعد أن سبب الكثير من الإحراج إلى إدارة بوش. كان رجل ذا توجهات قيادية. أنظر الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/David_Kay

(3) شخصية عسكرية من أصول مكسيكية أمريكية له قدرات واسعة في العلوم العسكرية ويتميز بأنه مطلع على تأريخ الحروب في الشرق الأوسط. أنظر ترجمته في الموقع: http://en.wikipedia.org/wiki/Ricardo_Sanchez

(4) ولد في نيويورك عام 1937 من أبوين مهاجرين من (جامايكا)، شخصية عسكرية كبيرة ومتمكنة، أهم ما يضع نقاطاً على شخصيته هو تركه الجمهوريين وانضمامه إلى الديمقراطيين. وهو تحوّل خطير غالباً لا يلجأ إليه سياسي مثقف معروف، لأنّ ذلك يعتبر قدحاً في إيمانه نحو معتقداته. يفهم الإسلام جيداً ويرى بأن الجانب السياسي في الإسلام يحتاج إلى مراجعة من قبل العارفين بواقع الدين. كما يؤمن بالقوة في تغيير الديكتاتوريات. أنظر الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/Colin_Powell

- الرئيس الأب جورج بوش[1].
- طوني بلير رئيس الوزراء البريطاني.

إنه ليس من الصعب لنا بعد دراسة نوعية الشخصيات التي حكمت أمريكا في ذلك الوقت أن نكتشف مدى التوافق الفكري الفلسفي في نظرتهم إلى مستقبل المرحلة المقبلة في توجيه حكومات الدول نحو الديمقراطية المختلطة بفضائل أو مبادئ من نوع مّا سواء أكانت مبادئ سماوية أو قيّم تراثية وضعية.

فبعض هذه الشخصيات من اليهود وبعضهم من المسيحيون وبعضهم لا دينيون تجمعهم فكرة كبرى وهي ثقافة التخلص من حالة عبودية الدولة إلى الحاكم، أو أن يكون الشعب هو من يفرض رأيه على الحاكم وليس العكس. كما أننا ليس من الصعب أن نتبين التوجه الذي اختار على أساسه بوش الابن طاقمه والمساعدين له والذين تميزوا بأنهم بالإضافة إلى تخصصهم (Professionalism) فهم مثقفون مطّلعون على مجريات تأريخ الأمم، فكانت آراؤهم فيها الكثير من العقلانية التي تجانب أحياناً السياسة التي هي توجه براغماتي.

فكان من قادة من انتدبهم بوش الابن للعمل معه في موضوع الدخول إلى العراق هو الشخصية المميزة (بول وولفوتز) ذو الأصول البولونية

(1) غني عن التعريف مواليد 1924 فهو يعتبر من أكثر الرؤساء الأمريكان خبرة وثقافة، ثقافته الواسعة وتسنّمه منصب (السي أي أيه) أضافت على شخصيته الكثير من المعرفة. فهو قريب من الإسلام ومن مذاهبه، ويعرف مدى تأثير التسلط الديني على واقع مسيرة الدول الإسلامية. حريص على الفلسفة الأمريكية في أن تتمكن من تحرير المضطهدين في العالم. محافظ وجمهوري يؤمن بالفلسفة الأمريكية في تغيير الشعوب. أنظر ترجمته على الموقع التالي: http://en.wikipedia.org/wiki/George_H._W._Bush.

الذي عانى أجداده في ذلك القطر من الاضطهاد النازي باعتبارهم يهود في الوقت الذي كانت الحرب مستعرة على اليهود والمسلمين وهو امتداد لظاهرة (محاكم التفتيش) (Spanish Acquisition) منذ القرون الوسطى.

كانت هذه الشخصية عميقة الفهم بعيدة الغور متفهمة لحاجة شعوب العالم الثالث بالإضافة إلى إدراكها الكامل إلى حقيقة أهمية الأديان في نشر مبادئ الفضائل فيما بين شعوب المنطقة. كما أنه اطلع أيضاً على الصراع الدائر في العراق منذ قرون مع تفهم لما عاناه هذا الشعب من التوجه الطائفي والحقد الذي تبنته الحكومات المتعاقبة.

كذلك نجد الشيء ذاته مع سكرتير الأمن القومي (ساندي بيرغر)، كذلك مع (أبي زيد) الشخصية العلمية المتميزة، مضافاً إلى كلّ من أولئك القدرات التي كانت تمثل العقل الذي أدار فكرة الدخول إلى العراق.

وليس هنالك أهم من أفكار (ريتشارد بيرل) في قوله بأن العراق هو هدف مرحلي، بينما عيننا على السعودية التي تمثل قمة الفكر الاستعبادي الذي يحمله إنسان اليوم إلى الناس، وهو النظام الذي كان يختزن كلّ سلبيات الفكرة العشائرية والدينية المزيفة المغلفة بالتراث الذي ابتدعته أيدي الحكام في سبيل السيطرة على مقدرات الأمم باسم الإسلام.

هذه الفئة من السياسيين كانوا قد صنعوا فكرة بناء مستقبل العالم من خلال الدخول إلى العراق وتحريره، ثم مواصلة نقل رسالة الديمقراطية إلى أمم المنطقة، وسيكون عندئذ هنالك عالم آمن بعيد عن سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان.

كل تلك الشخصيات كانت تجمعهم أفكار الدين بتنوعاتها الإبراهيمية الثلاثة والتي تشترك في مفهوم التحرر من عبودية البشر، فهذه العقليات غالباً ما تكون توجهاتهم وأفكارهم أكبر من موضوع الانتماء الديني الواحد، بل إنهم كانوا يرون في أمريكا بأنها القادرة على صب مبادئ الأديان الإبراهيمية في قالب جديد يخرج منها توجه (ديني مدني) وليس (ديني سياسي) وهو الذي سيكوّن الفكر الذي يحكم العالم من خلال الفضائل التي تختزنه كلّ تلك الأديان الثلاثة.

تأريخ وخلفيات

تغيير مُحتّم: إنّ واقع الدين في المجتمعات الغربية متذبذب ومتغير تبعاً للحالة السياسية التي مر بها خلال القرون المنصرمة، ومنذ ظهور المسيح وإلى الآن. فالمسيحية في الأصل هي ديانة تتعلق بواقع علاقة الإنسان مع الخالق من خلال الكنيسة أو ممثل الرّب على الأرض وهو (البابا) أو القساوسة، مع أن الديانة المسيحية كأي ديانة أخرى تنظر إلى حياة الإنسان بما هو مجمل وعام، ولا تفصل جانبه الاجتماعي عن جانبه الديني، أو الغيبي، ولكنّ السلوكيات وطريقة تفسير الدين وصل إلى المتبعين بهذه الصورة من المحدودية في تقسيم حياة الإنسان إلى أشياء كلّ منها يرتبط بالأخرى، ولكنّ ليس بالعامل المباشر.

ولذلك فقد قيل سابقاً بأن الديانة المسيحية تفصل الدين عن الدولة، وأن ما لله لله وما لقيصر لقيصر. مع أن هذه المقولة لا تبدو للعيان إلّا بأنها فصل اصطناعي وليس واقعي، فليس هنالك من قدرة أن يفصل الإنسان مثلاً صحته عن أفكاره، أو عن اقتصاده، مع أن لكل منهم مجاله. ولكنّ لكل منهما تأثير على الآخر بالدرجة التي تقترب أو تبتعد بما يتعلق أحدهما بعوامل التأثير.

فقد حكمت الكنيسة أوروبا منذ القرون الأولى لظهور المسيح، أو

اعتناق الدولة للدين المسيحي في القرن الثالث الميلادي إلى حين القرن السادس عشر، عندما ابتدأت الثورة الفرنسية في انطلاقتها في عام 1789 والتي على ضوئها بدأت المسيحية كديانة تأخذ حجمها الغيبي في مؤسسة سميت (الفاتيكان) التي هي كلمة الإله على الأرض، وبين شكل الدولة التي أسسها الناس من خلال عملية الديمقراطية والانتخاب وبشكل تعلّم الإنسان وبمرور التجربة كيف يمكن له أن يحكم نفسه، وهو أمر طبيعي أراده الله لعباده أن يتعلموا كيف تبنى جوانب إدارة شؤون الناس في تركيبة الدولة، أو يبنوا الحضارات وأن يتعلموا كيف يتعامل الإنسان مع أخيه الإنسان بالشكل المتناسق مع قيم الفضائل الفطرية الأولية التي زُرعت في النفس منذ بدء خلق الإنسان.

وهكذا تحوّلت المسيحية من شكل عام غير منسق إلى شكل منسق له اختصاصاته وله واجباته، فمن يؤمن بأن الدين كلمة الله، وأن (البابا) ممثل الإله على الأرض فهذا شيء تابع له، وعليه أن يلتزم بما آمن به من هذه المبادئ التي أقرتها سنن المسيحية التي وصلت إلينا.

وهنالك من يرى غير ذلك عندما يقترب من فكرة الدولة التي تُبنى على فكر الإنسان باعتباره هو الذي له أن يكتشف طرق تنمية قدرات مواهبه لكي يحقق أكبر قدر من علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، وهو الذي يطوّع له الطبيعة في أن تعطيه كنوزها وثمارها بما يحقق له السعادة على الأرض.

وهؤلاء يعتقدون أو يرون بأن الدولة هي من صنع الإنسان فقط، فعليه أن لا يخطئ في تركيبتها وفي وضع قوانينها، وفي تشريع سنن مجحفة بالبعض وظالمة للبعض الآخر، لأنّ الظلم عامل هدّام لكيان

النسيج الاجتماعي، وعليه وجدوا أنه لمن المهم أن تكون الدولة عبارة عن اشتراك الشعب كله في وضع مشروعيتها، ووضع شكلها العام وإطارها القانوني بعيداً عن الصيغ الثابتة التي يقرها الدين، باعتبار أن الدين مُنزّل من إله والإنسان لا يمكن له أن يقف أمام إله ويغيّر ممّا وضعه له. وعليه فإنه على الإنسان أن يكتشف بل يستنبط من قدراته شكلاً من أشكال الدولة تتوافق مع متطلباته وحاجاته الفكرية والاجتماعية. ووضعت لهذا التخصص شخصيات مختلفة عن شخصيات الدين سموا في العرف العام (سياسيون) وهم الذين لهم إدارة شؤون الناس وعلاقاتهم في تنظيم واقعهم المعاشي والاجتماعي.

وعلى هذا المفهوم نرى بأن الدولة في العرف المسيحي نجحت بصورة أكثر تلائماً مع واقع إنسان اليوم، بسبب الفصل في التخصصات وتوجيه تلك التخصصات إلى أناس قادرين على تحمل أعباء المسؤولية، فتقدم العقل الإنساني وبرع في رسم سياسات العلاقات والدول. مع أن البشرية منذ ذلك التاريخ قد مرت بحربين عالميتين وتعلم من خلالهما الإنسان الأوروبي كيف يمكن له أن يتجنب أن يدخل في حرب ثالثة تدمّره بل تدمّر الجميع، لأنّ أدوات الحرب ستكون متمكنة من أن تبيد الإنسان لما خلقت له العلوم من قدرة على قتل الإنسان لأخيه الإنسان.

فصارت الصناعات والطب والاكتشافات والتكنولوجيا زاد الإنسان الغربي اليومي الذي تحول إلى جزء من قانون العلاقات الإنسانية وقانون الدول وطريقة تسييرها. وتحولت الديمقراطية إلى أداة مهمة من أدوات تنظيم عملية المناغمة بين عقول المجتمع إلى الدرجة التي

تتحول كلّ تلك النغمات إلى سمفونية مهمة ورائعة بل مطربة يستسلم لها الكثير من الناس عند سماعها.

الأديان ومركزيتها: العالم اليهودي هو شكل من أشكال العالم المسيحي وكلاهما ذوا الأرضية في الفهم لعلاقة الدين مع الدولة. وعندما نتكلم عن اليهودية فإننا نعني بها كديانة أيضاً. مع أن اليهود هم قوم أو (قومية) أي (قبيلة) تجمعهم في ديانة هي الديانة اليهودية (فاليهود) هو مصطلح لقوم (واليهودية) هو مصطلح لديانة كما يقال عن الإنسان المسلم الذي يعني بأنه ينتمي إلى الشرق الأوسط، بينما انتماؤه إلى الفكرة الإسلامية يعني بأنه يمارس تقاليد من دين اسمه الإسلام.

ولكنّ عموماً اليهودية في نظرتها إلى الفصل الاصطناعي بين الدين والدولة شيء لا يختلف عن المسيحية، ولذلك فسوف لا نركز عليه في حديثنا هنا.

المسيحيون واليهود وخلال العقود ما بعد القرن السادس عشر الميلادي وإلى حين نهايات القرن الماضي وبسبب علمانية الدولة برز في أواسطهم من يرى بأن الدين عنصر مثبط لمسيرة الدولة، وأنه لولاه لما حصلت المذابح، ولما قامت محاكم التفتيش وقتل ملايين البشر في العالم. ولذلك فإن الدين يجب تحديده في أماكن العبادة، وعلى المتدينين أن يتحركوا فقط في اختصاصهم كما على الدولة أن لا تسمح في أن يعاد للدين قوته وأن يحدث كما كان الأمر في القرون الوسطى.

وبرزت أمام هذه الفكرة الكثير من المبادئ والمذاهب بعضها ينحى هذا المنحى، وبعضها تخفف منه بالشكل الذي يريد حفظ الحاجة

الروحية التي أنفطر عليها الإنسان في أهمية الدين لحياته[1] إلى أن وصل عدد المذاهب المسيحية إلى ما يقارب من 41 ألف قسم أو مذهب[2].

كما تمّ إحياء مفاهيم قديمة تقترب من فكرة الابتعاد عن الدين كمفهوم (العلمانية)[3]. كما استعمل مفهوم الإلحاد[4] ومفهوم

(1) ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: 30].

(2) يسمى المذهب أو التفرع الديني في اللغة (Denomination) مع أن الكاثوليكية لا ترغب أن تشتمل بهذا الاصطلاح باعتبارها هي الأصل، أنظر:
http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_Christian_denominations.

(3) (Secularism) والذي كان قد استعمل لأول مرّة في منتصف القرن التاسع عشر، وكان له معنىً أيديولوجياً، وهو استعمال الأخلاق لرفاهية الإنسان من الناحية العقلانية، مع عدم تعلّق هذا المفهوم بالعالم الآخر، أو بالجانب الثيولوجي، ثم بعدها استعمل في مجال التعليم في أن يكون غير ديني، ثم استعمل في معناه العام في القرن العشرين بالمعنى اللاديني أي (Separation) أو بالفرنسية (Laicisme).

(4) وصف لأي موقف فكري لا يؤمن بوجود إله واعٍ للوجود، أو بوجود (كائنات) مطلقة القدرة (الآلهة)، والإلحاد بالمعنى الواسع هو عدم التصديق بوجود هذه الكائنات (الآلهة) خارج المخيلة البشرية. لأنّ شرط العلم (بحسب أفلاطون) هو أن يكون المعلوم قضية منطقية صحيحة، مثبتة، ويمكن الاعتقاد بها، ولما كان ادعاء وجود إله، بحسب الملحد، غير مثبت فإن التصديق بوجود إله ليس علماً، وإنما هو نمط من (الإيمان) الشخصي غير القائم على أدلة، وما يُقدم بلا دليل يمكن رفضه بلا دليل. ومن هذا فإن الإلحاد الصرف هو موقف افتراضي، بمعنى أنه ليس ادعاءاً وإنما هو جواب على ادعاء بالرفض. ويعرّف الإلحاد من وجهة نظر كثير من الأديان بأنه إنكار للأدلة العلمية والعقلية ونحوهما على وجود صانع واعٍ للكون والحياة، ومستحق للعبادة (الله). ليست هناك مدرسة فلسفية واحدة تجمع كلّ الملحدين، فمن الملحدين من ينطوي تحت لواء المدرسة المادية، أو الطبيعية، والكثير من الملحدين يميلون باتجاه العلمانية والتشكيك خصوصاً فيما يتصل بعالم ما وراء الطبيعة. ويقول بعض =

اللاأدريّة[1]. ثم انتشرت فيما بعد الحرب العالمية الثانية أفكار الشيوعية التي غزت العالم الثالث وتبنت مفاهيم الابتعاد عن الدين بما يقوله (ماركس) بأن الدين أفيون الشعوب. ولم تتخلف الديانات الأخرى في العالم: الإسلامية والكونفوشية والبوذية التي كانت العقيدة الشيوعية قد ضربت أطنابها في تلك المجتمعات ممّا أصّل حالة الابتعاد عن الدين كمفهوم مهم من مفاهيم الحياة.

في نهاية السبعينيات من القرن الماضي تغيّر العالم، وبدأت موجة التوجه أو العودة إلى الدين تبدو ظاهرة ملحوظة في كلّ الأديان، بل في كلّ أقطار العالم، فالمسيحية الديانة الكبرى بدأت الشعوب تتلمس منها أن تقدم لها ما يشبع جانبها الروحي، وهو ما دفع (البابوات) إلى العمل بصورة كبيرة ما بين الشعوب، ونشطت (الفاتيكان) بعد أن كان دور (البابوات) هو الكنيسة فقط.

وانشرت الفكرة في ربما كلّ الديانات، وبدأ الناس يرون بأن الثورة الإلحادية التي كانت قد عششت في أذهانهم لم توفر لهم الراحة الذاتية والنفسية فعادوا ثانية إلى الدين، مع أن البعض يرى بأن ذلك

= الملحدين بأنه ليس هناك عناد بين الإلحاد ودين البوذية لأنّ البوذيين أو بعضهم يعتنقون البوذية ولكنهم لا يعتقدون بوجود إله.

(1) أول من وضع المصطلح اللاأدرية هو (توماس هكسلي) عالم الأحياء الانكليزي عام 1869 وهو يعني الاعتقاد بأن وجود الله والميتافيزيقيات أمور لا سبيل إلى معرفتها. وكلمة (اللاأدري) تعني (بلا دراية أو علم). هناك بعض الاختلافات بين الإلحاد واللاأدرية، فالإلحاد يرى أن الله غير موجود. بينما ترى اللاأدرية أنه لا يمكن إثبات وجود الله، ولا توجد طريقة لإثبات عدم وجوده، وأن التدين من صنع بشري.

كان بسبب نجاح أول ثورة دينية في العالم ما بعد انحسار الدين في القرن السادس عشر الميلادي بالنسبة إلى المسيحية وبداية القرن العشرين بالنسبة إلى المسلمين تلك الثورة هي الثورة في إيران، التي قادها رجل دين يعتمر زي الدين وينادي بعودة مفاهيم السماء وتطبيقها على مفاهيم المجتمع، مع أنه لمن نافلة القول في الإشارة إلى أن نكسة حزيران من عام 1967 كانت البداية التي بدأت بها مسيرة التفكير بعودة الدين.

الدين والعلم والأخلاق: إنّ فكرة العودة إلى الدين لم تنحصر في الشرق فقط، بل أنها انتشر في الغرب بشكل ربما أكثر منه في الشرق، فعادت المؤسسات الدينية الكنسية واليهودية وبقية الديانات المنتشرة ومنها المسلمة إلى واقعها، وبدأت المظاهر الدينية تُرى في الشارع وفي الدوائر وفي المدارس وفي داخل البيوت والتلفزيون وما إلى ذلك، كما بدأت زيارات (البابا) إلى الدول تأخذ طابعاً أكثر دراميأ في التحرك نحو الأقطار التي تدين بالكاثوليكية، أو التي لا تدين بها، فأصبح (البابا) يمثل رمزاً للسلام، وليس رمزاً للمسيحية كما يراها البعض من الديانات الأخرى، ومن غير المنتمين إلى المذهب الكاثوليكي.

كما أن البعض كان يرى في عودة الدين عاملاً طبيعياً في دورة فكر الذاتية الأنانية التي ترغب في الانتقال من حالة إلى حالة، كإشباع لحالة الفضولية (Curiosity) التي فطر عليها الإنسان كجزء من طريقة أنبتتها القدرة الربّانيّة كدافع للإنسان في سبيل تطوير حياته ونفسه،

وليس كما يقول المتدينون بأنها استجابة إلى الثورة الإسلامية في إيران. . .

على أية تقدير ومهما كانت الأسباب، فإن العالم بدأ يلحظ تغيراً في مفاهيم الدين باتجاه إيجابية تقدير الدين وتقدير فضائله، وقد انعكس ذلك ليس فقط على مستوى الشارع والعائلة، وإنما انتقل بالدرجة الأولى إلى عالم السياسة، وإلى الشخصيات الحكومية المتنفذة في أمريكا. وتحولت فكرة الدين ليس إلى فكرة مجردة، كما كانت فيما قبل ذلك التأريخ، وإنما اقترنت فكرة التدين بالسلوك للشخص السياسي الذي يتوقع منه المجتمع الأمريكي أن يتحلى بأعلى قدر من صفات الفضائل والأخلاق من قبيل رفض الكذب، ورفض الاعتداء، واحترام العائلة، ونبذ الزنا، والعلاقات المحرمة[1] والذهاب إلى الجوامع، أو الكنائس أو المعابد التي يرتادها أتباع الديانات الأخرى.

---

(1) الكثير من الغربيين بات يصرّ على (العذرية)، هناك الكثير من الناس في الغرب المؤيدين للـجنس في الزواج فقط لأسباب دينية أو أخلاقية، ومن أرفع الأسباب هي أن (العفة) قبل الزواج نوع عالٍ من الحسنات، وهذه المجتمعات تربي الأطفال والمراهقين والمُحْتَلِمين والناس الغير متزوجين على الامتناع عن الجنس حتى يتزوجوا. في الكثير من الثقافات الحالية والمنصرمة، القاصرون وخاصةً القاصرات يتوقع منهم العفة حتى الزواج والإخلاص للزوجة فيما بعد. ولذلك معنى العفة (Chastity) في تلك الثقافات هي الامتناع عن الجنس قبل الزواج (Abstinence) وفي الطلاق أو الافتراق للبعض العفة تدل على الصفاء في الشخصية ويطلبون ترك الجنس إلى حين الزواج. هناك الكثير من الثقافات الأمريكية ترى أن السبب الوحيد للجنس هو التكاثر. فقد نشر معهد (CDC) بان معظم طالبات المرحلة الثانوية في أمريكا هن عذارى إلى حين الزواج.
Morbidity and Mortality Weekly Report 55:SS-5 (June 9, 2006.)

فالمتدين أصبح في الغرب هو الشخص الذي تفتخر به العائلة، أو رب العمل أو الجامعة أو مؤسسة الحكومة، فعندما يُراد أن يتم مدح إنسان ما بدرجة كبيرة فإنه يقال عنه بأنه شخص يذهب إلى الكنيسة.

انتقلت هذه الحالة بصورة تلقائية إلى السياسة والسياسيين، وصار الشعب يفضل المتدين على غير المتدين تلقائياً، كما تمّ تطبيق الكثير من مفاهيم العائلة التي كانت الكنيسة تدعو إليها مثل: الإجهاض، وحرمة استعمال حبوب منع الحمل، وتفضيل جنس الذكر على جنس الأنثى. .الخ. وقد أدت هذه الحالة في مبادرة الحكومات الفدرالية والمحلية إلى إصدار تهنئة في أعياد الديانات المختلفة في أمريكا على وجه الخصوص، ودعوة شخصيات دينية في مناسبات سياسية لا علاقة لها بالدين إلى المراكز الحكومية للمشاركة في إظهار احترام الدين ورجاله. وهكذا نرى الكثير الكثير ممّا يمكن أن نذكره في هذا المجال الذي يبين التوجه الديني للإدارة والشخصيات السياسية الأمريكية لما للدين من تأثير على حياتهم، وليس من باب التحابي أو التظاهر أو شراء الذمم أو الصوت الانتخابي.

مع أن الكثير كما نعلم كان قد ركب الموجة في استعمال الدين لتحقيق طموحات شخصية أو سياسية في أمريكا أو في خارجها، وهو أمر طبيعي في تركيبة الإنسان.

مذاهب الدين مدارس السياسة: هنالك أنواع من المتدينين الأمريكان ممّن سار في الموجة الجديدة، الكثير منهم كانوا ذوي توجهات وطموحات غير سياسية أو شخصية، كما هم طائفة (الأنجليكيان) التي تعتبر الّلوبي المسيحي في أمريكا. . . . . من

شخصياتهم هو (كاري فارويل) (ت 2007) وكذلك (بات روبرتسون) و(بل كراهام) وغيرهم يعدون بالمئات.

وهنالك نوع من الأمريكان يرون في أن أمريكا هي حضارة مسيحية يهودية، وعليهم أن يعملوا باتجاه رفع مستوى المجتمع الأمريكي بما هي تعاليم المسيح.

وهنالك من المسيحيين المتدينين الإنسانيين وهم المجموعة التي ترى بأن ابتعاد أمريكا عن الدين المسيحي سيسبب في كارثة كبرى إلى الشعوب الغربية.

وهنالك مجموعة ممّن يرى بأن الحرب بين المسيحية وبين الإسلام حتمية، فعليهم أن يعملوا على التهيئة للحرب من خلال تقوية إسرائيل.

ومن المسيحيين الذين لا يرون في هذا من شيء، وإنما يرون في المسيحية طريقة مهمة من طرق رفع مستوى الشعب الأمريكي بشكل منفصل عن السياسة.

وهنالك مدارس دينية أخرى مختلفة من الممكن مراجعتها في مواقع كثيرة على الأنترنيت[1].

في زمن (كارتر) عندما انطلقت أول ثورة دينية في العالم بعد قرون من انحسار الدين عن السياسة عام 1979 تغيرت التوجهات، وانبرى إلى التغيير ذلك مجموعة (الإنجيلكيين) الذين يشتركون مع اليهود في تراثيات ظهور المسيح في فلسطين. ودخلوا في صراع مع (كارتر) لإطاحته، وبعد ذلك كان لهم مع (ريغان) برنامج انتخابي مشترك فقد

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Religion_in_the_United_States.

صرفوا ملايين من الدولارات في سبيل تثبيته في سدة الرئاسة، وهي أرقام منشورة في كتب (الأنكليكيان)[1] وليست بخافية على الجميع.

حجم هذه الطائفة هي 26% من عدد مسيحي أمريكا الذين يمثلون 73% من نسبة الأديان[2] الذين يأتون بالتسلسل التالي 48% بروتستانت، 22% كاثوليك، 26% انكليكيين.

وجدت الكثير من التفرعات الدينية في البداية بأن النهضة الدينية التي انطلقت في الشرق هي مشابهة لظهور كلّ الأديان الإبراهيمية في بداية الأمر أي (اليهودية، المسيحية، الاسلامية) والتي كانت قد انطلقت من الشرق وليس من الغرب، فهذه النهضة الجديدة كانت مشابهة لتلك قبل أربعة آلاف عام على وجه التقريب. ولكنّ الملفت للنظر أنّ هذا التفكير العفوي للشعب الأمريكي لم يدم طويلاً خصوصاً بعد أزمة الرهائن الأمريكان فتحول إلى مشهد سياسي، وصارت الأمور توزن من خلال مشكلة صراع الحضارات والأديان.

وهنا انبرى لهذا الأمر أولاً (الأنكليكيان) بتأسيس لوبي في عام 1980 وهو كما ذكرت أول لوبي مسيحي. وهنا بدأت الحرب والمعركة الدينية بين الفصائل المختلفة المسيحية في إيصال مرشحيهم إلى البيت الأبيض كجزء من صراع الأفكار الدينية المسيسة. هذه المعركة الكبرى غيّرت من تفكير الساسة الأمريكان وخصوصاً أولئك الذين يمتلكون قدراً من الحس الوطني والشعبي والإنساني الذين كانوا

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Jerry_Falwell.

(2) راجع المصدر السابق (Religion in the USA).

يرون في أن أمريكا بقدراتها الكبرى عليها أن تقود العالم، ولكنّ على شرط أن تمتلك فكراً دينياً موازياً إلى الفكر السياسي والاقتصادي على مستوى الفرد، وليس على مستوى الدولة، باعتبار أن كلّ الطوائف المسيحية تقر بضرورة فصل الدين عن الدولة. وهذا أمر لا يمكن النقاش فيه، ولكنّ يجب على أمريكا أن يمتلك شعبها قدرات كبيرة تحمل فضائل التدين الذي من خلاله تتمكن أن تنفتح على الشعوب العالمية بعنوان الإنسانية.

هذه الفكرة بدأت تظهر ربما على كلّ الشخصيات السياسية التي تعمل في الكونغرس أو السياسة، وبدا التطرف الديني في نبذ الآخر أمراً لا يستسيغه السياسيون مع أنه انتشر فيما بين الشعب الأمريكي بطريقة أو بأخرى.

وصل الأب بوش سنة 1989 إلى سدة الحكم بعد أن استفحلت الفكرة الدينية في الوسط الأمريكي السياسي في الوقت الذي تمكنت أمريكا من أن تصل إلى ذروة قوتها بعد أن نفّذت (حرب النجوم)، والتي من خلالها أجبرت الاتحاد السوفيتي على قبول اتفاقية (ريكيافيك) 1986 وقد تمكنت الدولتان من خلالها من تخفيض الأسلحة النووية ورث بوش ليخلف (ريغان) الذي كان يشغل مركز النيابة له لفترتين رئاسيتين، والتي كان قبلها يشغل مركز مدير الاستخبارات الأمريكية مع وظائف متماثلة، قاد بوش الأب أمريكا إلى أكبر إنجاز إنساني على مستوى العالم وهو إسقاط الاتحاد السوفيتي ثم تحرير الكويت.

العائلة جذور الفكر: عائلة بوش عائلة ناجحة تعمل في البنوك وفي

التصنيع منذ زمن أب العائلة اسمه (عبادیا) أو (عبد الله) (Obadiah) توفي عام 1851[1] وهو اسم غير موجود في أمريكا الآن بين المسيحيين. والعائلة لها تأريخ انجازات كبرى[2]، وهي عائلة مميزة متدينة تنتمي إلى طائفة تدعى (Episcopal)[3] إلى حين عام 1977

---

(1) Biblical theophorical name, meaning "servant of Yahweh" or "worshipper of Yahweh. It is related to "Abdeel", "servant of God", which is also cognate to the Arabic name "Abdullah" (عبد الله) or "Obaidullah". (عبيد الله) Turkish name Abdil (عبدو) or Abdi (عبدي). The form of Obadiah's name used in the Septuagint is Obdios; in Latin it is Abdias. The Bishops. Bible has it as Abdi. (New Bible Dictionary, second edition. Tyndale House Publishers, Inc., Wheaton, IL, USA), http://en.wikipedia.org/wiki/Bush_family.

(2) اثنان من العائلة كانا سناتور، وواحد في المحكمة العليا، واثنان حكام ولايات، ورئيسان أمريكيان.

(3) يطلق عليها أحياناً (الكنيسة الأسقفية البروتستانتية) وهي كنيسة بروتستانتية وطائفة أنجليكانية رئيسية في الولايات المتحدة تعتبر من أكبر الطوائف البروتستانتية في أمريكا الشمالية حيث عدد معتنقيها مليوني وربع مليون أمريكي. تنتشر في هندوراس وتايوان وفنزويلا وهايتي وجمهورية الدومنيكان وكولومبيا والجزر العذراء البريطانية والإكوادور. وتعتبر أول كنيسة بروتستانتية تعيّن امرأة في منصب مطران كنيسة. اشتهرت الكنيسة بمباركة زواج الشاذين، ومعارضة العبودية، ومعارضة عقوبة الإعدام، تأييد الحقوق المدنية. وتعتبر أول كنيسة أمريكية تبارك زواج القساوسة. وهذا سبّب حدوث جدل في الكنائس الأنجليكانية في العالم. كما أن الآباء المؤسسين للولايات المتحدة كان أغلبهم من أبناء الكنيسة الأسقفية مثل جورج واشنطن وبنجامين فرانكلين وغيرهم. واشتهرت بكثرة رؤساء الأمريكيين ومشاهير المؤمنين بها، كما اشتهرت بكثرة العلمانيين والليبراليين وقلة محافظين منهم. كما ويعتبر أتباع الكنيسة الأسقفية الطائفة المسيحية الأكثر تعلماً وثراءاً في الولايات المتحدة، ولدى الأسقفيين أعلى نسبة من الحاصلين على شهادة جامعية (76%) فضلاً عن 35% من الأسقفيين لديهم شهادات في دراسات عليا، ويشكلون أيضاً جزءاً من النخبة الثرية والمتعلمة =

بعدها تحولت إلى طائفة (United Methodist)[1] وهو مذهب جورج بوش الابن.

وقد عملت العائلة مع الشرق الأوسط في مجال النفط وهو التوجه الرئيسي في عملها خلال العقود المنصرمة. وقد فتح هذا النوع من الأعمال باب فهم الإسلام بصورة أقرب منه إلى البقية من السياسيين، خصوصاً هو أن الأب كان رئيساً للمخابرات الأمريكية ما بين 1976-1977 في زمن الرئيس (جيرالد فورد) (ت 2006) والذي كان يجب من خلال ذلك أن يتجه نحو الشرق الأوسط لمعرفة التفصيلات فيما يتعلق بأصول الصراع الدائر بين الحكام أصلاً وبين الشعوب، هذا بالإضافة إلى القضية الفلسطينية وتعقيداتها وواقع إسرائيل.

= والسياسية في الولايات المتحدة. راجع مادة الكنيسة الاسقفية الأمريكية على الموقع: http://ar.wikipedia.org/wiki/ الكنيسة_الاسقفية_الامريكية

(1) ثاني أكبر طائفة في أمريكا. في الولايات المتحدة وكندا سبعة ملايين، ويشكل أتباعها ما يقارب سبعين مليوناً في جميع أنحاء العالم. رأت الميثودية بأن الكنيسة الأنغليكانية قد ابتعدت عن الإيمان الحقيقي بسبب التدين الخارجي، فدعت الناس للعودة لأعماق الإيمان استنادا على نظام تقوي يقوم على التأمل، ولهذا السبب سميت بالميثودية (method = نظام). كانت هذه الحركة في بدايتها على شكل جمعيات، قامت لاحقاً بتنظيم نفسها في كنيسة مستقلة عن الكنيسة الأنغليكانية عام 1784م، ولم يحدث تصادم حقيقي بين الحركة الميثودية والأنغليكانيين حتى عام 1795م حيث أعلنت الحركة خروجها عن كنيستهم نهائياً ورسمياً. تعترف الكنيسة الميثودية بقانون إيمان الرسل وتترك لأفرادها حرية الإيمان بكل أو ببعض ما ورد فيه، وتركز بصورة كبيرة على المشاعر الروحية أو الخبرة الصوفية التي يعيشها المؤمن عند اهتدائه، وتؤكد على قوة الروح القدس وعلى حاجة الإنسان إلى إقامة علاقة شخصية مباشرة مع الله، وتطالب بالالتزام بالبساطة في العبادة، وعلى الحرص على مساعدة المحرومين. راجع مادة (ميثودية). http://ar.wikipedia.org/wiki/ ميثودية

وبعد انتخابه رئيساً كان الأب له نظرة متكاملة عن واقع المنطقة بما يتعلق بتركيبة الشعوب العربية وصراعاتها وكذلك عن اليهود ودورهم في فرض قوتهم على العالم. مع أن بوش لم يكن من المواجهين لليهود، ولكنّه كان يعتقد كبقيّة الجمهوريين بأن إسرائيل صارت عبئاً مكلفاً على أمريكا وأن عليهم أن يفصلوا المسار اليهودي الإسرائيلي عن المسار الأمريكي، فاليهود ومنذ تكوين دولتهم عبارة عن عيال على أمريكا في الوقت الذي اعتبرت أمريكا بأن إسرائيل هي ابنتها المدلّلة التي لا تتمكن من أن تتخلص من حبال حبها أو حبال مصالحها.

وجد بوش الأب بأن فكرة فصل المسارين أمر مهم جداً ليس ربما بغضاً باليهود، بل إنقاذاً لسمعة أمريكا التي لطّختها هذه العلاقة غير الشرعية ما بين الدولتين الكيانين، فقد كانت تصريحاته مزعجة جداً إلى اليهود لا باعتبارهم (ديانة) ولكنّ باعتبارهم قوة مسيطرة على القرار الأمريكي[1] وقد وجهت إلى بوش إهانة من خلال جده (بريسكوت بوش) الذي كان سيناتوراً والذي كانت مواقفه معادية لليهود بشكل جلي، وذلك بعد أن جمّد أموال النازيين في الحرب العالمية الثانية، ورفض إعطاءها كفدية إلى اليهود، هذا بالإضافة إلى مواقف كثيرة منشورة في الصحف الأمريكية وفي المواقع الإسرائيلية. ولكنّ السياسة الإسرائيلية كانت دقيقة جداً إلى الدرجة التي تُظهر للمسلمين والعرب بأن بوش الأب صديق لها أي إسرائيل لكي تثير الرأي العربي ضده.

---

(1) The Bushes and the Jews. Explaining the president's philo-Semitism. Anne E. Kornblut. Slate: APRIL 17 2002. http://www.slate.com/articles/news_and_politics/politics/2002/04/the_bushes_and_the_jews.html.

ولم يقتصر موضوع فهم بوش لمستقبل أمريكا بما يتعلق بإسرائيل ذاتها، بل إنه كان يرى في أهمية التغيير في التركيبة للدول العربية التي تسيطر عليها الديكتاتورية والعشائرية أمراً ضرورياً لمستقبل سلام العالم. وبذلك كان رأي الأب في أن يغير من مسار أمريكا تجاه الدول العربية وخصوصاً السعودية. وهنا نرى بل نفسر التعاون الإسرائيلي الخليجي في إسقاط بوش الأب في ترشيحه للرئاسة الثانية كما ذكرنا ذلك قبلاً أمراً حيوياً.

كما هو رأي آل بوش وخصوصاً الابن تجاه السيطرة اليهودية الإسرائيلية، كان الرأي تجاه العراق لا يختلف بشيء من ناحية النظرة البراغماتية التي لا ترى من مبرر لمساندة نظام صدام في حربه ضد العراقيين وضد المنطقة، فليس هنالك من مصلحة لا اقتصادية، ولا سياسية ولا عسكرية لمساندة صدام بما هو شخص. وهذه النظرة البراغماتية ربما منطلقة من النظرة الدينية التي يحملها بوش الابن من خلال مفاهيم المذهب الذي ينتمي إليه، وهذه بعض كلماته التي صرح بها باللغة الانكليزية التي تدل على ميوله الصوفية لحد ما على الطريقة المسيحية التي لا تختلف بالشيء الكثير عما هي في مفاهيم اتجاهات الصوفية في الإسلام وخصوصاً كلمات الإمام علي في نظرته إلى الناس وإلى العلاقة مع الرب[1].

<u>**إتحاد المبادئ سُنّة**:</u> وهو كما ذكرت (الميثولوجية) التي تتقارب مع بعض معتقدات المسلمين خصوصاً من جانب العلاقة التي يجب أن

(1) "When you accept Christ as your savior, it changes your heart, it changes your life,"

تكون مباشرة مع الله، وليس من خلال القساوسة كما تراها الكاثوليكية، كما أنه كان يرى بأن السلوك الذي كان صدام وابنه عدي يمارسه مع النساء وتحويل المرأة إلى عبدة للجنس (Slave Sex) فيها الكثير من الألم للمبادئ الإنسانية، هذا بالإضافة إلى أن المرأة في كلي المذهبين اللذين اعتنقهما الابن كان لها دور كبير ورئيسي في مسيرة الفكرة.

هذا خصوصاً إذا فهمنا بأن المذهب (الميثولوجي) كان بالأساس توجه إلى الفقراء من المسيحيين. وهو السبب الذي انفصل به عن (الانكليكان) (الأساقفة) الذين لم يكونوا يعيرون اهتماماً إلى هذا الموضوع... مع أنّنا نسجل على مبادئ هذا المذهب الانفتاح اللامحدود في موضوع (الزواج المثلي) وغيره من الأمور التي تتنافى مع أصل المسيحية الكاثوليكية.

ولكنّ يبدو أن هذه الحرية المنفلتة في التشريع لديهم جاءت لسبب الحصول على الصوت الانتخابي باعتبار أن (الشاذين جنسياً) يمثلون كما هي التقارير التي تنشرها الدراسات 2% من عدد نفوس أمريكا الشمالية، وإذا أضفنا لهم المؤيدين وما تبعهم فقد تصل إلى ضعف ذلك العدد، وهو رقم مهم في طريق الحصول على الصوت الانتخابي.

تبدو انطلاقة التعاطف مع المضطهدين من قبل الساسة الأمريكان أمراً غريباً في المجتمع العالمي والعربي، لأنّ السياسة والجانب الإنساني كما هي مفاهيمنا متناقضة[1]، فالسياسي هو الرجل الذي

(1) أو كما يقول البيت المعروف: قتل امرؤ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر.

يخلو قلبه من الرحمة التي حلت محلها القسوة والقتل والدمار بحيث تكون المبادئ الشيطانية هي التي تملأ قلبه وعقله. هذا في المفهوم القديم صحيح، بل أنه ربما المفهوم الذي وصل إلى شعوبنا العربية والشعوب العالمية، وكذلك الشواهد التي لمسناها خلال فترة حياتنا مع سياسيي العالم في القرن المنصرم على الأقل.

فالرؤساء الذين يذكرهم التاريخ وتذكرهم الكتب والذين استطاعوا أن يشيّدوا دولهم هم من النوع الأول (فحمورابي) و(نبوخذنصر) و(ستالين) و(ما وتسي تونغ) و(هتلر) و(موسوليني) و(صدام) تحولوا في تلك الفترة أي بداية الحرب العالمية الأولى إلى حين أواخر القرن الماضي إلى رمز للحكم، ولكنّ ضمير الإنسانية وحركة الدين غيّرت كثيراً من مسيرة الإنسان بالشكل العام.

فقد تبدل الوضع فيما بعد ذلك التأريخ، فأصبح الحاكم هو الشخصية التي يفترض فيها الشعب أن تحمل روح التعاطف والمودة إلى الناس. وعلى ضوء هذا المفهوم انتخب الشعب الأمريكي (كلينتون) لرئاستين، وكذلك كان الأمر مع (أوباما)، ذات الشيء انطبق على شخصيات أخرى في العالم مثل (نلسون مانديلا) و(بوتين) والرئيس البرازيلي (سلفيا) والرئيس التركي (أرودوغان) وغيرهم من الشخصيات التي شعرت الشعوب من خلال ممارساتها لهم بأنها تحتاج إلى عامل الرحمة أكثر من احتياجها إلى عامل القوة والسلطة.

فكلنا نتذكر كيف أن (جيمس بيكر)[1] وزير الخارجية الأمريكية في

(1) هو دبلوماسي ورجل سياسي أمريكي عضو في الحزب الجمهوري شغل وظيفة رئيس =

حكومة (بوش) الأب حينما اتصل بالرئيس الأمريكي وأخبره عن حالة الشعب الكردي وهو يتسلق الجبال هرباً من بطش صدام في عام 1991 والتي على أثرها أصدر الرئيس قراره بفرض منطقة حظر الطيران على المنطقة الكردية العراقية من قبل جيش صدام.

وقد تجد ذلك ربما عند الكثير من الرؤساء العالميين الذين تحولوا من رمز القوة إلى رمز الرحمة، فهذا الرئيس البرازيلي ورئيس الوزراء الياباني يبكون أمام الناس لسبب أو لآخر تعاطفاً مع شعوبهم.

نحن العرب، مختلفون في كلّ شيء، مختلفون في شخصية وازدواجية الحاكم، وكأننا نريد أن نصنع منه ديكتاتوراً لأننا بديكتاتوريته نشعر بالأمان[1] ولم نحترم الرئيس ذا الخصال الإنسانية والوفاء، بل ندفع في أن يكون رئيسنا سفاحاً مجرماً كما يفتخر تأريخنا بكل أولئك القادة من التاريخ القديم ممّن حصد رؤوس شعبه، واعتلى

= طاقم البيت الأبيض في عهد الرئيس (رونالد ريغان) في دورته الأولى، ثم عمل وزيراً للخزينة الأمريكية في عهد الرئيس (رونالد ريغان) بين 1985 و1988 ووزير الخارجية في عهدة الرئيس جورج بوش الأب من 1989 إلى 1992. في ديسمبر 2003، عين الرئيس الأميركي جورج بوش (بيكر) مبعوثاً خاصاً له لطرح إعفاء الدول الدائنة أو إعادة هيكلة 100 مليار دولار من الديون الدولية المستحقة على الحكومة العراقية التي كانت قد تكبدتها خلال فترة صدام حسين. وفي 15 مارس 2006، أعلن الكونغرس تشكيل مجموعة دراسة العراق وهي لجنة رفيعة المستوى تضم مسؤولين كبار بارزين كلفها أعضاء في الكونجرس مع إلقاء نظرة جديدة على سياسة أميركا في العراق. . (جيمس بيكر) يشغل الآن منصباً فخرياً لمشروع (العدالة العالمية). مشروع العدالة العالمية يعمل على قيادة العالم، جهد متعدد التخصصات لتعزيز سيادة القانون من أجل تنمية المجتمعات المحلية في الفرص والمساواة. أنظر الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/James_Baker.

(1) كلّ قوم صانعو فرعونهم \ قيصر قيل أم قيل كسرى (مطران خليل مطران).

على جماجمهم، ولازلنا وإلى الآن نعتبرهم مفخرة لنا نكتب ونتمجد بدمويتهم في مناهج دراستنا، ونتغنى بأسمائهم في مدننا وفي تسمية أبنائنا[1]. نستأنس في ازدواجية الحاكم، ونبرر له وحشيته، ونقول عنه بأنه كان شخصية إسلامية كبرى، وربما فيما لو أخطا في شيء فإن الخطأ أيضاً حسنة واحدة بدل حسنتين في حال أصاب في عمله.

توجّه العالم واستيقاظ الفطرة: إنّ (الحضارة) في العالم الغربي هي مصطلح لا يختلف بشيء عن فكرة الرحمة التي يشيعها الشعب بين أبنائه، الرحمة في المحاكم والحروب، والرحمة في التعاليم اليومية والاقتصاد، والرحمة في التعامل مع الشعوب المحرومة المسكينة والفقيرة. والرحمة مع الشعب الضعيف. . . . هذه المفاهيم تحولت إلى ثوابت عملية كجزءٍ من شخصية الحاكم والنظام، فقد أقرّت الأمم المتحدة لدول العالم معاييراً للتقدم، وعليها أن تتحلى بصفات منها: (ضمان الصحة) للمواطن، وكذلك عدد المنظمات غير الربحية الإنسانية، وعلى ضوء ذلك سنّت قوانين وتعليمات لإقرار تلك الملاحظات على الدول. فكل من يتقدم إلى الترشيح هنالك جانب توزن به شخصيته، وهي مدى مساهماته في خدمة الناس وخدمة منظمات المجتمع المدني غير الربحية.

فالدول المتقدمة تتسابق الآن ليس في مجال القتل والتهجير، وإنما

(1) من الغرابة عند قراءة التاريخ العربي فإنه ليس من العسير علينا أن نجد التأريخ الدموي الذي لا يمكن وصفه للحكام الذين أضفنا عليهم سمة القدسية، والشيء الأغرب هو أن كلّ الحكام (النسبة العربية الكلاسيكية 99، 9%) هم قادة دمويون لا يماثلهم في تأريخ الأمم من شيء. أمّا غير الدمويين وهم على عدد أصابع اليد الواحدة فقد نعتناهم بالضعف والخبال وعدم الخبرة.

في مجال انعدام الحروب التي خاضتها، أو عدد الموتى أو المرضى، أو حالة الفقر أو غيرها من معايير تمثل الجانب الإنساني للدولة[1] هذه المفاهيم تحولت إلى سلوك تربوي على الرئيس أو كلّ من يصل إلى الرئاسة أو أن يعمل في المجال السياسي أن يكون قد استوعبها أو مرّ بها بطريق أو بآخر، والتي غالباً ما تنعكس على طبيعة نظرته إلى شعبه أو إلى الأمم الأخرى، لأنّ الإنسان هو ذاته الإنسان في نظر أولئك القادة، فالقائد حتى لو كان قائداً لشعبة فإنه لا ينظر إلى الفضائل إلّا من باب العموميات التي تشمل أمماً أخرى وليس أمته فحسب[2].

نعم من الممكن أن تكون الحروب التي خاضتها أمريكا في القرن العشرين علامة من علامات التعارض مع الرأي الذي تقدمت به، ولكنّ خلال ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي تغيّرت واقعية النظرة إلى الحكم وعلاقته بالمُثُل، فالدين بالنسبة إلى الغربيين ليس بالضرورة أن يكون ذات المفهوم الذي نحمله نحن الشرقيون، فالدين عندهم - إن التزم به - هو عبارة عن سلوك لا غير، وإلّا فليس هنالك من سبب في التزامه الديني، بعكس الشرقي الذي يعتبر الدين مظهر يمنحه القوة الاجتماعية، والقوة أمام غضبة الطبيعة أو غيرها.

فهو أمر في المفاهيم الشرقية تنطلق من ردود فعل. أمّا الغربيون فإنهم لا يعيشون هذه الحاجة، وإنما شعورهم في الالتزام ينطلق من

(1) يمكن مراجعة الموقع (http://www.nationmaster.com/) الذي يحوي على معايير للدول التي تعتبر من الدول المتقدمة في تقدير الإنسان.

(2) نيلسون مانديلا، وجيمي كارتر، وسنغور، وجيمس بيكر، أسماء شخصيات ورؤوساء دول كبرى توجهوا إلى مواجهة صراع الشعوب في إيجاد حلول لها خارج نطاق دولهم.

حاجتهم إلى أن تمتلك مشاعرهم عوامل الرحمة وعوامل الفضائل التي تزرعها المفاهيم الدينية كما يصفها الفيلسوف الكبير عالم الأديان روبرت بيلاه (ت 2013)[1] من خلال نظريته المعروفة (الدين المدني الامريكي).

وقد تتزاحم المفاهيم في عقل الغربي ولا يدري أيهما ديني وأيهما غير ديني، ومن هو الدين الذي يدعو إلى الفضائل، وأي الأديان التي تدعو إلى قتل وإبادة من اختلف معهم، فجاء الغربي إلى الإسلام وقرأ أدبياته ونظر إلى رموزه وإلى شخوصه، فرأى تعارضاً كاملاً ما بين مفاهيم الفضائل وما هو معكوس في عالم الممارسة، فلم يجد من الإسلام ما يستهويه في أن يأخذ بمفاهيمه، بل وجد لنفسه ما يمكن له أن يشبع هذا الجانب من مدارس غير دينية. . . . . بمعنى آخر وجد بأن الدين ليس هو المصدر الوحيد الذي يبني الفضائل في نفس الإنسان، فشخصية العملاق (بل غيتس) أو (نعوم تشومسكي) ليستا هما بالشخصيتين الدينيتين، ولكنهما مارسا عملاً ذا أبعاد دينية عظيمة من خلال مساهماتهم الكبرى[2] التي سخّرت لخدمة شعوب العالم الفقيرة

---

(1) تمّ بحث موضوع علاقة الأديان بالمفاهيم الاجتماعية بصورة موسعة من قبل متخصصين، ومن أبرز من برع في هذا الجانب هو (Robert Neely Bellah) (ت 2013) الأستاذ في جامعة بيركلي كاليفورنيا صاحب نظرية تطور العقل الإنساني الديني (Religion in Human Evolution) وكذلك صاحب نظرية (الدين المدني أو الدين الاجتماعي الأمريكي) (American Civil Religion)
http://en.wikipedia.org/wiki/American_civil_religion.

(2) هو مؤسس عالم الكومبيوتر والتكنولوجيا في العالم ومكتشف (المايكروسوفت) (بيل) وزوجته (مليندا) (غيتس) في عام 2000. الأهداف الرئيسية للمؤسسة على الصعيد =

التي يصعب اقتصادياً توفير الدواء لمرضاها وخصوصاً في مجال (شلل الأطفال) واللقاحات، وما يقوم به (غيتس) هو ذاته ما كان قد وصفه (بيلاه) الذي يشير إلى مجموعة القيم الدينية التي يمارسها المواطن والحكومة الأمريكية ليس بدافع الطلب في رضى السماء عنه، وإنما هي صفات الفطرة التي فطر عليها الإنسان، والتي تصب أخيراً في بناء المجتمع، كما أنها في ذات الوقت تباركها وتبارك فاعلها السماء بأن تنعم على ذلك المجتمع بطرق الخير من خلال تطويع الطبيعة إلى قدرات الإنسان فينعكس أخيراً على رخاء الأمة[1].

وقوى الشر دوماً ماثلة: في ذات الوقت نرى هنالك موجة كبرى مضادة لا تتفق مع الحكومات في تبنيها لإشاعة الفضائل، بل ترى العكس، ترى بأن هنالك مصلحة عالمية في عدم اللجوء إلى القيم، وهؤلاء هم بالضبط غير معروفين، وإنما يعملون بطرق غير مباشرة لإشاعة مفاهيم مخالفة لفطرة الإنسان الخيّرة المقاربة لغرائزه التي ترمي إلى مخالفة العقل كمفهوم السيطرة، والجشع، والقوة، والظلم، وسحق الشعوب الفقيرة، والاستيلاء على خيراتها، والاستمرار في سياسة عبودية البشر للبشر، وغيرها من المفاهيم التي تغلف الباطل بالحقّ.

= العالمي هي تعزيز الرعاية الصحية والحد من الفقر المدقع، ثم توسيع فرص التعليم والوصول إلى تكنولوجيا المعلومات. قدرت أملاك المؤسسة بـ 73.6 مليار دولار أمريكي. المؤسسة في البداية كان قد مولها (بيل غيتس) بـ 126 مليون دولار في العام 2000.

(1) هذه المفاهيم تجدها بشكل قريب من هذا المفهوم في كتاب الشهيد الصدر (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء).

هؤلاء منتشرون داخل الإدارة الأمريكية، وحول الرئيس، وفي المجالس التشريعية، وفي مراكز القوى، ويمثل الصهاينة كما هو مشهور قسم منهم (ليس بالضرورة أن يتفق معهم اليهود المتدينون) وكذلك الكثير من المسلمين المسيسين وغير المسيسين[1] الذين يرون في استمرار حالة الابتعاد عن الفضائل جواً مناسباً للحصول على مبتغياتهم[2] وهي في الأعمّ الأغلب تميل إلى تنشيط غرائز الإنسان باتجاه التحلل من الفضائل. ومعظمهم متخفون تحت أسماء متعددة ومنتشرون في أنحاء العالم، مع أنهم عموماً ليسوا إيديولوجيين في عملهم وأفكارهم. هنا العرب يرون في ذلك بأنه مخطط كما هي نظرية المؤامرة ويعتقدون بأن اليهود هم وراء ذلك.

هذا الصراع ما بين الفصيلين فصيل الفضائل وفصيل الانحراف مستمر منذ وقت طويل داخل الإدارة الأمريكية والذي على ضوءه

(1) ليس هنالك من ارتباط (نسبي) بين الانتماء الديني وبين مفاهيم النظرة إلى الحياة. فهنالك الكثير ممّن ينتمون إلى الإسلام نسباً قد حاربوا مسيرة الفضائل أكثر ممّا خطّط لها الأعداء الدينيون أنفسهم. فهنالك البعض من المسلمين وبحسن نية يرون في أن كلّ ما يصدر عن الغرب أو العالم المتقدم هو مخطط لضرب سلفيّة الدين، وأنه يلزم على الشعوب الإسلامية رفض إبداعات العقل الغربي،أو غير الغربي ممّا لا يتفق مع أحاديث السلف في شؤون تطور الحياة، بل يعتقد الكثير منهم - كما أوصى بها أئمتهم - بضرورة المواجهة معهم وتأخير محاولات التطوير التكنولوجي والعلمي الذي يصدر عن كلّ العوالم التي لا تتفق مع مبادئ السلفية بطريقة أو بأخرى.

(2) التي تتمحور عموماً في الجانب المادي الاقتصادي مثل قطاعات الأسلحة وقطاعات الأمور النسائية بمجملها من الملابس إلى كلّ ما يتعلق بالمرأة، كذلك الأمر في شركات التمثيل العالمية وصناعة السينما، القمار وشركاته العملاقة، شركات بيع الجنس، شركات الإعلام بمجملها، شركات السياحة والفندقة.

تجرى المساومات التجارية والمنافع وغيرها، وهو ربما أمر موجود في كلّ بقاع العالم، ولكنّ الفرق في أمريكا هو أن الثراء والحرية الكبيرة على المستويين الحكومي والخاص يؤدي في ذلك إلى أن تطفو تلك الصراعات إلى السطح ثم تنشرها وسائل الإعلام وغيرها. في الوقت الذي لم يضع القانون الأمريكي تحديدات لعالم الغرائز وإشباعها وتقنينها، بل إنها أمر يسير ضمن المنطقة الضبابية من القانون.

الدين... وحرية التشريع: يميل السياسيون الأمريكان والكنديون إلى أن ينأوا بأنفسهم عن كلّ ما يثير الريبة بهم، لأنّ ذلك عبارة عن مساحة كبيرة للتوريط والسقوط، وهم ليسوا بحاجة إلى ذلك، وليس هنالك من ضرورة في أن يتورط الإنسان في انفعال غرائزي يكون مستقبله في مهب الريح، وكلّنا يتذكر سقوط المرشح الأمريكي (كيري هارت) من كولورادو المرشح القوي عن الحزب الديمقراطي عام 1984 الذي خسر خسارة كبرى بسبب ظهوره مع امرأة (Donna Rice) على شاطئ بحيرة أو ما شابه[1].

فسقوط الشخصية السياسية سهل جداً في حالة تورطه بأي قضية، حتى وإن كانت بسيطة، في الوقت الذي يتمكن المواطن العادي من ممارستها كالعلاقات مع النساء إلى جانب زوجاتهم، أو لعب القمار، أو مثلاً التخلف عن دفع الضرائب، كلّ ذلك وخلال الحقبة ما بعد الثمانينيات تحول إلى عمل ينأى عنه الكثير من السياسيين، بل إن الشعب الغربي لا ينتخب تلك الشخصيات التي تمارس هذا النوع من

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Gary_Hart.

الخروج عن الفضائل في تحدي قيم الرأي الشعبي للمجتمع الأمريكي. بينما لم يكن في السابق وقبل أن تسيطر الأجهزة الحكومية الأمريكية والكندية على مسيرة الجانب السلوكي للسياسي فإنه كان يعمل ذلك بطريقة بعيدة عن عين التكنولوجيا والمراقبة.

فيقال بأن الرئيس جون كيندي (ت 1964) (الرئيس الخامس والثلاثون) كما يشار إلى ذلك في بعض الأدبيات بأنه كان (زير نساء) وكانت له علاقات كثيرة، ولكنّ لم تتمكن أجهزة السلطة في ذلك الوقت من التقاطه، أو تقديم وثيقة على تورطه في هكذا أعمال، وإنما تم نشرها بعد تقدم عالم التكنولوجيا وعالم العودة إلى الدين[1]، كما في نفس الوقت كانت المبادئ المتعلقة بما يسمى فضائل مختلفة عما هي في تعريفها الآن، وكلما تقدم الزمن ما بعد بدايات الثمانينيات كلما ازدادت شروط تحلي السياسي الأمريكي بالمبادئ، والتي يجب أن يظهرها أمام المجتمع لكي يثق به.

فقد كادت حادثة (مونيكا لوينسكي) حادثة كادت أن تطيح بالرئيس الأمريكي، ولكنّ زوجته التي وكما هو المفترض لها أن تكون من أول من يعترض على هكذا علاقات غفرت له وسامحته، فلم ير الشعب الأمريكي مبرراً في استمرار اتهامه، إلّا أن يسير على خطى زوجته وأن لا يكون ملكياً أكثر من الملك ذاته.

---

(1) ويكشف (لاري ساباتو) صاحب الكتاب الجديد عن عهد كيندي تحت عنوان: (نصف قرن مع كينيدي: الرئاسة والاغتيال والإرث العريق لجون أف كينيدي).
The Kennedy Half-Century: The Presidency, Assassination and Lasting Legacy of John F. Kennedy.
http://www.alhurra.com/content/jfk-kennedy-complicated-relationship-with-women/236368.html#ixzz2wKErXrkY

الصراع الدفين التاريخي: وهكذا ورث بوش الأب والابن واقعاً مختلفاً جداً عن واقع الماضي، فالفضيلة والمبادرة إلى توجيه وتسخير القوة الأمريكية نحو خير الشعوب كانت قضية مهمة لدى تفكير آل بوش انطلاقاً من مفاهيم دينية، ومفاهيم أخلاقية تعتز هذه العائلة بالالتزام بها. فكل التصريحات التي أطلقها بوش الابن بهذا الخصوص بما يدفع الشعوب إلى الفضائل والتحرر من الغرائز واجهتها القوى المعادية له ولآل بوش، وقوى رفض القيم وقوى الحزب الديمقراطي بشكل مثير للغاية، وهنا لا بأس في أن نصنف تلك القوى والتي تنحصر في التالي:

- اليهود أولاً بمؤسساتهم الكبرى والضخمة والإعلام.
- العرب والمسلمون ثانياً، متأثرين بالدعاية الهائلة التي زرعها اليهود.
- الحزب الديمقراطي بمؤسساته الكبرى.
- المذاهب المسيحية التي لا تتوافق مع مذهبه وخصوصاً الأصل (الانكليكيان) الذين تفرّع منها المذهب الذي يعتنقه.
- كل غير المتدينين وغير المؤمنين بالأديان، نسبتهم في أمريكا أكثر من 25%.
- الكاثوليك نسبتهم ما بين المسيحيين الأمريكان 22% لأنّ مذهبه يعارض أشياء كثيرة للكاثوليك.
- المهاجرون باعتباره يمثل الجهة المحافظة، أي الحزب الجمهوري في أمريكا.

- السود باعتبار أن الحزب الذي ينتمي إليه غالباً ما يقف موقفاً صارماً من بعض تصرفاتهم، ولما له من فكر محافظ باتجاه الملوّنين، والذي لا يعطيهم ميزة مختلفة عن الميزة التي يمنحها القانون للمواطنين الآخرين، بينما يخالفه في ذلك الحزب المنافس الديمقراطي في استثناء السود من ساحات المنافسة في الوظائف وفي الجامعات وفي مناصب أخرى.
- نصف اللّاتينيين لأنّ معظمهم كاثوليك.
- نصف الأوروبيين من الفرنسيين والإيطاليين، لأن بوش كان يعيب على الأوروبيين ضعف موقفهم من التطرف والديكتاتورية وخصوصاً فرنسا.

بوش الابن ليس بالرئيس الكلاسيكي في التاريخ الأمريكي، ولم يكن الأب كذلك، وإنما كانت طريقة إدارته إلى الواقع الأمريكي فيها الكثير من التغيير، ومن الاتجاه نحو التحرّر من إرث الماضي، فقد لا نكون مجانبين إلى الحقيقة في القول بأن بوش الابن هو الرئيس الوحيد في التاريخ الأمريكي الذي فاز بدون أصوات اليهود، وبدون مساندتهم، وهذا يعتبر في العُرف الأمريكي سابقة خطيرة، إذ أن اليهود قد أحكموا تقريباً سيطرتهم على وصول الرئيس إلى البيت الأبيض من خلال موافقتهم وتأييدهم، وهو أمر ربما مجرد أقاويل أو ضجيج إعلامي، أو ربما حقيقة، ولكنّ الأمريكان أنفسهم من يقول بذلك وهم متأكدون ممّا يقولون في أن اليهود لهم اليد الطولى في اعتلاء سدة الرئاسة الأمريكية.

مقولة كاذبة....؟؟ إنّ بوش الابن هو الرئيس الوحيد الذي وقف

اليهود بصورة علنية أمام إعادة انتخابه ثم مساندة منافسه (آل كور) ونائبه اليهودي (ليبرمان). ولكنّ الأمور لم تكن كما كان لها أن تسير، بل أن الشعب الأمريكي وجد أنه كان عليه أن يفصل المسار اليهودي عن المسار الأمريكي، فصوّت ثانيةً إلى بوش الابن. وهنا استعرت الحفيظة اليهودية وأعدّوا أسلحتهم فيما بعد ذلك التأريخ إلى إسقاطه من خلال تشويه صورته، وإظهاره بمظهر الشخصية المخبولة، كما صوروا من قبله الرئيس (نيكسون)[1] تحسباً لظهور الكتاب الذي أعدّه قبل موته.

وهنا تجد أن الكثير من التصريحات التي أطلقها بوش الابن فيما يتعلق بموضوع العلاقة مع المذهب الذي ينتمي إليه وعلاقته مع السماء، وغيرها ممّا يدل على الجانب الغيبي قد تمّ تشويهه وبصورة توحي للقارئ العربي بأن الرجل ذو توجهات صليبية أو معادية إلى الإسلام. أو أنها أقوال يراد بها إحياء الحضارة المسيحية المتعصبة القديمة، مع أن أقواله لم تكن كذلك عندما نرجع ونستمع أو نقرأ

(1) كان نكسون من الشخصيات التي تحمل نفس التوجهات التي كان آل بوش قد فكروا بها، وهي فصل المسارين اليهودي عن الأمريكي ورفض تبعية أمريكا إلى المصالح الإسرائيلية، وهذا ما أكدته الوثائق التي نشرت فيما بعد والتي على أثرها دبروا له حادثة (ووترغيت) المشهورة ثم طرده من الرئاسة، ويقال بأنه قد كتب كتاباً عن واقع التأثير اليهودي على أمريكا ومخططه في تحرير القرار الأمريكي من القوى اليهودية. وكان من المفترض أن يكون الكتاب مع ابنته الوحيدة لنشره. ويبدو أن الصهيونية قد عملت فيما بعد بصورة مركزة لإظهاره بالتخلف العقلي. أنظر وثائق المحادثة التلفونية التي كانت السبب في إسقاطه، تجدها على موقع (جورازاليم بوست):
http://www.jpost.com/International/Newly-uncovered-Nixon-tapes-reveal-anti-Semitic-stance-323953.

النص الحرفي لتلك التصريحات، أو الأشرطة باللغة الانكليزية من خلال المواقع الثلاثة التي وضعتها في الهامش[1].

وفي أيام بوش الابن الأخيرة، كانت الحملة الكبرى قد أخذت مأخذها في العالم، وخصوصاً بعد الفشل السياسي الذي واجهه في طريقة إدارته للعراق، وللوضع الجديد، والذي كان مفاجئاً له، بل غريباً على الواقع الأمريكي في تأريخ صراعه مع البلدان التي دخلتها أمريكا. وهذا ما انعكس بشكل كبير على مسيرة الحزب الذي ينتمي إليه وهو الجمهوري، بحيث أنّ الكثير من الجمهوريين قد تغيرت قناعاتهم بسبب هذا الجوّ المتأزّم من الشدّ والجذب كما هو خروج وزير خارجيته (كولن باول) وارتمائه في أحضان الحزب الديمقراطي، فتحول بوش الابن في الإعلام إلى شخصية مراهقة أو غير عارفة بحقائق الأمور. كلّ ذلك كان بسبب القناعات التي كان بوش يراها فيما يتعلق بالعراق، وخصوصاً في موضوع المذابح الكبرى التي ارتكبها صدام وحزبه، فقد كان يعتقد بوش اعتقاداً جازماً بأن صداماً شخصية دموية لم يأتِ بمثلها التأريخ، ولن يجود مثلها في المستقبل أيضاً، وأن على القوة العظمى الأمريكية أن تتدخل من أجل إيقاف هذه السطوة الكبرى التي امتلكها صدام، سواء أكان نظاماً أو شخصاً أو بديلاً، ففي الحالتين فإن هكذا نظام يجب أن يدفع ثمن ديكتاتوريته.

وهذا الموقف لم يكن موقفاً سياسياً، لأنه لمن الصعب جداً له أن

(1) http://www.sbl-site.org/publications/article.aspx?articleId=151. Also on: http://abcnews.go.com/Politics/story?id=121656. OR on: http://www.beliefnet.com/News/Politics/2004/07/George-W-Bush-On-Faith.aspx

يدافع بوش عن قناعاته في هذا الاتجاه (الديني) أو (المثالي) أو (التعاطفي) بل أن المفاهيم السياسية التي تشكّلت في خلال التأريخ الأمريكي لم يكن أي منها يندرج تحت مسميات المثالية أو التعاطف، لأن السياسة تعني (اللاقيم)، كما أنه ليس من باب الوجوبيّة على الدول الكبرى أن تتدخل في حماية شعب من ديكتاتور متسلط، فهذا أمر متعلق بذات الشعب، وما دام الشعب لا يملك مقومات الثورة فليس من واجبات الدولة العظمى أو حتى الأمم المتحدة في التدخل أو في إنقاذ هذا الشعب استعانة بهذه الحجة.

فعدد الحكام المتسلطين في العالم كبير، فكل الدول العربية بنسبيتها في الديكتاتورية كان يجب أن تكون ضمن معادلة المواجهة أو في قائمة إسقاطها، وهذا يعني بأن العالم سيدخل في حروب كبرى يكون طرفاها الشعوب من جهة والحاكم من جهة أخرى، مضافاً إلى أن تكون الأمم المتحدة أو أمريكا طرفاً من أطراف الصراع إلى جانب الشعوب.

صراع نفوذ.. أم ماذا..؟ ولكن في الوقت ذاته فإن التأريخ الأمريكي لم يخبرنا فيما بعد الحرب العالمية الثانية وإلى حين انتهاء الحرب الباردة بأن أمريكا كانت في الموقع الذي يعطيها الصفة التي تدافع بها عن الشعوب المظلومة، بل بالعكس كانت الفكرة الاشتراكية المناقضة هي التي تحمل هذا المبدأ في مسيرة فلسفتها صحيحاً كان أم خطأً، فالصراع كان ما بعد الحرب الثانية متعلقاً بصراع النفوذ والبقاء ما بين العالمين الرأسمالي والاشتراكي، تقود كلاً منهما الدولتان الكبيرتان، حيث كانت العلاقات التي تربط الشعوب مع حاكمها مرتبطة

بنوعية المساندة التي يقدمها رئيس هذه الدولة أو تلك إلى الدولتين الأعظم والتي على ضوئها تميل الدولة الكبرى في مساندة الرئيس وليس مساندة الشعب أو الأمة المغلوبة على أمرها.

كان تأريخ الولايات المتحدة في تلك الفترة محكوماً بواقع ميزان الحرب الباردة والتي فرضت عليها أن تدخل في حروب كبرى أهمها هي الحرب (الفيتنامية) والحرب (الكورية) وحروب (التشيلي) و(السلفادور) بالإضافة إلى واقع إقامة الدولة (العبرية) الإسرائيلية وغيرها من صراعات الدول. كلّ ذلك أصّل النظرة العالمية إلى الأمريكان وأصبح شعار كره أمريكا أو محاربتها هو شعار الأحرار، بينما العكس هو شعار الثوار. وبالخصوص نحن العرب الذين اشتعلت في نفوسنا أحداث إسرائيل التي أصبحت أمريكا أسيرة سياستها وليس العكس.

إنه لمن العقل أن ندرك بأننا هنا لا نريد أن ننزّه السياسة الأمريكية، بل ننقل صورة عن واقع السياسة البراغماتية التي تتبعها كلّ دول العالم ومنها أمريكا، والتي تتحكم بها المصالح أكثر من أن تتحكم بها المبادئ الإنسانية التي نريد من الدولة العظمى أن تطبقها على نفسها أو على سياستها تجاه بلدان العالم.

فلم يتغير الواقع الأمريكي في تعامله مع تلك البراغماتية إلّا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي في عام 1991 والذي من خلاله بدأ بما يسمّى (سياسة نظام العالم الجديد) (New World Order) أو ما يصطلح عليه في مفاهيم (العولمة) (Globalization) والذي على أثره وجد السّاسة الأمريكان أنهم أمام استحقاق كبير وتركة ضخمة عليهم أن يحرروا

أنفسهم منها، في الوقت الذي تصاعدت الموجة الدينية في العالم، ووصلت إلى ذروتها في اجتياح شعوب العالم بكل أديانه، ومن ضمنهم السياسيين الأمريكان ذاتهم، فالتأثير الديني للمسيحية أو اليهودية لم يستثنِ القادة السياسيين، فالسياسي في طبيعة تركيبة شخصيته تميل نحو ما يفرضه عليها الجو العام من تأثير، لأنه أمر متعلق بواقع مستقبله كشخص، وبمستقبله كسياسي يطمح إلى مراكز متقدمة في المناصب الرئاسية، فالغربي ليس من مصلحته أن يؤمن بشيء ويعمل بعكسه، فضلاً عن أن المجتمع سيكون له طريق في اكتشاف هذا التناقض بسبب الحرية الواسعة التي تسود المجتمع، والقدرة على تحليل المواقف ممّا يسبب له حرجاً كبيراً فيما لو أنه كان ذا توجهات متناقضة كما ظهرت في هذا الأمر نماذج كثيرة فقدت مستقبلها السياسي والشخصي.

فقد تحول الكثير من المفاهيم الديمقراطية التي تنادي بها الرسالة الأمريكية فيما يتعلق بحق الشعوب في التحرر وفي سيادة ذاتها إلى واقع عملي بدأت تمارسه مراكز البحوث التي تضغط باتجاه تبنّي المبادئ التي بنيت عليها الفكرة الأمريكية والتي كانت بالأصل هي حرية معتقدات الإنسان، وتحرّره من القوى التي اضطهدتهم في أوروبا ما قبل الهجرة، بالإضافة إلى سيادة مبادئ القيم والعدل وغيرها.

فمراكز البحوث تلك تعتبر الجهة التي تستند عليها السياسة الأمريكية في صناعة القرار وفي علاقتها مع الشعوب. فعلاقة الدين مع السياسة، ومع مبادئ أمريكا صارت أساساً للسياسة الأمريكية في عالم ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي كما أن العلاقات الأخلاقية والعلاقات الإنسانية تحولت إلى مبدأ من مبادئ السياسة التي تتبعها أمريكا في

العالم. مع أنه يجب هنا الاعتراف بأن القيم - أي قيم - لها من المطاطية ما تمكّن الإنسان من أن يوجهها حسب المصلحة الشخصية، وإلى تبرير عمل تلك الغريزة باتجاه الشر. وهذا أمر لعله أمر ليس لنا إنكاره أو تجنبه.

فقد وجدت الإدارة الأمريكية فيما بعد غزو الكويت، وبعد دخول الجيش الأمريكي، والجيوش الغربية المنطقة العربية، وفي العراق بالخصوص، وبعدما شاهد العالم كيف تعامل النظام العراقي مع الانتفاضة التي عمّت العراق والتي راح ضحيتها ما لا يقل عن نصف مليون عراقي، وبعد أن ظهرت الفضائح الكبرى للتهجير الكردي حيث هاجر هذا الشعب برمته باتجاه مذبحة مرتقبة كاد صدام أن يرتكبها في إبادة شعب بالأسلحة الكيمياوية كما هي حادثة (حلبجة).

كما في ذات الوقت صار أمام الساسة الأمريكان حقائق عن العراق لم تكن تدركها في الماضي بما يتعلق بالوحشية التي كان النظام يمارسها تجاه المعارضين السياسيين، هذا بالإضافة إلى السجون ووسائل التعذيب والانتقام من العوائل والتعامل مع توجيه الشعب نحو القتل والذبح وغيرها من مسائل لم تمر على تأريخ الإنسان الحديث ما بعد تأريخ الهولوكوست (Haulaucaust) ولم يرتكبها حاكم أو ديكتاتور ربما من بداية القرن الماضي.

كما اكتشفت مراكز القرار الأمريكي، أي مراكز البحوث بالإضافة إلى المخابرات الأمريكية المتمثّلة بـ (CIA) بأنها أمام نموذج فريد من نماذج التعامل مع شعب في وحشية لم تعهدها عقول الشعوب، وعقول حقبة ما بعد عصر الحرب الباردة. كلّ ذلك مع قناعة الأمريكان بأن

الدول المجاورة للعراق كانت مشتركة بطريقة أو بأخرى مع سياسة الحكومة العراقية فيما يتعلق بمذابح العراقيين وخصوصاً الأكراد والشيعة[1] في الوقت الذي استغرب السياسيون الأمريكان مدى سذاجتهم ومدى بساطتهم في غياب تلك المفاهيم في أدبياتهم السياسية ومن ملفات حقوق الإنسان التي تمتلئ بها الجامعات ومراكز البحوث، أي بعبارة أخرى وجد الأمريكان أنفسهم كم كانوا ساذجين ومغفّلين في معرفة دواخل أهم قطر في المنطقة وهو العراق، بل إنهم عاشوا حالة من الصراع النفسي في غبائهم وفي سطحيّتهم التي لم يتمكنوا بها من أن يدركوا الأشياء إلّا بعد حدوث شيء بطريق المصادفة، وهو حرب الكويت وإلّا فإنهم كانوا قد بقوا على ما هم عليه لو لم يكن ذلك الحدث.

اختصاص وتوجيه: في تلك الفترة سحب أمر العراق وتفصيلاته المخابراتية وبما يتعلق بالجانب الإنساني من مسؤولية المخابرات (CIA) وكان وقتها الذي يشغل منصب الرئاسة هو (جورج تينيت) فانزعج الأخير من هذا القرار الذي أصدره بوش الابن، وترك أمر تحليل الواقع العراقي السياسي والاجتماعي إلى وزارة الدفاع الأمريكية بعد أن انتدب لذلك خبراء أمريكان من أصول تنتمي إلى غالبية المكونات العراقية الشيعة والسنة واليهود والأكراد، فقدّموا تقاريرهم

(1) يمثل كلاهما ما نسبته ما لا يقل عن 77% من نفوس العراقيين، وهذه نسبة لم يتبينها الغربيون إلا أخيراً، أي في أثناء تأريخ ما بعد حرب الكويت، فقد كانت كلّ أدبيات الغرب ترى بأن الصيغة الرقمية مقلوبة بسبب تعاون ساسة المنطقة بمختلف توجهاتهم وخصوصاً الخليجيين وبالتحديد السعوديين في تثبيت مفاهيم هذه المعادلة المقلوبة.

التي رُفعت إلى وزارة الدفاع، وليس إلى المخابرات الأمريكية، فكّتبت في تلك الفترة الكثير من المؤلفات تتحدث عن العراق وعن تأريخه وواقعه في الوقت الذي ردّت الجهات المتضرّرة بكتابات كثيرة جداً واستعانت بمؤلفين وكتّاب يعيشون على (الدفع الأكثر) كما شنّت الدول التي كانت تمارس دور التضليل (Deviation) أو (Misleading) على المعلومة الصحيحة حرباً شعواء على الشخصيات الكبرى التي قدّمت تقاريرها العلمية الموثقة إلى الإدارة الأمريكية، واتهمتها بتهم كثيرة وجنّدت في ذات الوقت الصهيونية العالمية للصق تهمة معاداة السامية (Anti Semitism) بها لكي تتمكن من (تجريم) (Criminalization) تلك الشخصيات وجرّها إلى القضاء ثم الانقضاض عليها في لحظة الضعف[1].

فمن العيب على العقلية السياسية التي تحترم نفسها أن تصاول أعداءها بوسائل رخيصة أو على حين غرّة، بينما يمكن لأي سياسي مراهق أو مغمور في أن يتناول ذلك بشيء من الحرية باعتبار أن الرأي مباح للجميع، مع الإدراك بأن حدود الإباحية الفكرية له تبعات وله استحقاقات مستقبلية قد لا يستوعبها ذلك السياسي المراهق، أمّا ذلك

(1) من الشخصيات العلمية التي دفعت ثمن أمانتها العلمية في تقديم الرأي العلمي عن العراق هو الباحث الكبير د. فؤاد عجمية (ت 2014) الأستاذ في جامعة (جون هوبكنز) الذي شنت عليه صحف وقوى السعودية حملة مدمرة جندت لها الكثير من المرتزقة في أمريكا، ولكن ذلك لم يفت من عضد تلك الشخصية العلمية الكبرى والتي على أثرها تبين للإدارة الأمريكية مدى قدرة الجانب البدوي العربي على طرح العقلية البحثية الأمريكية أرضاً ليس بضربة واحدة وإنما بضربات موجعة فقدت على أثرها القدرة على المقاومة. أنظر ترجمته على الموقع : http://en.wikipedia.org/wiki/Fouad_Ajami

الذي يحترم مبدأه فإنه يجد في نفسه بأنه أرفع من منازلة خصمه السياسي بقذارة السياسي[1] المعهودة التي يشير إليها (ميكافيلي) في كتابه، وحيث أصبحت تلك المفاهيم اليوم بعديدة جداً عن مسيرة الأمم، كما صارت مفاهيم (المهارة) التجارية من الكذب والخداع أموراً ليس لها من تأثير في عالم الغرب الذي تحول إلى حركة يقرّها العلم، وتقرّها الجودة (Quality Control)، فالسياسي المراوغ غالباً ما يتم اكتشافه ويتم عزله عن مسيرة الدولة ومسيرة صنع القرار.

نعم هنالك شخصيات تؤمن بأسلوب مختلف عن أساليب التهدئة مثل أساليب استعمال الحرب كخيار أولي أو خيار مقدّم على بقية الخيارات، كما أن هنالك من يرى العكس...... هذه العقلية في الّلجوء إلى القوة لا تعتبر في العرف السياسي بأنها نوع من المخاتلة السياسية أو الخيانة الفكرية للدولة، وإنما هي اعتقاد ربما يظهر خطأه أو صحته، ولكنّه على أقل التقادير إيمان بشيء خاص يسير مع توجهات القوة. إن المخاتلة السياسية والمراوغة هي الطريق الذي يسوده الكذب وعدم استبطان الخير والتخطيط بعكس ما يتمّ الاتفاق عليه.

---

(1) في سباق الرئاسة الأمريكية عام 1984 حاول (والتر مونديل) الديمقراطي أن ينازل خصمه (ريغان) الجمهوري بسلاح العمر، فاستعمل السلاح ذلك في المناظرة التلفزيونية الكبرى المشهورة التي يقرر على أساسها الأمريكان اتجاه ورقتهم الانتخابية بعد أسبوع من ذلك التاريخ. ولكنّ تلك الورقة انقلبت بشكل لا مثيل له على تحطيم (مونديل) بشكل لم تألفه انتخابات الرئاسة الأمريكية في تأريخها فلم يربح الأخير إلّا في ولايته فقط (منسوتا). فأنهت تلك الضربة مستقبله نهائياً. راجع المصدر: http://en.wikipedia.org/wiki/Walter_Mondale.

فالمعاهدات والأهداف السياسية في عالم التكنولوجيا لم تعد خافية في كواليس السياسة وفي العمل ما بين الدول، وإنما المخفي هو التخطيط للشر أو للإيقاع بالآخر وهذا ما يرفضه سياسيو الغرب باعتباره أسلوباً لا يتناسب مع أخلاقيات الدولة الكبرى، نعم قد تخطط الدولة لحرب على عدو بعد التوصل إلى أهمية هذا الإيمان في تجنب ما هو أفدح من ذلك.

فالمبادئ مع أنها مبادئ واحدة ولكنّ الاختلاف يعود إلى الوقت وإلى المسبّب في ذلك، فالحرب مثلا أو التخلّص من عدوّ أمر يوجب استعمال أسلوب القوة والسلاح، ولكنّه أمر ضروري في الكثير من الأحيان لأنه سيبقى هو الأسلوب الأنفع في تجنب الأسوأ[1]. وهنا نرى بأن العالم توجّه اليوم إلى ما نسمّيه (أخلاق السياسة) وهو علم له شخصياته وله محدداته تنطلق مبادئه من موضوع تجنب الأسوأ في استعمال أقل ما يمكن استعماله من القوة.

إكتشاف جديد: فقد اكتشفت أمريكا في ما بعد فترة حرب الخليج الأولى بأنها تتعامل مع شخصية غريبة في عالم السياسة الحديثة لها من الأساليب التي تمارسها في عملها وفي قيادة الدولة بطريقة لا مبرّر لها في واقع الإدارة، فقد يتفهّم الإنسان قتل عدوّه على سبيل المثل، ولكنّه لا يتمكن من أن يتفهم أسلوب التمثيل بذلك العدو بطريقة غاية في

(1) سكرتير الأمن القومي للرئيس بوش (ساندي بيرغر) في معرض دفاعه عن قرار الحرب على العراق يضرب مثل تدخل أمريكا في الحرب الكورية إلى جانب كوريا الجنوبية ويقارن تأريخ الدخول في عام 1942 مع ما وصلت إليه كوريا الجنوبية الآن.

الوحشية ما بعد مقتله، كما حدث للكثير من المعارضين السياسيين وخصوصاً المجموعة التي كان عدنان الحمداني أحدهم، أو مثلاً كما يقال عن د. راجي التكريتي، أو كما هو واضح من جثة المفكر الكبير (الصدر الأول) أو مع غيره من الكثير من السياسيين. فهذه الأساليب لا تنم إلّا عن جانب عضوي مرضي نفسي أو سليقة ذاتية نما الإنسان على مبادئها بحيث أنها تحولت إلى سنخيّة متحكمة في سلوك ذلك الإنسان كما هي عادات البداوة في الفتك والقتل بأعدائهم أو أصدقائهم.

فالعراق في فترة السبعينيات كان له أن يتحول إلى قطر متقدّم جداً لأنه من الأقطار التي تمتلك مؤهّلات لذلك، ولكنّه لم يتقدم، بل بقي على ما هو عليه في الوقت الذي تقدّمت الكثير من الدول وسبقته في التطور التكنولوجي والتشريعي، كما أنه وما بعد حرب الخليج الأولى كان له أن يتحول إلى قطر له دور كبير في المنطقة، وخصوصاً وأن الغرب قد مد يد المساعدة له في الحرب التي خرج منها غير مغلوب وغير منتصر أيضاً، وأمامه فرصة بناء العراق من جديد، ولكنّه لم يتم ذلك، بل ازداد الأمر سوءاً وتعقيداً إلى أن حدثت حرب الخليج الثانية التي دمّرت المنطقة ودمّرت الشعوب، وخصوصاً الشعب العراقي. بل أن صداما ذاته كان من السرّية والغرابة وعدم تقدير مواقفه قد أدّى بالدول العالمية إلى تحاشيه أو إلى رفض العمل معه لما له من عجائب في طريقة معاملته إلى شعبه أو إلى الوفود التي تزوره أو تتعامل معه.

هذا كله أضاف إلى مجموعة من الأمريكان ذوي التوجّه الإنساني في التفكير بكيفية التخلّص من صدام كشخص أو كنظام من أجل تحقيق

مبدأ عالمي إنساني، وليس لسبب آخر سياسي أو اقتصادي. مع أن الأمر لا يخلو من ذلك، في الوقت الذي لم يكن في مقدور تلك المجموعة المحافظة (Conservative) أن تعلن مبدأها في سبب مواجهة صدام، فليس من السهل أن يعلن رئيس دولة عظمى أنه سيذهب إلى حرب طاحنة مع أي من الأقطار وهو يحمل شعار مبادئ إنسانية أو فضائل بشرية، فالشعب الأمريكي لا يهمه كثيراً ما تعاني منه الشعوب (كما هي شعوب العالم الأخرى) وهو تعتقد بأن الشعب الذي وقع عليه الحيف هو من يجب أن يرفع سيف المواجهة، فليس من مسؤولية أمريكا أن تغير أنظمة أو تزيل حكاما أو تحارب ديكتاتوراً، بل إن أقصى ما يجب أن تفعله هو مساندة المعارضة الداخلية في سبيل الإطاحة بذلك الديكتاتور.

فكان بوش محرجاً جداً أمام الكثير من مؤيديه، وأمام الدولة، وبقي يبحث عن مخرج له لكي يستمد الشرعية في دخول حرب التخلص من صدام أو نظامه، بقي يناور في موضوع أسلحة الدمار التي يمتلكها العراق لأكثر من أربع سنوات، ولقد تسرّبت أخبار بأن أسلحة الدمار تلك كانت أمريكا قد وجدت الطريق إليها في بداية شهور التفتيش، ولكنها لم تعلن ذلك[1]، لأنّ الإعلان عنه سوف يؤدّي

(1) ويبدو أن ذلك تمّ من خلال صفقة بيع أو خزن تلك الأسلحة مع النظام العراقي كانت أمريكا على علم بها، ومع أن هذه الأخبار غير مؤكدة ولم يتم توثيقها، ولكن كواليس السياسة تتحدّث بها وتقول بأن إسرائيل كانت هي المشترية من خلال وساطة شخصيات من شمال العراق وتمّ إجلاء معظم تلك الأسلحة مع ضمانة إسرائيلية و(شمالية) بأن تكون ثمن الصفقة هو منجز سياسي لكلي الطرفين لم يعلن عنهما. بالتأكيد مثل هذه =

بصدام إلى التسليم وإلى قبول شرط الأمم المتحدة في تدمير السلاح، وكان على أمريكا أو بوش أن ينزع فتيل التهديد بالحرب بعد اكتشاف سلاحه الكيمياوي والنووي. وهو الخيار القاتل لأمريكا ولبوش وقيادته، لأنه سوف لا يدع من سبب للولايات المتحدة في شنّ الحرب على العراق.

فلسفة الصقور: كانت أمريكا ترى بأنّ هنالك أكثر من مبرر للتخلّص من صدام الآن قبل أن يفكرّ في توريط شعبه والمنطقة في مذابح كبرى أو حروب مدمّرة. فالعالم لم يكن يدرك خطر شخصية كشخصية صدام، بل كان يرى فيه بأنه لم يكن مختلفاً عن شخصيات أخرى دموية شهدها التأريخ مثل ستالين (ت 1953) أو بول بوت (ت 1998) أو كراديتش سفاح سربينستا، أو سلوبودان ميلوشيفتس (ت

= الأخبار ليست هي ما يعوّل عليها ما لم يتمّ توثيقها، مع أن التوثيق في عالم الغموض والسياسة أمر صعب بل مستحيل أحياناً، ولكن تفسير الحدث السري يتأتّى من خلال مقدمات ومخرجات ذلك الحدث. فالمقدمة تقول باستحالة عدم امتلاك صدام لأسلحة الدمار الشامل باعتباره أنه كان قد استعملها في الماضي ضد الأكراد والشيعة والمعارضة وفي الحرب، فذلك أمر بديهي لا يمكن النقاش فيه، أمّا المخرجات فهو أين هو السلاح إذن. . ؟ إيران. . . ؟ مستبعد جداً، سوريا. . . . ؟ ليس لها من مصلحة، السعودية. . ؟ احتمال صعب، تركيا. . ؟ احتمال أبعد. . . في شمال العراق. . ؟ ليس خياراً واقعياً. . . . ، الأردن. . . ؟ أبعد كلّ الاحتمالات. إذن أين هو. . ؟ هل هو لدى إسرائيل. . ؟ ممكن لأن النظام الصهيوني يمتلك أكبر خزين للسلاح الكيمياوي كما يقال في العالم بعد أمريكا، وأنها دولة تعيش على الأزمات، ومثلها مثل السمسار الذي لا توقفه فلسفة فكرية في تحقيق غاياته، كما أنها الدولة التي تحلّ أزمات العالم في حالة الوقوع في هكذا مطبّات.

2006). أو جمال باشا السفاح (ت 1922) أو أبو العباس السفاح (ت 754 م). . أو مسلم بن عقبة المري (ت 63 هج) الخ، مع أن الواقع الفعلي يقرّ بما لا يقبل الشك بأن شخصية صدام كانت بالفعل مختلفة اختلافاً كلّياً عن أيّ من الشخصيات الشمولية التي حكمت بلدانها، بل كانت شخصية خطرة كما هي شخصية هتلر التي كانت مملوءة بالعقد والحقد على الآخرين.

فلو قُدّر أن تمّ تصفية هتلر قبل الحرب العالمية الثانية لما وصل العالم إلى المرحلة التي قتل فيها أكثر من 75 مليون إنسان، ولو قدر أن قُتل هتلر فيما قبل الحرب تلك لما كان الناس قد عرفوا ماذا يعني التخلّص من سفّاح ابتداءاً.

فقد تعرّفت القيادات في الحزب الجمهوري الأمريكي بعد أن أعادت قراءة التأريخ في المنطقة العربية وتوصّلت إلى حقائق مهمّة في مسيرة الحكام، وخصوصاً الحكام المسلمين الذين أباحوا لأنفسهم من خلال أدبيات موروثة من تراث المسلمين إلى أن الحاكم معصوم حتّى وإن كان سفّاحاً قاتلاً، كما وجدوا بأنّ التراث الديني الوحيد بين ديانات الأرض الذي يرى حرمة في الخروج أو مقاتلة الحاكم الظالم، بل إنّ البقاء على ظلمه وعلى ديكتاتورته عند الله هو أفضل من أن يثور الناس. وعرفت كذلك مراكز بحوث الغرب أنّ معظم تراثيات المسلمين، وما كتب في الكتب التي يعمل بها المسلمون هي تراثيات كتبها ذات الحكام، وليست هي ما يؤمن بها الدين بصورة عامة أو الإسلام، (ربما ما عدا فقهاء الإسلام السياسي) بصورة خاصة، وقد

أشار إليها في البعض من ذلك بصورة قريبة من هذا المعنى في القول بأن الإسلام تحول إلى تراث صبغته تعاليم المذهب الحنبلي(1).

مع أنّ الغربيين عموماً، والباحثين خصوصاً يتجنبون الخوض في مفاهيم الدين، لأنهم يرون بأن الدين شيء ثابت غير متغيّر، وسواء تكلّموا فيه أو انتقدوه فإنّ ذلك ليس من باب المنطق العقلي باعتباره أمر لا يمكن النقاش فيه، وأن التبعيّة تقع على عاتق من آمن بتلك المفاهيم، ولذلك فإنّ مناقشة المفاهيم الدينية أمر غير صحيح في العُرف الغربي. وهنا نرى السبب في تجنب مناقشة بحوث الدين سواء أكان ذلك الدين هو الإسلام أو المسيحية أو اليهودية.

وقد تفهّم (الصقور) من (الجمهوريين) بأن المسألة ليست هي مسألة إيمان أو اعتقاد، وإنما هي ثقافة حكم وسلطة يراد فرضها بالقوة من خلال استعمال سياسة الأمر الواقع وهي سياسة يقرّها الإسلام كما جاء في جلّ الأدبيات التي كتبت عن الحكم في الإسلام، وأنّ الحاكم هو من يتمكّن أن يكون ذا منعة وقوة، وأنه ذلك الذي يملك قوة السيف، ولا علاقة بالمبادئ أو غيرها في شخصية الحاكم مع أن المسلمين يحاولون التغطية على ذلك بطريق أو بآخر، ولكنّه من الثابت وبما لا يقبل الشك في أن مدرسة (الخلافة) تحصر شروط الحاكم بثلاث(2).

(1) لغة السياسة في الإسلام، برنارد لويس، دار قرطبة، بيروت لبنان 1993.
(2) القلقشندي، الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي الطوسي مطبعة السعادة، مصر 1327 هجرية.

هذه المفاهيم خطرة جداً بل مدمّرة ليس على نطاق المسلمين فحسب، وإنما على كلّ العالم، فلو افترضنا جدلاً بأنّ صداما أو أي حاكم آخر بعقلية صدام[1] قد تمكن من إقناع مليون مسلم في التحرك وضرب دولة من دول العالم المجاورة أو الغربية من منطلق وجوب الجهاد في التحرك نحو الصليبيين أو غيرها من المسميات الأخرى، وتمكن من تزويدهم بأسلحة خفيفة أو ثقيلة، فما تعتقد أن الأمر سيكون أمام مجتمع إسلامي يشعر منذ سقوط الدولة العثمانية عام 1923 بأن العالم بأراضيه هي ملكه، وأنه يجب عليه استردادها من سالبيها، فهذه النغمات ستجد لها أثراً كبيراً جداً في العالم الإسلامي وفي شتّى بقاعه، فعندئذ حتى ولو كان تمكنهم من الوصول إلى هدفهم معدوماً فإن القتل واستباحة الأرواح سيكون هائلاً، وهذا أمر تأباه النفسية الإنسانية[2] المتحضّرة.

---

(1) يعتبر صدام في العرف الإسلامي أي (مدرسة الخلافة) حاكماً شرعيا لأنّ صفات الحاكم الشرعي هي أن يتمكن من أن يملك القوة، وهي إحدى معايير الشرعية التي تبيح للحاكم السيطرة، بالإضافة إلى النص والتعيين. وهنا يجب على الأمّة طاعته وحرمة الثورة عليه حتى ولو كان فاسقاً. ثم إن فسقه هو أمر نسبي من الصعوبة التمكن من إثباته، كما أن موضوع القتل وتصفية المعارضين الفكريين أو السياسيين مسألة تعتبر من مآثر الحاكم وليس من سلبياته، وهنا يمكن لنا أن ندرك مقدار الألم الذي انتاب العالم السلفي في مقتل صدام، وربما كذلك العالم المتسنن (السياسي). وانطلاقا من هذه المفاهيم فإنني لا أستبعد أبداً في أن القاعدة كانت على علاقة ربما قريبة جداً من صدام من خلال أطراف ثالثية وليس بصورة مباشرة، فالأهداف متقاربة جداً ما بين الطرفين وخصوصاً جانب ضرب الغرب وجانب استباحة المخالفين للحكم.

(2) في معركة الهجوم على أفغانستان في عام 2002 حشدت طالبان عدداً ضخماً من الناس ممّن يؤمن بوجوب القتال ضدّ الأمريكيين القادمين من الشمال، وكانت معركة =

ولذلك فإن (برنارد لويس) نفس الكاتب المعروف السابق قد حذّر الغرب من هجمة يقودها مسلمون متعصّبون يدمّرون من جرّاء إيمانهم بعودة الإسلام للحضارة الغربية، والتي شبّهها بالهجمات المغولية التي قادها (هولاكو) في القرن الثالث عشر على بقاع العالم المختلفة.

وقد لا نجد أرضية فكرية ملائمة لشنّ حرب على الآخرين من قبل أفكار أو أديان العالم الأخرى (الإبراهيمية مثلاً) أكثر من الفكر الإسلامي[1] وما يوفّره من مبررات لقتل الآخر، خصوصاً فكر (مدرسة

= (مزار شريف) من المعارك التي تقدر عدد الأرواح التي أهدرت بعدد غير موثق وهو 50 ألف أفغاني بريء كانت الدعايات (الطالبانية) قد حشدته لمواجهة قوة مدمرة تقودها طائرات ب 52 الرهيبة. نفس العملية كادت أن تحدث في حرب تحرير الكويت عندما حشد صدام ما يقارب من ربع مليون جندي عراقي بريء عليهم أن يكونوا في مساحة الصحراء الفاصلة ما بين الدولتين، ولكنّ الفرق هو أن العراقيين كانوا قد أدركوا لعبة صدام وبذلك لم يقاتلوا بالأسلوب الذي قاتل به الأفغان في (مزار شريف) فسمحت لهم القوات الأمريكية بمغادرة المكان طوعيا أو الأسر لبعضهم. ولكنّ القوات الخاصة خلال اليوم الثاني أنقضت على الجنود الذين رفضوا القتال بقصف في محاولة لإبادتهم، وقد أدركت القوات الأمريكية ذلك ولكنّ ليس بالسرعة التي يجب عليها أن تدركه، وعندها توجهت القوة الأمريكية الخاصة بإبادة كامل الألوية التي كانت مكلفة بهذا العمل في مذبحة معروفة على الطريق بين صفوان والحدود الكويتية راح ضحيتها كما هو رقم غير موثق تقريباً عشرة آلاف عراقي من الحرس الخاص.

(1) أعني بالفكر الإسلامي هنا هو ما وصلنا، وما تمّ كتابته من قبل الحكام، وهو الآن يعتبر المادة الفكرية التي يعتمد عليها الحكام المسلمون الذين يحكمون في البلدان العربية، ولا أعني به أصل مفاهيم الإسلام التي تدعو إلى التسامح وتقبل الآخر ممّا لم يتمكن الباحثون من أن يتناولوه في بحوثهم وقد كتب فيه الشيء القليل، وهذا ما اعتقده السبب الرئيسي المتضمن للانتفاضات الجماهيرية التي اجتاحت البلدان الإسلامية ربيعها كان أم خريفها.

الخلافة) التي تستند على المذهب (الأشعري) الذي ساد العصور الإسلامية في دول الإسلام الثلاث على الأقل. مع أن هنالك أكثر من مدرسة تفرّعت من ذلك التوجّه الأشعري، لا تقلّ خطورة عن أدبيات الأشاعرة، وربما (الأزارقة)، والخوارج هم من أشدّها تطرّفاً والتي تفرّعت من خلال فكر تلكما المدرستين أفكار الإرهاب التي تنتشر الآن في هذا الوقت.

النتيجة:

- لا يرى زعماء المدرسة المحافظة (Conservative) الأمريكية سبباً في عدم استعمال القوة الأمريكية قدراتها في مواجهة الديكتاتورية.
- يعتقد المحافظون بأن ضريبة القوة الأمريكية هي التخلص من ديكتاتورية الإنسان، وإشاعة روح حكم الإنسان لنفسه.
- يرى الخط المحافظ بأن أمريكا يجب أن تكون دولة تعتمد قاعدتها على الأديان من ناحية الفضائل، لأنّ غياب الفضائل سوف يؤدّي بالدولة إلى الانهيار.
- وجود صدام في ظل حكم الدولة العملاقة أمريكا يعتبر قدحا أو نقصاً في ارتباطهم بالمثل السماوية.
- إنّ التخلص من صدام هو بداية للتغيير في الدول العربية والإسلامية.

محنة المبادىء

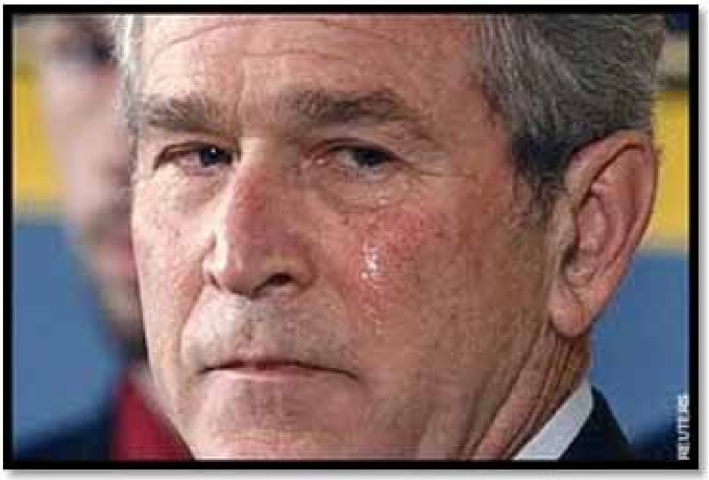

البداوة والسياسة: من الصعوبة جداً أن يتمكن الإنسان - أي إنسان - في الوقت الحالي من الألفية الثالثة من أن يقنع الشعوب في شرعية شنّ حرب على دولة بسبب الاختلاف في مبادئها أو مثلها الدينية، فالشعب الأمريكي شعب من الصعوبة له تفهم كلّ أسباب الصراع في الشرق الأوسط، فهو لا يعلم لماذا يطالب العرب أو المسلمون إسرائيل اليهودية أولاد عمومتهم في أن يرحلوا من أرض أجدادهم السابقين في الوقت الذي تحتل الصحاري ربما ثلاثة أرباع بلاد المسلمين.

فالغربي هو من يفهم الأرقام ويفهم التحليل الواقعي مع ابتعاده بالقدر الممكن عن لغة الغيب ولغة السماء، إلّا من باب التسديد كما نقول نحن «إن شاء الله». وتزداد تلك الصعوبة عندما يتحول الصراع إلى مشكلة مالية اقتصادية أو تدمير بنية تحتية، أو سحق شعوب أخرى. . . . . فإسقاط نظام كنظام صدام حسين هو ليس من مسؤولية الدولة الكبرى، وإنما هي من مسؤولية البطاقة الانتخابية كما يعتقد، أو من مسؤولية الشعب العراقي ذاته.

وهذا ينطبق باطراد على مفاهيم حرب فيتنام، وحروب البلقان، والحروب العربية الإسرائيلية، أمّا الحرب ضدّ الاتّحاد السوفيتي السابق فإنه مبرّر باعتبار أن الاتحاد السوفيتي السابق كان له من القدرة أن تصل

يده أمريكا من خلال الصواريخ عابرة القارات، أو من خلال الأسلحة المتقدمة.

أما الحرب على العراق فإنها ليس لها من مبرّر، فليس هنالك من قدرة لدى صدام في ضرب أمريكا أو أن يُرسل صاروخاً نووياً لضرب نيويورك أو غيرها. وعليه فإن الدعاية التي كان على بوش أن يتبناها هو ربط أحداث سبتمبر 2001 مع صدام، ومع كلّ ما يمتّ بصلة إلى (بن لادن) أو غيره[1] ومع أننا لسنا في مجال إثبات أو نفي علاقة صدام مع القاعدة أو غيرها، ولكننا نريد من هنا أن نرى كيف تمكّن بوش الابن من أن يضيف إلى مخطّطه القاضي بالتخلص من صدام نقاطاً وقائية أو مستقبلية يرمي من خلالها حشد الشعب الأمريكي في اتجاه مرمى شنّ الحرب.

فقد تمكّن من أن يستغل العامل الديني[2] وحادثة سبتمبر 2001

(1) كانت التقارير التي رفعتها المخابرات الأمريكية هي اجتماع (محمد عطا) المسؤول الأول عن أحداث سبتمبر 2001 مع شخصيات عراقية في بلغاريا أو ما شابه. وهي تقارير ليس لأحد أن يثبتها أو أن ينفيها، مع أن التقارير المخابراتية العالمية تنفيها، ولكنّ المحنة الكبرى في التعامل مع المخابرات الصدامية هي غياب التوثيق لدى تلك المخابرات، مع أن البعض منها كان على الورق وهو أسلوب قديم جداً في عمل الأجهزة الأمنية. فعندما تغيب المعلومة التكنولوجية فهنالك شكّ في صحتها، وهذا ما كان حاصلاً في العلاقة التي أحرجت المخابرات الغربية في توثيق الكثير من الأعمال التي كان النظام العراقي يقوم بها.

(2) إنّ الشعب الأمريكي شعب متدين ضمناً (أقصد ضمناً) هو سهولة إقناعه بما يقوله الدين، ربما هي صفة يتشارك بها مع شعوب كثيرة في العالم، كما لا يتبادر إلى ذهنه في أن هنالك سبباً يدفع الناس إلى استغلال الدين أو الكذب في الدين، هذا في الوقت الذي يحترم المواطن الأمريكي كلّ ما يتعلق بالدين شخصية كانت أم قول أم عمل. =

للوصول إلى هدفه الذي كان قد تمّ اتخاذ القرار فيه، وهو التخلص من صدام من خلال حرب حقيقية. ليس باعتباره مناهض للسياسة الأمريكية، أو أنه يمتلك نفطاً لا يسمح له بالوصول إلى الغرب، أو ما إلى ذلك. فكلّ تلك الأقاويل لم يكن لها من واقعية أو مصداقية، وليس من السهولة تسويقها، فكلّ ما عرضه ساوم عليه الغرب (غير أمريكا وبريطانيا) ما قبل عام 1999 تمّ قبوله من قبل العراق وقيادته، بل كانت تلك القيادة لا ترى من مبرر للاستمرار في المواجهة، وأنها مستعدة لتقديم ما هو أكبر من ذلك أمام شرط واحد فقط هو بقاء تركيبة النظام، وكانت تعني باللغة العامية هو بقاء صدام في الوقت الذي كانت أمريكا متشكّكة في أنّه حيّ إلى ما بعد عام 2000 لأنها لم تتمكّن من أن تلتقط أي إشارة إلى أنه لازال حياً. في الوقت الذي كانت إسرائيل تدفع أمريكا إلى طرف غير مفهوم مع رغبتها القوية في إيقاف مبادرة إسقاط النظام الصدامي بحجج كثيرة أهمها هي أن المنطقة لا تحتمل حرباً أخرى، وأن صداماً قد يعاود ضرب إسرائيل بصواريخ (سكود) ثانية مع أن كلتي الحجتين كانتا واهيتين بصورة لا تخفى على العقل الأمريكي. وكان هدف إسرائيل الحقيقي هو منع أمريكا من أن تقيم نظاماً ديمقراطياً في العراق أو في الدول العربية، لأنّ الديمقراطية في البلدان العربية والإسلامية هي الجو الخانق الذي تموت فيه فكرة الدولة العبرية أو العلوّ الصهيوني.

= لأن الدين في عرفهم هو عمل تطوعي لا يرمي المتدين منه إلّا النفع العام. وهذا ينطبق على الملحدين من الأمريكيين كذلك.

خيار وحيد فقط: لم تعد مقولة (موت صدام) مقنعة لدى الشعب العراقي، فالشعب العراقي سمع بهذه الأقاويل وما فتئ عليها لأكثر ربما من عقدين من الزمن وكانت كلها تنتهي إلى هباء في نهاية المطاف.

فقد وجدت أمريكا بأن إعلان موت صدام لا يخدم الهدف الذي ترميه من العراق، ولا يغير من الأمر إلّا بلحاظ أن يأتي فيما بعده شخصية أخرى ربما ابنه أو من يحيط به من أعوان، ربما عبد حمود أو قصي أو ما شاكلهم، وهو ربما ما يستدعي من القادم الجديد إلى إعلان قبوله بالشروط، ثم وضع مشروع للتعامل مع أمريكا بالصورة التي تمنع خطة الدخول إلى العراق من خلال جيش أو قوة عسكرية. وهو الطريق الوحيد الذي يعطي للولايات المتحدة القابلية على إحداث التغيير العام في المنطقة العربية والإسلامية وذلك بتغيير الأنظمة، هذا بالإضافة إلى مطامع أمريكا في التخلص من نظام شمولي خطر على العالم.

وكانت الولايات المتحدة تدرك جيداً بأن أسباب انحسار ثورات الشعوب الإسلامية ضدّ حكامها يعود إلى عوامل متعدّدة، في الوقت الذي لم تتوانى الشعوب الغربية الشرقية أو اللّاتينية في الثورة على حكامها في وقت ظهور أول علامة من علامات الضعف في الدولة أو في قيادتها.

أرادت أمريكا أن تتبنى نفس الأسلوب في الدول العربية والإسلامية، وهو إيصال رسالة إلى تلك الشعوب بأن أمريكا موجودة فعلاً في العراق (ما بعد الحرب) وأنها تمكنت من حسم الأمر لصالح نظام ديمقراطي شعبي عراقي، وعليه فإنّ الأنظمة العربية لو أرادت أن

تقمع التحرك الشعبي بالحديد والنار فإن أمريكا ستقف موقفاً مواجهاً لذلك النظام لو فكر في ذلك، على شرط تحرك شعبي ذي تيار عريق وكبير، ولقد تحقّق الشيء هذا في ثورات الرّبيع العربي وتمكنت القوى الشعبية من أن تغير أنظمتها بالطريقة التي كانت أمريكا تراها أو تعتقد في حدوثها بعد التغيير في العراق.

وقد كان أسلوب سقوط الاتّحاد السوفيتي قد بدأ من (بولونيا)[1] وهذا الاعتقاد الأمريكي في التغيير العربي أو الإسلامي كان مشابهاً كثيراً لما حدث في أوروبا، ولكنّ الاختلاف الكبير الذي لم تدركه أمريكا ولم تتمكن من استيعابه ينحصر في ثلاثة عوامل:

- سيطرة العقلية الدينية التي أولاً تعطي الشرعية للحاكم المتمكّن من الدولة.
- وحجم الخوف والرعب ثانياً.
- وثالثاً التخلّف الفكري والثقافي الذي تعيشه الشعوب العربية[2].

كان الرئيس الأمريكي يعتقد بأن تغيير النظام السعودي مثلاً أو

(1) عندما تحرك الشعب في بداية الثمانينيات وهو الشعب الذي يضم أكبر عدد من الكاثوليك في أوروبا مقارنة بما في الدول الأخرى الأوروبية. تحرك في البداية وتوجهت أمريكا إلى حمايته بطريقة أو بأخرى إلى أن تمكنت منظمة التضامن العمالية (Solidarity) بقيادة (ليخ فاونسا) من أن تسقط النظام العسكري، وتقيم حكومة مستقلة في البداية وهذه البداية أصبحت سبباً في إسقاط المعسكر الشرقي الذي كان يقع تحت وصاية الاتّحاد السوفيتي إلى أن سقط جدار برلين في عام 1989 فانهار الاتّحاد السوفيتي خلال فترة قياسية في عام 1991.

(2) أنظر تقرير الأمم المتحدة الخاص بالتنمية البشرية الذي أصدر في بداية القرن الحالي (المصدر السابق).

اللّيبي لا يختلف في أساسياته عن تغيير النظام البولوني أو الروماني الذي ينطلق من دوافع مشتركة أهمّها:

هو إعادة حرية الإنسان لنفسه وتقاسم السلطة، وهما السببان الرئيسيّان اللذان انطلق منهما مفهوم سقوط المعسكر الشرقي.

أمّا في البلدان العربية فإنّ الأمر مرتبط أكثر بالحالة الاجتماعية التي اختلطت بالدين، فلذلك فقد تجد أنّ باكورة الأقطار التي تحرّرت في ثورة الربيع العربي هي الأقطار التي تمتلك أكبر قدر من الثقافة والحضارة غير المرتبطة بتراث الغيب، وهي تونس ومصر، أمّا ليبيا فإنها حركة كان للغرب أن ساندها عسكرياً، وشأنها شأن تغيير النظام في العراق.

بمعنى آخر كان الخيار العسكري هو الوحيد الذي يمكن له أن يكون فعّالاً في الدول التي تمتلك نظاماً دموياً وشمولياً مثل ليبيا أو العراق[1].

(1) فقد كان من المستحيل على الشعب الليبي أن يتحرر من سيطرة القذافي لو ترك وحده بدون المساندة المسلحة التي وفّرها الحلفاء إلى المعارضة الليبية التي كانت في الحقيقة أضعف من أن تفكر في إسقاط النظام، وهو ذات الشيء بما يخصّ النظام الصدامي الذي لا يختلف كثيراً عن نظام القذافي. أما موضوع اليمن فهو أمر بين أمرين له ظروفه التي ليس هنا محل نقاشها، كذلك واقع المعارضة البحرينية التي تمثل مساراً مختلفاً كلياً عن مسار الدولتين تونس ومصر، بل أنها أقرب كثيراً إلى العراق في الوقت الذي لم يكن الحاكم البحريني مشابهاً إلى صدام بصفة ما، وهذا ما أفقد معادلة التحرك قليلاً، وعلى أساسها تدخلت السعودية بقوات ضخمة بدون أن تأخذ رأي أيّ من الشركاء الإقليميين ولا حتى أمريكا، بل أنها كانت ولازالت تعتبر موضوع البحرين الخاصرة التي تجلب الموت والحياة إلى السعودية كما ترى الأمور من منظارها الضيق الطائفي. =

هل الدين فلسفة وعمل. . . ؟: إنّ الاتّجاه الديني الذي ينتمي إليه بوش (الميثودست أي النظاميون أو العمليون المتحدون) يرى في تغيير العالم أمر متعلق بالجانب العملي للأمم، وليس من خلال الطقوس الغيبية التي كانت يؤمن بها المذهب السابق الذي كان بوش الابن ينتسب إليه[1].

لم يشأ بوش الابن في أن يتناول هذا المفهوم علنياً بسبب الخوف من الاتّهام (بالتدين) أولاً، وبخلط السياسة مع الدين ثانياً، وثالثاً الواقع الإسرائيلي الذي يتحسّس من توجّهات آل بوش عموماً، ولذلك وعلى هذا الغرار فكّر - بوش - في أن يطرح موضوع الله ولقائه مع موسى وهي قصة تتفّق كلّ الأديان على عموميتها على مستوى الرواية،

= وعندما ننتقل إلى الواقع السوري تتغير المعادلات في شتّى الاتجاهات ضمن أخطاء سورية وسعودية وربما نقول أخطاء أمريكية أيضاً. الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التأريخ، هاشم صالح، دار الساقي بيروت 2013.

(1) فالمذهب الجديد هو من المذاهب التي تخلط العلم بالدين، وكذلك ترى بأن السياسة هي نتاج تربية الدين، وأن السياسي الناجح هو المتدين الجيد، وليس العكس، وأن المتدين المسيحي هو الذي يؤمن بتغيير كيان الإنسان إلى الأفضل من خلال العمل بطريقة إقرار الدولة القوية، أو بمعنى آخر فهم يرون في أن الدولة هي الطريق التي تحقق سعادة الإنسان من خلال النظام الذي تضعه السلطة. وبما أن سلطة الدول التي سيظهر فيها المسيح وهي أرض الميعاد أو فلسطين أو إسرائيل الآن لم تعد الدولة التي تتمكن من أن تكون القادرة على نشر تعاليم المسيح في حالة ظهوره بسبب الحواجز السياسية والحواجز الاجتماعية واللّغوية وغيرها من المتغيرات التي هي حواجز واقعية في أن يتمكن أي قائد من أن يقوم بعملية توحيد الأمم وتوحيد الشعوب، ولذلك فإن الواقع الإسرائيلي يحتاج إلى تغيير من خلال أولويات ذوبان المجتمع الإسرائيلي بثقافة الشعوب الأخرى مع الاحتفاظ بقدراتها التي تمكنت من أن تقيمها أو تبنيها خلال أكثر من ستين عاماً.

وعلى مستوى الأهداف في تحرير الإنسان من عبودية الحاكم القوي المتغطرس إلى حاكمية السماء. وهنا لم يكن له من خيار في أن يذكر المسيح في مثالنا هذا باعتبار أن المسيح جاء بعد موسى وأن اليهود يعتبرون المسيح يهودياً، كذلك المسلمون الذين يرون في قصة موسى أمراً ثابتاً كما يرويها القران الكريم.

كل ذلك ترك الأمر في أن يكون منطلقاً من مفهوم الثورة على الحاكم الطاغية، وهو (فرعون) في المثال الذي جاء به بوش، والذي يعني به في الواقع الحالي هو محاربة المتسلّطين من الحكام الذين يسومون شعوبهم الذلّ والسّخط(1).

بالتّأكيد لم يكن الحديث عن نظرية الأديان فيما يتعلق بمستقبل العالم أو بمستقبل وواقع أمريكا الديني مرضياً لدى الكثير من المذاهب المسيحية أو اليهودية، أو حتى الإسلامية، لأنّ الجانب السياسي غالباً ما يكون محط هجوم من قبل المتنافسين السياسيين، وهو ما يحاول الأمريكيون تجنبه لكي لا يقعوا في تهمة محاربة الأديان أو غيرها.

ولكنّ بوش الابن كان يقصد من ذلك هو أن يُعضّد نظريته في الحرب على العراق بأنها حرب مبادئ، وليست حرب سياسة، أو حرب استحواذ على أرض أو ثروة، وقد أكّد في خطابه على حوار موسى مع الخالق في أنه لا يرغب في مواجهة فرعون في الوقت الذي يمتلك الشعب الغذاء (العسل واللبن) وهذا كاف له في أن يعيش شعبه

(1) من الممكن مراجعة كلّ خطابات بوش الدينية على الموقع التالي:
http://www.beliefnet.com/News/Politics/2004/07/George-W-Bush-On-Faith.aspx.

بأمان، ولكنّ الله أخبره بأن الإنسان لا يحيا فقط بالطعام، وإنما عليه أن ينقذ (بني إسرائيل) من الظلم والقتل على يد فرعون، وكأن بوش الابن أراد أن ينقل إلى الشعب الأمريكي، وإلى صُنّاع القرار بأن أمريكا مع خيراتها التي أفاضها الله عليها لا يعفيها الرب من القيام بواجبها في إنقاذ الشعوب المغلوبة في تلك المنطقة، التي يتوقع ظهور المسيح فيها، وهي الشام وفلسطين ومصر[1].

(1) وقد نشرت مجلة (The Guardian, Friday 7 October 2005) للكاتب (Ewen MacAskill) حديث بوش الابن مع (نبيل شعث) وزير خارجية فلسطين في لقائهما بشرم الشيخ بعد الدخول إلى العراق قائلاً: بأن الله قد أمره في أن يقوم بتحرير أفغانستان والعراق، وأن يساعد في قيام دولة فلسطينية، والواقع أن الترجمة كانت غير صحيحة في المفهوم ولا في شكل النقل، فقد أراد بوش أن ينقل رسالة مفادها أن (الرب) دائماً هو المتحكم في مسيرة العالم، كما هم المسلمون الذين دوماً ما يردّدون (إنشاء الله) أو (هذه إرادة الله) أو (أن الله ساعد) أو ما إلى ذلك. ولكنّ الإعلام حول القضية إلى مسخرة لما يؤمن به الرئيس من مقولات سفسطائية لا تمّت إلى واقع السياسة بشيء، والغريب أن تلك الرواية هي من نقل (شعث) فقط، في الوقت الذي يبدو هذا الرجل محدود الفهم فيما يتعلق باللغة أو بالتأريخ.

دوافع المواجهة مع العراق

أرقام التأريخ: لم يتمكن أيّ من السياسيين الأمريكيين وغير الأمريكيين، ومن الإسلاميين في التوصّل إلى السبب المباشر (السياسي) أو (الدولي) في مهاجمة العراق من قبل أمريكا والحلفاء[1]، كما لم يفهم بالضبط مدى ما أعلنته الأمم المتحدة بشأن أسلحة الدمار الشامل، فالكل يعيش في حيرة من أمره في تفسير ظاهرة الهجوم على العراق واحتلاله.

فهذا (جورج تينت) مدير المخابرات الأمريكية (CIA) في كتابه الأخير[2] يقول بأن تقاريره التي قدّمها إلى الرئيس بوش لم تكن أبداً هي التي دفعت الرئيس إلى تبني سياسة الهجوم واحتلال العراق، ويقول بأن الخطة كانت جاهزة ومعدّة سلفاً في الوقت الذي يسائل نفسه عن دوره هو في تلك الأحداث، ودور المخابرات المركزية الأمريكية في تقديم الحل العملي في موضوع الحرب.

كما لم يتمكن الكونغرس أيضاً من أن يدرك جيداً مدى جدوى

(1) على الأقل لم يقلها أحد بصورة واضحة وجلية أو بصورة علمية دقيقة اعتماداً على ثوابت موثّقة، فكلّ من تحدّث عن هذا الموضوع كان إمّا منفعلاً للحرب أو متقبلاً لخلفياتها. ولذلك بقيت المسألة موضوع ردّ وبدل في أروقة السياسة وفي محيط الثقافة.

(2) في قلب العاصفة، جورج تنيت، دار الكتاب العربي، بيروت 2007.

ذلك الاحتلال، ولذلك فإنّه و- بصعوبة بالغة - تمكّن بوش من انتزاع قرار الموافقة من الكونغرس، والأمم المتحدة نفسها، لم تكن لتدرك تماماً بأن قرارها التي أصدرته في تحذير صدام، لم يكن يشمل عبارة احتلال أو شن حرب على العراق.

فالعالم برمّته لم يقتنع بالأسباب التي أعلنها (كولن باول) وزير الخارجية آنذاك في خطابه البائس في الأمم المتحدة بما ساقه من أدلّة على محاولة إخفاء أسلحة الدمار الشامل، فقد كان ذلك الخطاب فعلاً خطاباً لم يتناسب أبداً مع دولة كبرى وقوية كالولايات المتحدة في سبيل مطلب شن حرب شاملة على قطر وتغيير نظام، فالأدلة كانت ضعيفة بشكل لم يتمكن الوزير (باول) من أن يصمد أمام أعضاء السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية في إثبات ما حاول إثباته من أن العراق يجب أن تتمّ مهاجمته واحتلاله من قبل أمريكا.

إنّ قرار الحرب وكما يبدو كان قد أعدّ قبل ذلك ربما بسنة أو سنتين من قبل المجموعة التي آمنت بالحدث، حدث التغيير، حدث (المدخل إلى تغيير المنطقة من خلال العراق)، فهو حدث حضاري فكري منطلق من الفهم الأمريكي لواقع التغيير المنشود الذي ترميه الفلسفة الأمريكية في أهمية العراق في مسيرة التغيير المستقبلية لدول المنطقة.

ونحن نتحدّث الآن فيما بعد ذلك التأريخ بعشر سنوات، أو يزيد فإنّ نتائج عملية احتلال العراق أثبتت بشكل كبير بأن مقولة التغيير في العراق فعلاً كانت مدخلاً واقعياً إلى تغيير دول المنطقة، فقد كان البعد

السياسي والحضاري صائباً، بل واقعياً بنسبة ما ربما تقترب على ضوء سنن التأريخ، والمدة الزمنية التي عشناها إلى أكثر من 60% ضمن تلك الفترة، ولعلّ أحداث المنطقة المقبلة ستقدّم لنا ما يعضد تلك النسبة بقدر ما فترتفع إلى ما هو أكثر، أو أن تتغير باتّجاه السلبية.

فالحدث الإيجابي يضيف رقماً، أمّا الحدث السلبي فإنه صفر على مستوى التأريخ، لأنّ العطاء السلبي غالبا هو لا شيء. مثلاً لو أنّ الحرب العراقية الإيرانية لم تحدث فإن عطاء الحدث بالتّأكيد هو صفر، وكذلك أي حركة تاريخية سلبية، لأنّها ستصبح افتراضات مثل عدم مقتل الإمام الحسين أو عدم وصول هتلر إلى حكم ألمانيا، فهذه الأمثلة هي عبارة عن أصفار لا تضيف إلى مسيرة التاريخ رقماً.

أمّا الحدث الفاعل فإنّه بالتّأكيد رقم، وهو رقم إمّا أن يكون سالبا أو يكون موجباً، سالباً إذا كان الأمر مخالفاً لمسيرة أصل الفكرة، مثلاً أن يتحول العراق ما بعد عام 2003 إلى دولة ديكتاتورية أشد تحجراً من ديكتاتورية صدام، أو أن تتحوّل دول المنطقة إلى دول عشائرية بالكامل.. هذه الحوادث هي أرقام سلبية بالتّأكيد تؤدّي بالتالي إلى نتيجة سلبية.

أما إذا كانت النتائج مغايرة لما كان قبل التغيير فإنه لمن العلميّة أن نضع علامة الإيجاب على مسيرة التاريخ. وهنا لا بدّ لنا في أن نقيّم سلبيات وإيجابيات ما كان المحافظون الأمريكيون يفكرون فيه من خلال احتلال العراق، وفيما إذا كان ذلك الاحتلال هو رقم مطابق للتوقعات أو أنه مخالف لها:

في العراق ولأول مرة ومنذ تأريخ أرض ما بين النهرين 4500 سنة تقام حكومة أنتخبها الشعب[1].

- في العراق ولأول مرّة يصل إلى السلطة الأكثرية العددية[2].
- في العراق ولأول مرّة يتمكّن العراقيون من أن يقولوا ما يعتقدون به سلباً أم إيجاباً[3].
- في العراق ولأول مرّة يخلو العراق من سجون الرأي[4].
- في العراق ولأول مرّة يخلو العراق من حاكم شمولي (ربّكم الأعلى)[5].
- لأول مرّة في تأريخ العراق تتمّ السيطرة على النفط من قبل مجلس الوزراء[6].
- انتقال العراق إلى مصاف الدول المهمة في المنطقة بعد أن كان هامشياً.
- في محيط العراق ولأول مرّة تسقط أنظمة من قبل الشعب بطريقة سلمية[7].

(1) مع التحفّظ بشيء ما على كلمة (الانتخاب) في الوقت الذي نعترف بأنه بداية والبداية صعبة.

(2) وهم الطائفة الشيعية.

(3) حرية الصحافة وبقية وسائل الإعلام.

(4) مع نسبية في طبيعة وتعريف كلمة (سجناء الرأي).

(5) مع استثناءات بسيطة مثل فترة الدولة الإيلخانية والعهد الملكي وفترة عبد الكريم قاسم.

(6) فيما يتعلق بمعرفة كمية التصدير وما إلى ذلك.

(7) ثورات مصر وتونس واليمن وليبيا.

- في محيط العراق ولأول مرة تشارك الشعوب حكّامها في صناعة القرار[1].
- في محيط العراق ولأول مرة يتمّ الاعتراف بأفكار ومبادئ كانت محظور التفكير فيها[2] بدون شنّ حرب إبادة منظمة.
- تفهّم الغرب وخصوصاً الواقع البحثي الأمريكي إلى أهمية أن تبنى حضارة متشابكة عربية دينية ذات فضائل مع الحضارة الغربية ذات البعد المادي التكنولوجي[3].
- ظهور إسرائيل على حقيقتها من حيث مطامع التوسّع والميل في السيطرة على العالم العربي بطريق القوة[4].
- ظهور أهمية الدين ودوره في بناء حضارة الشعوب[5].
- الانفتاح التكنولوجي وثورة المعلومات على العراق وتوجّه المواطن إلى تفهّم دور العلم في رفد مسيرة بناء بلده[6].

---

(1) برلمانات الدول العربية بمختلف تشكيلاتها.

(2) أفكار دينية أو مذهبية أو قومية أو وطنية.

(3) باعتبار أن التضليل العربي كان دوماً يقدم الصورة غير الحقيقية لواقع الدول العربية وواقع القدرة البحثية، والعلمية، في الوقت الذي كان الغرب يحتاج إلى فضائل الإسلام من أجل مواجهة تيارات الإلحاد والتحلل.

(4) وهو مفهوم تأباه أمريكا وترفضه مقررات الأمم المتحدة.

(5) من خلال قدرة العلماء ورجال الدين على تفهم موضوع العمل مع المحتل من خلال الطرق السلمية وليس بطريق السلاح.

(6) كانت وسائل المعرفة محضورة على الشعوب العربية عموماً والشعب العراقي خصوصاً.

سلبيات احتلال العراق:

- إنّ الاحتلال بذاته أمر مرفوض من قبل قوى كبرى تمتلك قدرات تسليحية، سواء أكان المحتل ذا توجّه ثقافي أو توجّه عسكري[1].
- الدّمار الهائل الذي حل بالعراق من جرّاء الحرّية المنفلتة التي قدمتها القوات الأمريكية إلى الشعب العراقي[2].
- دخول الشعب العراقي في دوامة العنف التي لم تكن موجودة قبلاً[3].
- هدر طاقات العراق وقدراتها التسليحية وضعف العراق عسكرياً لكي يضعف أمام إسرائيل[4].
- فسح المجال لدول المنطقة في التدخل عسكرياً في العراق مثل

(1) تغيرت مفاهيم الاحتلال خلال حقبة ما بعد الحرب الباردة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي إلى مصطلح آخر وهو مصطلح (العولمة) الذي يرمي إلى توزيع طاقات وقدرات الشعوب حسب موقعها. فأفريقيا ستقدم بما هي عليه الطاقة الكهربائية لكل أوروبا، وتقدم أوروبا ما تحتاجه من الأدوية في محاربة الأمراض.

(2) وصل عدد الأرامل إلى ما يقارب 3 ملايين أرملة، وعدد أكثر من ذلك من الأيتام في تقارير غير موثقة السند. أنظر بعض التقارير على الموقع التالي:
http://www.ri.org/files/uploads/RI_IRQ_EWI_Introduction_3_pages_(7_Dec-11).pdf.
http://rainbowwarrior2005.wordpress.com/2010/03/01/2-5-million-iraqi-women-were-widowed-by-iraq-war/

(3) العنف في العراق له مقدماته ومبرّراته وهذا لو لم يظهر الآن فإنه سيظهر فيما بعد، باعتبار أن النظام السابق قد حرص أن يبني عقليات تميل إلى العنف والمواجهة والعصبية.

(4) العراق يمثل جبهة قوية ضدّ إسرائيل، ولكنّ من المستبعد أن تشّن حرباً مع إسرائيل في المنطقة. وهذا أمر افتراضي بحت.

إيران والسعودية وتركيا وبقية الدول الطامحة في الاستئثار بما يملكه العراق[1].

- الإرهاب هو من شجعته أمريكا في الدخول إلى العراق وتشجيع الاقتتال الطائفي[2].
- فسح المجال للمخابرات العالمية بالعمل داخل العراق وخصوصاً المخابرات الإسرائيلية[3].

الزمن جزء من معادلة الحرب: أمام النقاط السالفة الذكر يبقى السؤال الكبير الذي بدأنا به هذا الفصل وفيما إذا كان هنالك من مبرّر للولايات المتحدة الأمريكية لاحتلال العراق. . .؟ وهل أن ذلك الاحتلال يخدم المصلحة الأمريكية. .؟ وهل هو الدافع المباشر لكي تقدم دولة كبرى على احتلال دولة صغيرة مثل العراق. .؟

في العلن، ترى الولايات المتحدة وتشاركها بريطانيا العارفة بالواقع العراقي أكثر من أية دولة أخرى، بأن احتلال العراق ليس بالشيء الذي يسهل الجواب عليه بكلمة أو كلمتين، فهو أمر متعلق بالتأريخ ومتعلق بالجغرافيا أيضاً، ومتعلق بمستقبل المنطقة، فلئن كانت بريطانيا قد أساءت تقدير دور العراق في الماضي فإنها سوف لن تكرّر التجربة السابقة في بداية دخولها إلى العراق في عام 1919.

(1) ترى دول المنطقة المجاورة بأن العراق مهم لسياستها واستقرارها، ولها مصالح مشتركة يجب تحقيقها، وهذا أمر ربما تشترك فيه كلّ دول العالم.
(2) العنف الطائفي لعله أشرس نوع من المواجهات التي ألمّت بالشعوب.
(3) تعمل كافة المخابرات العالمية في أرض العراق، وفي كلّ بلد آخر يتمتع بحرية نسبية كما هي في لبنان وفي مصر.

فالعراق بالنسبة إلى الغرب لا يمثل ثقلاً اقتصادياً فقط، مع أن الجانب الاقتصادي النفطي أمر رئيسي في صنع القرار السياسي، خصوصاً بعد أن تبيّن بأن العراق يمتلك أكبر مخزون نفطي في المنطقة يتفوق بذلك على السعودية وإيران. ولكنّ القرار السياسي مع ارتباطه بالواقع الاقتصادي يبقى مستقلاً نوعاً ما في حيثياته.

وهنا لم تعلن أمريكا أمام الرأي العالم العالمي إلّا بالقول في أن العراق دولة لا تنصاع إلى مقررات المنظمة الدولية، وأنها بامتلاكها أسلحة الدمار الشامل أمامها خيار إظهار وتقديم خزينتها من تلك الأسلحة إلى الأمم المتحدة[1].

والأمم المتحدة التي كان يقود فريقها الشخصية الأمريكية المتمرسة (ديفيد كاي)[2] تلك التي كانت تعلم جيداً ما يجب أن تفعله في مثل

---

(1) وإلّا فإنها مسؤولة عن تبعات إخفاء قدراتها التدميرية، فليس من واجب الأمم المتحدة أن تفتش عن السلاح التدميري، بل إنه من مسؤولية العراق أن يقدم معلومات مفصّلة عن واقع التسليح الذي يمتلكه، وبما أن العراق رفض كلّ تلك المحاولات، كان أمام الأمم المتحدة إرسال مفتشين دوليين للبحث عن تلك الأسلحة. في الواقع إن صداماً كان يملك أسلحة تدميرية كبرى، بل أكبر ممّا تتصور أمريكا والأمم المتحدة، وكان يعدّها لحرب شاملة، حسب اعتقاد صدام بأنها ستنشب في القريب العاجل، وخصوصاً في حالة الهجوم على العراق من قبل دول المنطقة، وكانت عينه دوماً على إيران في اعتقاده بأن إيران ستتعاون مع أمريكا قريباً في احتلال العراق، فقد كان يعدّ العدّة إلى حرب مدمّرة تحرق المنطقة، وتحرق الشعب العراقي ذاته، لأنه كان على علم بأن الشعب الذي لا يُقدّر رئيسه، فعليه أن يقدم هذا الشعب كقربان كما تقدم القرابين للذبح أمام الآلهة المصطنعة. وهذا ما يجب أن يتمّ كما هي فكرة معظم الحكام الديكتاتوريين في العالم.

(2) بالرغم من تمتع (كاي) بقدرات علمية مميزة وسياسية فإنه في ذات الوقت كان يمتلك توجهات مخابراتية كبرى.

هذه الظروف، فليس من صالح أمريكا أن تُظهر ما هو في حوزة صدام، لأنّ ذلك ليس من ضمن الخطة المرسومة.

في نفس الوقت كانت أمريكا ترى أهمية أن يظهر هنالك قسم من تلك الأسلحة وليس كلها، التي لو وجدتها فرق التفتيش (جدلاً) لكان على أمريكا أن لا تفكر بمبادرة الحرب. فلذلك استعملت موضوع التفتيش كمسمار جحا، والغريب أنها بعد أن دخلت العراق عيّنت ذات الشخصية التي انتدبتها الأمم المتحدة من أجل استمرار التوصل إلى تلك الأسلحة[1].

وكذلك كانت بريطانيا مقتنعة بأهمية أسلوب الحرب من خلال شخصية رئيس الوزراء (توني بلير) الذي كان يشارك الرئيس بوش الابن

---

(1) يبدو أن (ديفيد كاي) بعد أن انتهت مهمته في عام 1992 تبعه أكثر من شخصية في تنفيذ تلك المهمة منهم (هانس بليكس)، ولكنّ الشيء الذي حدث هو أن (كاي) كان يحمل ذات التوجه في أهمية غزو العراق، ربما ليس بنفس الأسباب التي كانت إدارة بوش تراها، وإنما كان (كاي) يرى في النظام الصدامي بأنه نظام لا يتناسب مع الوضع العالمي لما وجده من مراوغة في نقل أماكن الأسلحة في داخل وخارج العراق. وقد كان متأكداً بأنه بعد دخول القوات الأمريكية سيذهب إلى نفس الأماكن التي كان قد غضّ الطرف عنها في البداية، ولكنّه تفاجأ بعدم وجودها، ولذلك فقد القي باللوم على (تينت) (رئيس CIA) الذي كان مرشحاً له أن يخلفه في منصب رئاسة المخابرات لأن الرئيس بوش لم يقتنع بعمل (تينت)، ولكنّ الأخير لم يمهله كثيراً وإنما دبّر له ما يمكن له أن يقع في ورطة الفشل، بعد أن يبدأ (كاي) في قبوله بمنصب إعادة فحص المواقع في العراق ولم يجد الأسلحة المتوقعة التي كان متأكداً من أنها هنالك. . . . فاعتقد بأن اللعبة جاءت من (تينت) ذاته باعتباره المنافس القادم له، ولذلك خرج على التلفزيون المستقل (PBS) في مقابلة مشهورة وانتقد (تينت) بشدّة، بعدها استقال من منصبه بعد أن قدّم تقريره الأخير إلى الكونغرس منتقداً بمرارة الفخ الذي أوقعوه فيه.

في توجهاته الخاصة بالعراق في وجوبية الدول الكبرى أمريكا وبريطانيا أن تتخلص من نظام صدام بالذات وليس فقط إزالة شخصية صدام، لأنّ شخصية صدام لو لم نتمكن من التخلص من النظام فإنها ستحكم العراقيين وهي داخل القبر، حتى وإن كان القبر في خارج العراق، فالمسألة ليست هي مسألة الشخصية بقدر ما هي مسألة النظام، فهذه العصابة التكريتية التي تمثل القوة العراقية في الحكم والتي تمتلك كلّ مسببات القوة هي من ينبغي التخلص منها. ولذلك فإن الأمريكيين كانوا حذرين جداً من أن يظهر صدام على الساحة العراقية في أعوام ما قبل أن يصاب بالسرطان في 1998 ويعلن على شكل مسرحية بأنه سوف يتنازل عن السلطة ويدعو إلى انتخابات صورية في العراق. وهذا ما سوف يغيّر من معادلة خطة التغيير الأمريكية.

فأمريكا كان في جعبتها منذ دخولها العراق عسكرياً تحقيق ثلاثة أهداف:

- إزالة حكم صدام وليس فقط صدام بشخصه وقيام نظام ديمقراطي.
- تحويل العراق إلى نموذج للشعوب العربية للثورة على حكامها.
- تأمين منابع الطاقة واستمرار التدفق النفطي، وهذا ما سوف يساعد على استقرار أسعار النفط العالمية.

أمّا الواقع الأمريكي في الساحة السياسية، وفي الكواليس المغلقة فإنّ صقور الحزب الجمهوري الأمريكي كانوا يعلنون بأن الولايات المتحدة ترى في نفسها منقصة في أن يستمرّ نظام حكم دموي ليس له

مثيل على مدى التأريخ مثل نظام صدام، فهي مسألة مبادئ أكثر منها مسألة سياسة، فلذلك فإنها جادة في التخلص من هكذا أنظمة، كما كانت ترى بأن الدول المجاورة للعراق وخصوصاً السعودية التي تنام على بحيرة كبرى من النفط ومن الثروات، هي المعنيّة بالدرجة الثانية من التغيير داخل العراق، فهي الدولة التي تعاونت مع إسرائيل بصورة مطلقة في منع أمريكا من الدّخول في الحرب والضغط على السياسة الأمريكية باستعمال العامل الاقتصادي مع جورج بوش الأب في منع انتخابه ثانية في الدورة الثانية. فالسعودية في العرف الأمريكي دولة لا تختلف عن العراق في طريقة إدارتها لدولة مع فروق تابعة إلى ذات الدولة.

لقد درست أمريكا كلّ الخيارات المتاحة لها في هذا المنحى بعد أن استعانت بخبراء عمالقة لمعالجة الجانب الإيديولوجي الذي انطلق منه بوش الابن في طريق التخلّص من صدام. مع أنه جانب ليس له من حساب في مسيرة الدول ومسيرة الصّراعات بين دول العالم في القرن الواحد والعشرين.

أشباه صدام ولعبة إزالة النظام

علقم السلطة: تعلم الولايات المتحدة علم اليقين بأن صداماً كان قد مات بمرض السرطان في عام 1999 أو ما شابه وأنه دفن في قبر سرّي تحت اسم آخر. . . . . وأن العارفين بالسرّ هم شخصيات النظام، بل البعض منهم وخصوصاً ولديه، وعبد حمود وطارق عزيز وطه الجزراوي.

كان موت صدام في تلك الفترة من السنة ليس مفاجئاً لأحد، وإنما كان يعدّ العدّة لهذا الأمر، مع أنه لم يكن على علم مطلق بأنه سيموت، فقد قرّر البعض من الأطباء تقرير موته بثلاث سنوات، بينما حدث الموت خلال أقلّ من سنة، وكان العارفون (بالسرّ الأعظم) قد اطّلعوا على وضعه الصحي لمدة تقارب أكثر من ثلاث سنوات، بعد أن تبين بأنه مصاب بسرطان الغدد اللمفاوية وذلك بحدود عام 1996، ولكنّه تحسّن قليلاً بعد أن تناول العقاقير الخاصة بالمرض إلى أن وصل الأمر به في نهاية سنة 1998 مغادرة العراق إلى فرنسا للمعالجة، وكان الشيخ زايد على علم بالموضوع، بعد أن طلب منه صدام أن يسهّل الأمر للعلاج في الإمارات تحت إشراف خبراء يؤتى بهم من فرنسا.

ولكنّ الشيخ زايد نصحه بأن لا يفكّر فقط بالعلاج بل بترك المنصب والإعلان عن مرضه، وأنّ الذي يخلفه هو الشعب العراقي

ذاته من خلال انتخابات صورية يصل بها إلى الحكم أحد أبنائه أو أحد القادة من المحيطين حوله.

وكان الشيخ زايد يعتقد بأنّ ذلك سوف يجنّب العراق حرباً مدّمرة. ولكنّ الاقتراح لم يكن إلا عبارة عن بالون أراد صدام به اختبار الشيخ زايد في صدق نيّته. وكانت المكالمة التلفونية ما بين الرجلين مراقبة، بل كانت عبارة عن اختبار إسرائيلي وأمريكي إذا ما كان صدام هو نفسه الذي يكلّم الشيخ زايد وأنه فعلاً هو ذات الشخصية.

وأمريكا من جانبها كانت، ومنذ أن استلم بوش الابن السلطة في عام 2000 كان يدور في خلده إزالة صدام، كما كان يدور في خلد الأب بوش تحطيم الاتّحاد السوفيتي والذي تمّ ذلك في عام 1991، ولكنّ الابن كان قد أخذ قراره مستنداً على أسس دينية (مدنيّة) وأسس أخلاقية (إنسانية) وأسس نابعة من الفلسفة الأمريكية، فلسفة القوة والوصاية التي يؤمن هو بها في حالات الضرورة.

فلم تكن المحادثة التلفونية مع الشيخ زايد مهمة كثيراً لشخصية بوش الابن مع أنّها كانت جداً مهمّة إلى أجهزة المخابرات التي كانت تعتقد بأنّ مقتل صدام هو أمر مهم لتجنب خيار الحرب الذي كانت الولايات المتحدة تلوّح به منذ أن ذهبت فرق التفتيش الأممية إلى العراق لجمع المعلومات عن البرنامج النووي والكيمياوي، وقد كان صدام في ذلك الوقت من الذكاء بحيث أنه تمكّن من أن يجد ألف طريق لتضليل الفرق التفتيشية بمليون طريقة لم تخطر على بال الأمريكيين(1). كان الرئيس

(1) في كتاب الرئيس بوش الابن (Decision Points) الذي صدر في عام 2012 كان رأي =

بوش قد اتّخذ قراره بأنّ صداما أو نظام صدام ليس من النوع الذي من الممكن التعامل معه سياسيا أو دبلوماسياً، بل إنّه يجب أن ينمحي من ذاكرة الناس تماماً. فهو خطر على العالم وعلى البيت الأبيض[1].

في نفس الوقت كانت المجموعة التي استورثت الحكم في العراق وهم المجموعة التي ذكرتها في بداية الكتاب، قد فكّرت بأنها يجب أن تلعب على أوتار الخدعة التي أسّسها شيخهم الراحل وهي تقديم الطّعم أو الضحية أمام العدو لكي يضرب ضربته التي في النهاية تظهر زيفها بتقديم شخصية أخرى مشابهة إلى صدام إلى أن يصل الأمر بهم في نهاية المطاف إلى الاستسلام لحرب مكشوفة ومتعبة.

= بوش بصدام كالتالي منقولة ومترجمة إلى العربية: صدام لم يحكم بوحشية فحسب، وإنما قام بتعذيب الأبرياء هو وأتباعه، كما قام باغتصاب المعارضين السياسيين أمام عوائلهم، في الوقت الذي قام بإحراق وإذابة المنشقين عنه بحوض التيزاب، كما قام هذا الديكتاتور بقتل عشرات الألوف من العراقيين الأبرياء في عام 2000 ودفنهم في مقابر جماعية. إنه لمن الضروري أن نتعرف على شخصيته من خلال القرار الذي أصدره صدام في قطع لسان من ينتقده، وفي وقت سابق من تلك السنة قطع رأس طبيبة ولادة بتهمة ممارسة البغاء، لقد كانت الجريمة الحقيقية لتلك المرأة التحدث جهاراً عن الفساد في وزارة الصحة العراقية. لم يسع صدام الحصول على أسلحة الدمار الشامل بل استخدمها ضدّ الإيرانيين..... انتهى

(1) بعد أحداث 11\9 تغيّرت رؤيتي للأحداث رأيت بعيني الخراب الذي يمكن أن يحدثه تسعة عشر متطرفاً مسلحاً بأمواس لفتح علب الكارتون، وتخيلت الدمار الذي يمكن أن يحدث لو أعطي ديكتاتور معاد أسلحة دمار شامل التي لديه للإرهابيين. كانت المجازفة مرتفعة الثمن للوثوق بكلمة الديكتاتور في مقابل حجم الأدلة. كان الدرس الذي تعلّمناه من 9\11 هو أنه لو انتظرنا حتى يصبح الخطر محدقا فإنّنا نكون انتظرنا أطول ممّا يجب... ووصلت إلى قرار: سوف نواجه الخطر الآتي من العراق بطريقة أو بأخرى. (المصدر السابق، حديث بوش في مذكراته).

وقد كان هؤلاء القادة يعتقدون بأن أمريكا أضعف من أن تدخل العراق وتحتله، أو أن تقوم بمجازفة إرسال قوات برّية للدخول إلى العراق، لأنّ ذلك سيشعل المنطقة وسيتحوّل العراق إلى (فيتنام) ثانية، فقد كان خيار الحرب البرّية المباشرة وإسقاط النظام العراقي في عام 2003 لدى أولئك القادة ضعيفاً أو ضئيلاً أو حتى لو تمّ فإنه سوف يكون محدوداً ضمن منطقة الجنوب أو ما شابه، وأن أمريكا سوف تراهن على الثورة الداخلية التي حتى لو اشتعلت فإنّ الوقت كفيل بإخمادها فيما بعد ذلك كما حدث قبل ذلك في عام 1991.

وهنا وفي ذلك الوقت كان هناك أربع شخصيات صدامية لها ذات الشكل وذات الملبس مذكورة أسماؤهم في كتاب (الرجل الذي اتّخذ عشرين شبيها)[1] وكانت القوات الأمريكية العسكرية تغير على أماكن تواجد تلك الشخصيات، ولكن بالتالي تخرج في اليوم الذي يليه شخصية أخرى تعلن بأنها استهدفت قبل يومين مع أن المخابرات الأمريكية كانت تعتقد جازمة بأنها قتلت صداما أو الشخص المتشبه به وذلك كمراهنة منها في أهمية استسلام الجيش العراقي الذي حاولت أمريكا تجنب الدخول معه في مواجهة حربية، لأنّ تلك المواجهة من شأنها أن تؤدي إلى إبادة كبرى في صفوف تلك القوات، وهذا أمر ليس له من تأثير على مجرى الحرب المقبلة أو على مستقبل العلاقة مع أمريكا.

فحالة الحرب النفسية مع العراق كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى

(1) الرجل الذي اتّخذ عشرين شبيهاً، شادي فقيه وجنان يموت. دار العلم بيروت 2003.

الجيش والمخابرات والقوات الخاصة والأمن، وكلّ ما يتعلّق بهذه القوى التي تعودت أو تمّ تدريبها على أن تموت لأتفه الأسباب صحيحاً كان ذلك السبب أو خاطئاً. مع أنّ القوات الأمريكية كانت على علم بأن الشعب العراقي لو قدر له أن يثور في خلال الحرب المتبادلة النفسية مع أشباه صدام فهنالك مذابح مروعة ستقع ما بين الطرفين: طرف الشعب وهم الفئة غير المتدربة، وفئة المخابرات، والجيش الشعبي، والجيش التي تمتلك أسلحة قادرة على إبادة المعارضين خلال مدة قياسية.

لم تكن قيادة الظلّ العراقية تراعي لهذا الأمر من محذور قد يقع، فعدد القتلى كلما كان مرتفعاً ازداد الضغط العالمي، وعلى أمريكا أن تتوقّف عن المضي في مخطّطها تجاه الدخول البرّي إلى العراق. ولهذا وزعت قيادة الظل الأسلحة على الشعب وعلى الجيش الشعبي وعلى كلّ من يرغب بالقتال إلى جنب النظام. أمّا المعارضون من أفراد الشعب فإنهم استفادوا من تجربة سنة 1991 في الانقضاض على المعارضة من قبل قوات النظام بمساعدة الولايات المتحدة، وهي نعمة أرادها الباري بتخطيط غيبي في حماية شعب بأكمله من مذابح مؤكّدة، ولذلك لم يبادر أيّ من أفراد الشعب للقتال أو التصدّي إلى قوات النظام، بل بقيت في الساحة القوات التي تؤيد النظام القائم فقط.

كانت أمريكا ترى بأنه من الحكمة أن تتمكن من قتل أحد الأشباه وتقدّمه إلى الشعب العراقي من خلال فكرة الشبيه، وليس من خلال أنه صدام ذاته. وهذا بالتّأكيد سيبعث في نفوس الجيش والمخابرات رعباً

كبيراً يقودهم أخيراً إلى إلقاء السلاح على أقلّ التقادير[1]. وهنا لاحقت القوات الأمريكية الأشباه بصورة دقيقة وكانت ضربة منطقة (الدورة) محكمة إلى درجة حيث كانت القوات الأمريكية قد أعدت مصوراً خاصا لالتقاط خروج نعش صدام (الشبيه) ميتاً من الملجأ، ولكنّ ذلك لم يتم.

فقد كانت عملية إدارة الصراع مع الأشباه تتم من خلال قسم متخصص في الجيش الأمريكي يعني بجانب الحرب النفسية، مع أنه لم يكن أمراً ذا قيمة كبرى بالدرجة التي كانت الدولتان إيران وإسرائيل تريانه أو تقدرانه.

وكما ذكرت كانت تلكما الدولتان تريان بأنه من الضّروري عدم تغيير النظام العراقي بما هو كائن، لأنّ التغيير سوف لا يخدم التوجّهات السياسية لكليهما، وكانا يريان بأنه من الأفضل أن يكون هنالك عراق ضعيف بدلاً من أن يكون هنالك نظام غير واضح المعالم، كما كان تقديرهم في ذلك الوقت.

كان الجانب العراقي المتمثّل بقيادة الظلّ التي تمسك بالسلطة يدار من خلال (جاسم العلي) الشخصية التي حلّت في داخلها روح صدام حيث من الصّعب على الجميع أن يتصوّر عكس ما يرى ويتحسّس، فقد

(1) لم يعد الشعب العراقي بعد انتفاضة عام 1991 الشعبانية أن يثق بما تقوله أمريكا أو الغرب، بعد أن أدار ظهره في ذلك العام وسمح لقوات صدام في الانقضاض على الثوار بالطائرات، فظهور مقتل شبيه لصدام على سبيل الفرض سوف ينعكس بالتالي سلبياً على أمريكا، لأن النظام له أكثر من شبيه يقوم بالتعويض عن القتيل والإدّعاء بأن ذلك هو مسرحية مفبركة من قبل أمريكا.

كان من القدرة المشابهة لصدام إلى الدرجة التي فرض شخصيته على ذات المجموعة، وأصبح هو صدام الفعلي من حيث قدرته ومن حيث قابلياته ومن حيث تأثيره على المجموعة التي كانت ترى في أن وجودها مرتبط بهذه الشخصية سواء أكان ذلك حقيقة أم زيفاً. فلم تكن هذه القضية هي الأولى في العالم أن يحكمها شبيه بعد موت رئيسها، فقد مات الرئيس الكوري (Kim Jong Il) في عام 2003 بعد أن بقي في الحكم منذ موت أبيه في عام 1994 حتى أصيب بالسكري في وقت مبكر (ولد عام 1941) فتم استبداله بشخصية أخرى شبيهة له وهي الشخصية التي تم إعدادها منذ تأريخ توليه الحكم في كوريا الشمالية إلى أن أعلن موته في عام 2011. وقد قدم تلك الدراسة البروفسور Shigemura الأستاذ في جامعة واسيدا في اليابان[1]. وفي رأيي بأن هذه الظاهرة ربما تكررت في الكثير من المواقع والدول فيما سبق ولكنها في العصر الحالي وبتقدم عصر التكنولوجيا والعلم صار من الصعب إخفاء تلك المحاولات.

فالعراق يتحرك بإشارة من القائد، وتقاتل القوات المسلحة بمرسوم منه، فمن الصّعب أن يتصور الإنسان بأن هذه الشخصية غير شخصية صدام، فقد اقتنع الكلّ في أن يكون جاسم العلي هو صدام بالتمام والكمال.

وكما ذكرت كانت هذه الشخصية متميزة بثقافتها وقدرتها على إدارة المواقف كما كانت لها القدرة على التكلّم في أكثر من لغة ربما ثلاث

(1) KUCHIKOMI. N Korea's Kim died in 2033; replaced by lookalike. Japan today, August 23, 2008.

كما يُذكر عنه. . . . . سايكولوجياً صار هو الرجل الفعلي الذي لم يتجرّأ من له القدرة أن يصفه بغير قدرات صدام في حكم العراق وإدارة دفّة البلاد.

تمكّنت الولايات المتحدة من خلال طريق بقي مجهولاً وحتّى الآن، في أن تبني نوعاً من العلاقة مع أحد أقاربه، على أساس أنه صدام، ولكنّ كلي الطرفين كانا يعلمان بأنه ليس هو، وكان الرأي الذي تبنّاه الطرفان هو أن تشنّ أمريكا الحرب على العراق مع ضمان استسلام الجيش العراقي (لأن الحرب مؤكّدة لا تراجع عنها) باعتبار أن صدام أي الشبيه جاسم كان القائد العام للقوات المسلحة مع ضمانات كثيرة منها هو نجاته شخصياً ثم تجنّب ملاحقة الكثير من الأسماء التي كانت تمثّل أعمدة النظام الصدامي بالإضافة إلى أمور أخرى من الصّعوبة معرفتها[1].

كان - كما ذكرت - قرار الحرب نافذاً بعد أن قرّر الرئيس بوش بأن الحرب أمر وارد حتى لو جاء العراق راكعاً على قدميه، فلم يعد للسّهم الذي انطلق من الكنانة ملكاً لها، فالرئيس بوش وجد في واقع العراق وعلاقة صدام مع شعبه ومع جيرانه هدية له من السماء كي يطبّق الفلسفة أو الرسالة الأمريكية في نشر الديمقراطية إلى العالم العربي من خلال شنّ هذه الحرب.

---

(1) كان كلّ هذا الحديث يجري في أواسط سنة 2002، وهنالك في هذا المجال أمور نقلت بصورة غير رسمية لا يمكن التكهن في مدى حقيقتها من عدمها، بل كانت عبارة عن أقاويل متناثرة من الصعب جداً أن يتمكن أي من الأطراف معرفة حقائقها. المهم لا أحد يعلم فيما لو كان بوش الرئيس على علم بالأمر أم لا، وليس هنالك من له المعرفة بتفاصيل الواقع وكيفية إدارته من الناحية السياسية والمخابراتية.

فالعرب كما كان بوش يتحدث في جلسات خاصة مع البعض في قوله بأنّ معظمهم لازالوا يفكّرون بالعقلية البدوية وبالعقلية التي تستبطن الغلبة على الآخر سواء أكان ذلك الآخر صديقاً أم منافساً، فاللّحمة التي تربط الإنسان البدوي مع الآخر مبنية على أساس مصلحي قاسي كقسوة الصحراء، في الوقت الذي من الصعب فيه كسب ثقته إلى جنبك[1] إنّهم أناس قساة القلوب، حادّو الطبع.

فالحزب الجمهوري الأمريكي حزب القوة والمبادئ الأمريكية التي بنيت على مأساة الأوروبيين في فترة العصور الوسطى. فالحرية هي المبدأ الكبير الذي تقام عليه رسالة أمريكا، ولذلك فإنّه - أي بوش - يجد نفسه مسؤولاً عن إيصال ذلك المبدأ إلى الآخرين. فواقع العراق وطريقة تعامل القيادة (الظل) مع الأسرة الدولية قد هيّأت الأرضية المناسبة له في اتّخاذ قرار الحرب بأي صورة من الصّور.

وكانت نتيجة الحرب معروفة سلفاً ، حكومة ظل كارتونية، شعب منهك من ديكتاتورية عمياء، جيش مستسلم فقد كلّ مقومات القوة، فإدارتها هي من أبسط ما يمكن تصورها أو إنهاؤها بالطريقة التي تعجب أمريكا، وهذا بالضبط ما شجّع بوش وبلير في الإسراع بتنفيذ قرار الحرب حتى لو لم يحصل بوش على موافقة مجلس الكونغرس أو الأمم المتحدة، فهو ذاهب إلى نزهة تحمل في طياتها مفاهيم استبطنتها فلسفته في الحكم، وهما التخلص من أعتى نظام عرفته الأرض العربية، ومن ثم نشر الديمقراطية إلى بقية أقطار العالم العربي

(1) كان الحديث يتناول تجربته مع القادة العرب خصوصاً الخليجيين منهم.

الإسلامي، وبالتأكيد كان وصول الدبابات الأمريكية إلى بغداد أمراً مقارباً إلى سرعة سيرها في قطع المسافة تلك.

بدأت الحرب في 20 من شهر مارس عام 2003 وكان أول عمل قامت به القوات المتحالفة هو ضرب مكان صدام (الشبيه)، وقد روى شهود عيان (غير مؤكد توثيقهم) بأنهم شاهدوا قوات أمريكية محمولة تساندهم قوة كبرى تقوم بإجلاء صدام من المكان الذي كان فيه[1]. . . انتهت الحرب بسرعة قياسية بعد أن استدرجت القوات الأمريكية فدائيي صدام إلى المواجهة في نواحي البصرة أو في مناطق وسط العراق وذلك للتخلص منهم خوفاً من أن يكونوا نواة المقاومة فيما بعد الاحتلال.

والشيء المستغرب هو أن قرار الحرب تمّ علناً خلال مدة قياسية، حيث أعلن بوش في نهاية الشهر الأول من سنة 2003 بأنه مستعدّ لشنّ حرب على العراق حتى بدون تفويض أممي، وقال (بليكس) في منتصف شهر فبراير: بأن هنالك تقدماً طفيفاً في موضوع أسلحة الدمار الشامل. وفي نفس الشهر ألقى وزير الخارجية الفرنسي (دومينيك دو فيلبان) خطاباً شهيراً في مجلس الأمن وجّه فيه انتقادات لاذعة إلى أمريكا وبريطانيا في رغبتهما في شن الحرب. وفي 24 فبراير اتخذ قرار أمريكي

(1) بالتأكيد هذه المشاهدات لا تعطي أي دليل على صحة الرواية باعتبار أن الظروف الفيزيائية لا تمكّن الإنسان من أن يشاهد مثل هذه الأعمال. وهنالك رأي آخر يقول بأنّ اعتقال صدام كان في يوم احتلال مطار بغداد، بالتّأكيد كان (صدام) المعتقل هو جاسم العلي وليس صدام، ولو صحّت الرواية فإن الأمر لا بدّ وأن كان قد تمّ ترتيبه مسبقاً.

أسباني، وبريطاني في الأمم المتحدة يدعو إلى استعمال القوة ضدّ العراق. وفي 17 من شهر مارس أنذر بوش صدام لمدة 48 ساعة لمغادرة العراق. في 19 من الشهر ذاته أعلن بوش الحرب على العراق.

ولننظر في تسلسل الأحداث الغريبة في مسلسل الحرب التي لم تستغرق أكثر من شهر ربما على وجه العموم، مع أن مجلس الأمن وأوروبا وروسيا تقودهم فرنسا[1] طالبوا بأن يتمّ إعطاء الوقت الكافي للدبلوماسية، ولكنّ ذلك لم يؤخذ به.. إذن فما هو الذي حدث وما هو بالضبط السرّ في هذه السرعة الفائقة في استعجال الحرب على العراق...؟

قدّمت محطة تلفزيونية إيرانية اسمها (سحر) برنامجاً تلفزيونياً في سبتمبر من عام 2002 مفاجئاً في مقابلة مع طبيب عراقي يعمل في إيران، كان البرنامج يدور حول (أشباه صدام) فيما يتعلّق بما يسمّى (علم القيافة) حيث قدّم فيها الطبيب العراقي (د. مسلم الأسدي)[2]

(1) الموقف الأوروبي كان موقفاً غريباً ما عدا بريطانيا في طبيعة تعاطيها مع الملف العراقي، ويبدو بأن ملفات الفساد المالي التي تربط قادة الكثير من السياسيين مع النظام العراقي كانت العقبة الكبرى في ذلك خوفاً من ظهور الفضائح، وخصوصاً الموقف الفرنسي والروسي اللذان كانا الجهة التي لعبت دوراً محورياً في ترتيب تلك الصفقات، هذا بالإضافة إلى الموقف القديم في العودة إلى أحلام الماضي في أن الشرق الأوسط أمر يخصّ أوروبا أكثر منه أمريكا. وقد نجد الشيء ذاته وبصورة مختلفة نوعا ما في التصرف الفرنسي في أحداث ليبيا وسوريا ومصر في فترة انطلاقة أحداث الربيع العربي.

(2) الأسدي طبيب عراقي درس علم (القيافة Physiognomy) كذلك ما يسمى علم (السيمياء) ولغة الجسد لكشف أمراض المراجعين. وقد تحول اهتمامه إلى دراسة =

وأوضح بأن صدام لم يكن هو الذي يظهر في وسائل الإعلام[1]، كما نشرت الصحيفة (البوابة) القطرية[2] نقلاً عن تلك المقابلة في عددها الصادر في شباط 23 2001، ثم كررت النشر تحت عناوين مختلفة في 25 سبتمبر 2002 بقولها إلى أن صدام الذي يخرج في المقابلات ليس هو صدام الحقيقي بعد أن أشارت إلى تقارير د. بوهمان التي ذكر فيها بأن الفروق المورفولوجية بين شكل صدام الأصلي وبين صفات الشخصية البديلة له التي تخرج في التلفزيون وفي المقابلات وفي اللقاءات. فلم تعد الصفات التي كانت تستعمل في تمييز الأشخاص مقتصرة على المعايير القديمة مثل بصمة الأصبع أو لون الشعر أو ما إلى ذلك، وإنما تطور العلم إلى الدرجة التي يمكن تمييز الشخص وهو يسير في حشد من آلاف الأشخاص من خلال تقنيات علم (Biometrics)[3]، وبتطور علم القيافة إلى الدرجة الواسعة صار هنالك أكثر من سؤال عن

= شخصيات العالم ورؤساء الحكومات، وفي سنة 2000 م تمكن د. الأسدي من اكتشاف اختلافات في شكل أذن الشخصية البديلة فنشرالخبر في الصحف العربية في عام 2001 م والذي أثار ضجة في العراق وكتبت جديدة الثورة العراقية بتأريخ 31 مايو 2001 المملوكة من قبل الحكومة على الصفحات الأولى رداً على أقوال ذلك الاكتشاف ووصفته بألفاظ بذيئة. كما تابعت قناة (البوابة القطرية) بتأريخ 23 شباط 2001 الأمر من خلال مقال في موقعها الالكتروني (.www.albawaba.com) وبعد أول مقابلة في قناة سحر في سبتمبر 2002 كان المفترض أن تتبعه حلقة أخرى ولكن اللقاء ألغي بأمر من وزارة الخارجية الإيرانية على حد زعم مدير القناة السيد (تارين) بقوله أن ذلك يضيف ما يعكر العلاقات الإيرانية العراقية.

(1) http://www.youtube.com/watch?v = 8IJmib7IOEI.

(2) http://www.albawaba.com/ar/ ساخرون/ اشباه - صدام - حسين - ينوبون - عنه - في - المناسبات - العامة

(3) http://en.wikipedia.org/wiki/Biometrics.

قيمة نوعية المعلومة التي من الممكن أن تستعمل كأدلة في القضاء، وهذا يعني الاعتماد فقط على الأدلة الموثوق بها في جانبي العلم والقضاء والتي أشهرها هو مقياس (Frye Standard)[1].

بعدها قدم التلفزيون الألماني (ZDF) مقابلة أخرى مع د. بوهمان[2]، وقد عضّد الدكتور الأسدي كلامه ببعض من الأدلة وأهمّها ستة[3] هي:

1. شكل الأذن.
2. الشامة على الخدّ الأيسر.
3. شكل الفكّ والأسنان
4. شكل الكف.
5. العمر.
6. خصائص أخرى.

وهنا لا بأس في أن نشير لكل من تلك النقاط بشيء التوضيح.

شكل رقم (1) أذن الإنسان مع أسماء التفاصيل الخارجية

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Frye_standard.
(2) http://www.youtube.com/watch?v=9CoA8ELuUmI.
(3) لأول مرة في التأريخ السياسي العراقي يتم إعلان موت صدام بهذا النوع من الصراحة =

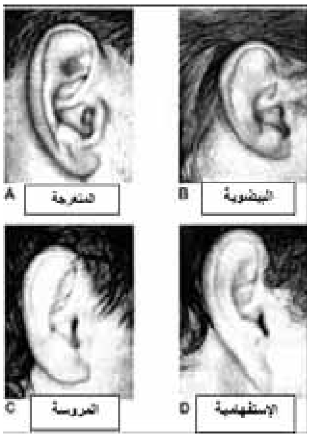

شكل رقم (2): الصفات المروفولوجية التي تميز الأنواع الأربعة للأذن

شكل رقم (3): أذن صدام بيضوية عام 1974

= ومن قبل دولة كبرى هي إيران مع ان الإذاعة المذكورة لم تكن حكومية بالمعنى المعروف، ولكنه أمر حث الولايات المتحدة على تدبّر الأمر بطريقة مستعجلة لئلا يتم التغيير من قبل غير الطرق التي ترغب بها أمريكا وهي الحرب والدخول إلى المنطقة عسكرياً، فقد بات واضحا بأن استمرار الحديث بقضية موت صدام قد يعلن حقيقة وعندها تتصرف الدول المعنية بشكل يبتعد عن فكرة الخط الأمريكي. وهذا الأمر قد ينعكس في ذات الوقت على إيران أيضا التي ما فتأت تتستر على فكرة الموت انتظارا للفرصة المناسبة لتغيير العراق بطريقة مخالفة للتوجه الامريكي اي غير آلية الحرب. كانت المقابلة تلك هي ربما الشرارة التي دعت الولايات المتحدة في الاستعجال بقرارها الهجوم على العراق. الاسدي من جانبه كان قد منع في الاستمرار في الحديث عن هذا الموضوع من قبل مسؤولي القناة.

شكل رقم (4): أذن صدام بيضوية عام 1989

شكل رقم (5): أذن الشبيه من الجانب 2003

شكل رقم (6): أذن الشبيه من الجانب 2003

1. الأذن: فالأذن موقعها في التشخيص لا تختلف عن شكل بصمة الإبهام وتستعمل في الطب العدلي[1] بشكل مفصل. ولا يمكن تغيير شكل التجاويف أو تدويرة الأذن في العمليات الجراحية أو التجميلية (انظر شكل رقم 1، 2)، وهكذا تم ألقبض على القائد الصربي السّفاح (كاراديتش) ومثوله أمام محكمة الجنايات الدولية من خلال أذنه مع أنه كان يظهر منها جزء بسيط بعد أن غطاها بشعره[2].

فأذن صدام هي أذن من النوع البيضوي (شكل 3، 4) وهي تظهر في كلّ مراحل حياته منذ فترة الشباب إلى فترات السبعينيات ثم الثمانينيات، وحتى اليوم الذي يُعتقد فيه بأن صدام قد توفي بحدود عام 1999. بينما آذان الأشباه الآخرين وخصوصاً جاسم العلي (Double or Political Decoy) تظهر بالشكل الطولي (المروّسة) مع اختلاف واضح في خريطة التجاويف (شكل 5، 6). فعلماء الأدلة الشرعية وضعوا لكل جزء من الأذن من دالة شرعية على هوية الشخص. فكلّ تقعّر في شكل الأذن الخارجية ثابتة عند الشخص الواحد. كما أنّ لكلّ تجويف شكلاً محدداً لا يمكن تغيّره مع تقدّم عمر الإنسان.

وهذا لا ينطبق فقط على الأذن الخارجية، بل أن مسار السمع قبل

(1) Rerkchai Fooprateepsiri and Werasak Kurutach. Ear Based Personal Identification Approach Forensic Science Tasks. Chiang Mai J. Sci. 2011; 38(2): 166-175. Find it in: www.science.cmu.ac.th/journal-science.josci.html.

(2) Mark S. Nixon, Imed Bouchrika, Banafshe Arbab-Zavar and John N,Carter, ON USE OF BIOMETRICS IN FORENSICS: GAIT AND EAR. School of Electronics and Computer Sciencẽ University of Southampton Southampton, SO17 1BJ, UK. web: http://www.isis.ecs.soton.ac.uk.

أن يصل إلى طبلة الأذن هو عبارة عن خارطة مختلفة بين شخص وآخر ولكنّه لا يمكن تمييزه بالنظر، وإنما يميز فقط في حالة صناعة سماعة داخلية لمن يصاب بضعف أو فقدان في السمع فعندئذ يجب على المتخصّص أن يرسم خارطة التجويف حيث يتمكّن من خلاله أن يصنع هيكلاً يمكن أن يدخل في التجويف.

فالكتب التي نشرت في نهاية السبعينيات عن صدام لازالت موجودة في الأسواق وخصوصاً كتاب أمير اسكندر[1] وكذلك في الجرائد العراقية التي كانت تحوي يومياً صوره مع الرئيس الراحل البكر. هذه الصور مختلفة بما لا يقبل الشكّ عن صور الشخصيات التي ظهرت في المناسبات التي لا تمثل شخصية صدام وهي:

* بعض جولات الرئيس في تفقد القطاعات العسكرية[2].
* في لقاءاته مع بعض وسائل الإعلام[3].
* الشخصية التي ظهرت في المحكمة.
* الشخصية التي ظهرت على أنّها جثة الميت بعد الإعدام.

2 - الشامة (Facial Moles): على الخدّ الأيسر أو الشامتين الّلتين لم تظهرا قبلاً في كلّ مراحل حياة صدام، بل ظهرتا في البديل

---

(1) صدام حسين «مناضل ومفكر وإنسان»، امير اسكندر. دار هاشيت 1980.
(2) http://www.american-buddha.com/911. iraqseesdouble.htm
(3) بعد عام 1999 لم يظهر صدام (الشبيه) في أية مقابلة تلفزيونية مباشرة، كذلك بم يلتق بشخصيات كانت قد ألتقت به من قبل إلاّ جورج هادر الذي اكتشفه مباشرة، وكانت المقابلة مع الأخير قد تمت بطريق الخطأ.

الذي حضر إلى المحكمة، مع أنّ طبيب صدام د.علاء بشير قد أشار في مذكراته إلى أن صدام كان قد سأله فيما إذا كان يستطيع أن يزيل الشّامة على الخدّ الأيسر يوماً ما، فأجابه بأنّها إذا كانت في طور الكبر أو التغيير في اللّون فيجب إزالتها. ثم يشير أيضاً إلى أن صدام لم يكترث لها وتركها. هذه رواية تقبل الوجهين إمّا أن تكون أصل القضية غير واقعية، وأن حديث طلب صدام من د. علاء بشير لم يجر أصلاً وأن نشر الحديث هو من قبل من يريد الاستفادة من نفي حدث الشبيه، وأن د. بشير ليست بالشخصية التي تتصدّى للردّ على مثل هذه الأمور.أو أن الرواية التي نقلت هي حديث مع الشبيه وليس مع صدام.

لم يلاحظ في ظهور صدام وفي صوره بأنّ هنالك شامة في الجهة اليسرى (شكل رقم 7)، بل شوهدت في الأشباه فقط، وهو الشبيه المهم الذي حكم العراق منذ موت صدام وإلى حين سقوط بغداد حوالي أربع سنوات[1].

(1) حديث للدكتور علاء بشير إلى صحيفة (أنباء العراق) في 18\5\2013، هذا مقتطف منها: هل أجريت لصدام عملية تجميل؟ - لا، ولكن كانت عنده شامة على الخدّ الأيسر، وهذه الشامة بدأت تكبر، ولونها بدأ يتغير، وفي هذه الحالة يجب إزالتها. وسألني عنها مرة، وقلت له يجب إزالتها، وأخبرته أن الشامة إذا تغير لونها وبدأت تكبر يجب إزالتها. والشامة التي في وجهه صار لونها غامقاً وكانت تكبر لهذا يجب إزالتها، حدث ذلك قبل شهرين من سقوط النظام. فقال بالضبط (دعها الآن إذا أزلناها سيقولون أن صدام مصاب بالسرطان، ويطلقون الإشاعات، وعندما تنتهي الحرب إن شاء الله أزيلها). والآن أنا استغرب غياب هذه الشامة التي كانت كبيرة وواضحة. ففي كلّ الصور التي شاهدتها لصدام بعد القبض عليه لا توجد على خدّه الأيسر أية شامة. أنظر إلى طبيعة استرسال الحديث في المقابلة والذي يبدو =

شكل رقم (7): وضع الشامة في الشبيه، مع شكل منبت الشعر وتدويرة الجمجمة

فموضوع الشامة كما ذكرنا لم يكن في وقت من الأوقات محل اهتمام، باعتبار أن النظام قوي، وأن المعارضة كانت ترى (تصوراً) بأن النظام سينهار تلقائياً بمجرّد أن يعرف الشعب العراقي ذلك، وهذا بالتّأكيد خطأ فادح وقعت فيه المعارضة في تقييم العراقيين بأنهم من الشعوب التي تأتي في المقدمة فيما يتعلّق بثوراتها على الحاكم، وأن صدام شخصية منبوذة من قبل العراقيين، وأنّ موته أو الشكوك في موته سيؤدّي إلى انهيار الدولة وتمكّن المعارضة (الإسلامية) كما يرون في القفز إلى السلطة.

وبما أنّهم في قرارة أنفسهم يعتقدون بأن الشعب العراقي ليس من الشعوب التي تثور على حكامها، أو أنّها مستعدة للتضحية ما لم يكن هنالك أسباب ليست متعلقة بأسباب الثورات، فإذن موضوع التصديق بموت صدام هو أمر لا يريدون له أن يدخل في أدمغتهم، لأنه يتضمن

= بشكل مقلوب تماماً، فصدام ليس له شامة في الأصل، بينما في المقابلة يقول العكس.
(http://www.anbaaiq.net/default.aspx)

تبعات بعيدة الأثر في مسيرة العمل والمسؤولية وفي مسيرة التخطيط للمستقبل وتبنيان قصور الأفكار التي كانت المعارضة قد بنتها في عقول منتميها. فمن الأفضل عدم التفكير في مثل هذه الخيار وترك الموضوع للزّمن في حل المسألة.

3 - العمر: إنّ صدام من مواليد 1937 أو كما يقال 1939 لأنه ولسبب اجتماعي زاد عمره سنتين لأنّ زوجته ساجدة ابنة خاله التي كان قد خطبها كانت من مواليد 1937، وباعتبار أن العرف الاجتماعي يقول بوجوب أن يكون عمر الرجل أكثر من عمر المرأة. ففي عام 2006 كان المفترض أن يكون عمره في بداية السبعينيات، وهو في نفس الوقت رجل مدخّن منذ زمن بعيد، ولم يمارس الرياضة في حياته، مع ثقل أعباء الحكم وغيره فإنه من المنطقي أن يكون عمره في أول ظهوره في المحكمة مقارب لذلك.

كما أنه كان أكبر الموجودين (إلاّ طارق عزيز) في قاعة المحكمة[1]. أمّا الشخصية التي حوكمت فكانت لا تحتمل أكثر من 62 عاماً على أكبر تقدير، مع أن شعره كان مصبوغاً بنوع من الصبغ غير الموفق أو بطريقة متخصّصة.

هذه الشخصية التي ظهرت في المحكمة ليست هي شخصية (ميخائيل رمضان) (أوّل بديل) (تولد عام 1944) ولا شخصية فواز العماري[2] إنها شخصية أخرى ولكنها محسّنة بصورة تمّ إجراء الكثير

(1) مثل طارق عزيز (1936)، وطه رمضان (1938) علي حسن المجيد (1941)، عواد البندر (1945) عزت الدوري (لم يكن موجوداً) (1942).
(2) أصغر من جاسم العلي ربما وحسب تقدير الأطباء مواليد (1951).

من التفنن في أن تظهر بمظهر الشبيه لصدام[1]، مع أن الاحتمال الأقوى والأقرب إلى مجريات التحقيق بأنه كان جاسم العلي[2].

شكل رقم (8): تبدو الفروق صعبة بين الأصل والشبيه

أما صورة الاعتقال من الحفرة فإنها عبارة عن صور حقيقية بالتأكيد ولكنها كانت مفبركة بشكل قريبة من خلط الثقافتين العراقية الإسلامية بالغربية الإعترافية التي تنبئ بأن الإنسان عندما يصل إلى حافة الهزيمة فإنه يلجأ إلى قوّة السماء من خلال التشبّه بالقدّيسين وبمن هم أبعد عن التهم، وبما هي قضية نفسية تصيب الكثير من المجرمين الذين استيقظت ضمائرهم في لحظة من اللحظات وتصوروا أنفسهم وهم في طريقهم إلى كرسي الغفران فعليهم أن يغسلوا حجم جرائمهم، وأكثر ما هو تقارب مع النفس اللوامة فعليهم أن يتشبهوا بالقدّيسين في مظهرهم

(1) ربما خالد التكريتي أو ربما رافع العجيلي أو وليد الدوري، أو ربما ليست هذه الأسماء وإنما شخصية أخرى جديدة، إذ تبقى هذه المعلومات عارية عن الدقة ما لم تكن قد تمّ توثيقها من قبل جهة ثالثة محايدة.

(2) يقدر عمر جاسم العلي من قبل المتخصصين الأطباء مواليد (1946).

من قبيل إطلاق اللحية، والتقشّف في العيش، وهدوء العينين. كما حدث مع رادوفان كاراديتش[1] بعد 13 عاماً على مذابح (سرفينستا)، وقد تمّ إلقاء القبض عليه بعدما تنكر في زيّ راهب كان يقطن إحدى القرى متنسّكاً ومبتهلاً إلى السماء في غفران ذنوبه، (أنظر شكل 9).

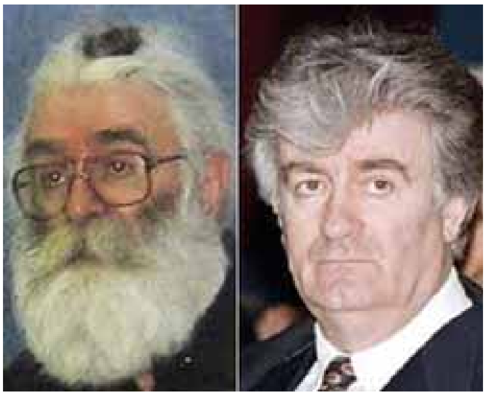

شكل رقم (9): كراديتش بعد التنكر وقد تمّ التقاطه من خلال شكل أذنه كومبيوتورياً

وكما هي قصة مقتل هتلر الزعيم النازي[2] الذي أحيطت قصته

(1) (رادوفان كاراديتش) الزعيم السياسي لصرب البوسنة (طبيب نفسي Psychatrist) قاد المليشيا الصربية المسؤولية عن تنظيم عمليات قتل المدنيين وتشريدهم والتي أدت إلى مجزرة البوسنة والهرسك عام 1995 وراح ضحيتها حوالي 8000 آلاف شخص، ونزح عشرات الآلاف من المدنيين المسلمين من المنطقة. تعتبر هذه المجزرة من أفظع المجازر الجماعية التي شهدتها القارة الأوروبية منذ الحرب العالمية الثانية. تمّ قتل واغتصاب الكثير من المسلمات حتى الموت تحت مرآى من القوات الهولندية التي كانت مُكلفة بحماية المدنيين بالمدينة، وقد اتهم كثير من الناجين من المذبحة القوات الهولندية بتسليم من فرّ من المدنيين لها إلى الصرب ليتمّ قتلهم لاحقاً. أنظر ترجمته على الموقع التالي:
http://en.wikipedia.org/wiki/Radovan_Karad%C5%BEi%C4%87

(2) تقول الروايات التي وصلت إلينا في تأريخ الحرب العالمية الثانية بأن هتلر عندما شعر =

بهالة هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، ولكنها تعطي ذات المعنى، وهو معنى الشعور بالذنب عند اقتراب لحظات الموت.

وقد اجتهد المنفذّون في موضوع إلقاء القبض على صدام ذات الشيء، ولا أدري ما مدى صحة كلّ تلك التصورات، هل كانت فعليّة أم أنه كان مخططاً لها.

وكما نعلم عن شخصية صدام فإنه كان رجلاً عنيداً بالدرجة التي تقترب من عقلية البدوي المتعجرف الذي تملأ كيانه حب ذاته ونرجسيته إلى درجة الموت المتناهي، وهذه الشخصية ليس من السهل لها أن تتشبّه بالقدّيسين من الدينيين في إطلاق لحيته أو شعر رأسه، مع أنه في طريقة التشبيه في إطلاق شعر لحيته ورأسه قد مال إلى الطريقة السلفية من مدارس الإسلام، وليس إلى الجانب الذي يقول عنه بأنه ينتسب إليه عائلياً وهم آل بيت الرسول.

بالتّأكيد كان صدام من النوع الذي له القدرة على التّخفي هنا وهناك من غير أن يطلق لحيته أو شعر رأسه، لأنّ هذا المظهر (المتنسّك) ليس مألوفاً في الشارع العراقي، ولا في أعراف البدو، ولا في القرى أو غيرها، وإنما الذي يطلق شعر رأسه أو لحيته هم فقط السلفيّون والدراويش في بعض مناطق العراق المحدودة جداً، والتي

= بوصول القوات السوفيتية على مشارف (برلين) استدعى قس وطلب منه أن يعقد له شرعاً على عشيقته (إيفا براون) في الملجأ الذي كان يأويه، فأقام آنذاك حفلاً دينياً بمباركة الزواج على الطريقة الكاثوليكية، فشربوا الشمبانيا، بعدها طلب من زوجته أن تمسك مسدساً ثم تطلق رصاصة على رأسه وهو يعمل بالمثل، وفي لحظة واحدة أطلق كلاهما النار على الآخر فماتا سوية.

تستعمل فقط في حفلات (الدرباشة) و(الذكر) من الطرق التي تنتشر في العراق الشمالية مثل الطريقة (الكسنسانية) أو (النقشبندية). هذا مع إدراك أنّ مناطق تكريت لم تكن يوماً منطقة تعشش فيها هذه الطرق الصوفية، وإنما هي منطقة بدوية أقرب إلى الصحراء وقسوتها منها إلى الحفلات الصوفية التي تنمو في المدن الكبيرة وفي المجتمعات المتدينة كمجتمع الأكراد.

فمن يريد أن يتخفّى في العراق فقد يمكن له أن يستعمل أكثر من طريقة لذلك، كما أنه ليس من المهم أن ينزل الشخص إلى قبو محفور في الأرض بطريقة هندسية بارعة، في الوقت الذي ليس هنالك ما يمنع صدام من أن يهيّئ مثل هذا النوع من الأقبية، ولكنّه عموماً أمر غير مألوف في كلّ الأعراف العراقية بشتّى ثقافاتها[1].

كما أن هنالك أكثر من سؤال عن طبيعة نموّ اللحية على وجه صدام وشعر رأسه، فليس كلّ شخص لجسمه القابلية أن يمتلك قدرة بيولوجية

---

(1) في كتاب الدليمي محامي صدام يذكر رواية عن لسان صدام ذاته بأنه حفر القبو الذي له منفذان أحدهما على النهر والآخر على البر، وذلك لإيهام القوات الأمريكية عندما تأتي للقبض عليه. وهنا يبدو من الغرابة والسذاجة أن يقوم بنقل هذا الرأي عن قائد عام لقوات مسلحة عراقية مارس أكثر من ثلاث حروب في أنه لا يعلم بأن القوات الأمريكية قوات ذات إستراتيجية عسكرية تمارس عملية المسح التكنولوجي والعسكري لكل المنطقة عندما تتوجه لتنفيذ عملية عسكرية بسيطة، فكيف بها وهي تتوجه إلى اعتقال صدام. فهذه الرواية عن الدليمي تقبل أربعة وجوه: إمّا أنه اجتهاد من عندياته، أو أن صدام (السجين) رجل أمي بالعلم العسكري، أو أن (السجين) ليس صداماً، أو أن الحادثة مفبركة لإضافة شجاعة وهمية على شخصية السجين. كتاب صدام حسين من الزنزانة الأمريكية: هذا ما حدث!! تأليف المحامي :خليل الدليمي. شركة المنبر، الخرطوم، 2009.

على إطلاق لحيته أو شعر رأسه بهذه الطريقة، (فعبد حمود) مثلاً رجل ذو شعر كث بطبيعة خلقه وعمره فليس من الصعب أن يطلق العنان لشعر لحيته في النمو كما ظهر في المحكمة، بينما صدام في عمره الذي تجاوز السبعين فإن احتمال قدرة نمو شعره بهذه الغزارة أمر مشكوك فيه بل مستحيل من الناحية البيولوجية[1] ما لم يتم زرع غرزات شعر جديدة قوية النمو.

أما (كراديتش) الصربي فهو غزير الشعر (أنظر الصورة) بشكل واضح بطبيعة تركيبة جسمه، في الوقت الذي يصغر الأخير صداماً بعشر سنوات. فالوقت الذي يحتاجه لنمو الشعر في ذقن ورأس صدام قد يكون أكثر من ستة سنوات على أقل التقادير في الوقت الذي تذكر التقارير الرسمية وليست الإستخبارتية الأمريكية والبريطانية بأن صدام هو الذي ألقى الخطاب عند بداية الضربة في 21 مارس من عام 2003 وهو بهيئته العادية مع أن نظم الاستخبارات لم تشكّ في أنه ليس صداماً، كما أن التقارير تقول بأنّه ظهر في الأعظمية يوم سقوط بغداد في التاسع من أبريل، فكيف تمّت عملية تنمية شعر لحيته ورأسه بتلك السرعة القياسية إلى حين إلقاء القبض عليه في 13 ديسمبر 2003، أي بعد ثمانية أو تسعة أشهر. . . . أما (كاراديتش) فإن الفترة الزمنية بين آخر مرة شوهد فيها ولحين إلقاء القبض عليه بعد الهرب هي 13 سنة، وهي فترة كافية لنمو شعر كثيف في الرأس والوجه بالصورة التي ظهر عليها.

(1) Aging changes in hair and nails.at MedLine Pluse. See the following: http://www.nlm.nih.gov/medlineplus/ency/article/004005. htm.

كانت فكرة الإخراج غير موفّقة بالدرجة التي يمكن لها أن تصمد على المدى الطويل، مع أنها كانت قد حققت أغراضها الاستخباراتية على المدى القصير وذلك من أجل قتل فكرة عودة صدام ثانية لحكم العراق بعد أن قدّمت أمريكا الدلالات التي لا تقبل المناقشة في الانتهاء من هذا الفصل من خلال عملية إلقاء القبض على صدام(1).

كانت الولايات المتحدة بل كان البعض ممّن لا يتفق مع بقاء أمريكا في العراق أو إزالة صدام يخطّط في أن يكرّر حادثة الصومال(2)

---

(1) إنّ التغابي أحياناً هو نوع من الذكاء وهو طريقة مخابراتية مهمة يجب إتقانها في العمليات التجسسية، فأمريكا ربما كانت تعلم بمجريات الأشباه وأنّ الشخصية هي ليس شخصية صدام وهذا أمر وارد، ولكنها في ذات الوقت كانت تعيش حالة التغابي لأن الهدف من كلّ العملية هو ليس شخص صدام، وإنما تركيبة النظام بوجود ظلّ صدام، فإذا سقط ذلك وتحقق الهدف الأصلي فليس هنالك من ضرورة لمعرفة من هو هذا الشخص صداماً كان أم جاسم العلي أو غيره ما دام المشروع يسير باتّجاه بوصلة الهدف الموضوع. فالكثير من المعلومات التي تنشر في العالم عندما يتم إهمالها بشكل مخطّط فإنه يوحي للناس وللشعوب بأن الكذب هو الصحيح وأن الصدق هو الكذب.

(2) بقرار من مجلس الأمن الدولي رقم 733 و746 تشكلت (يونوسوم 1 - UNOSOM 1) التي تهدف في المقام الأول الإغاثة الإنسانية وإعادة النظام والانضباط إلى الصومال بعد انهيار حكومته المركزية. وذلك بعد التقارير التي أذاعت بأن 30 ألف مدني صومالي ماتوا من المجاعة في العام الأول للحرب الأهلية. في الفترة من يناير إلى أكتوبر من العام 1993 وقعت اشتباكات مسلحة بين المقاومين المحليين وقوات حفظ السلام أسفرت عن خسائر في تلك القوات فسقطت فيها مروحيتان أمريكيتان من طراز (بلاك هوك) وطوردت طواقمها في شوارع مقاديشو، وقتلوا وسحلوا (19 أمريكياً) بطريقة وحشية ممّا أدّى إلى سحب القوات الأمريكية تماماً من الصومال في 24 مارس 1994. كانت عملية الصومال عملية قّظيعة حتى الأمريكيون استغربوا من وحشية الصوماليين الذين جاءوا لإغاثتهم. وقد نشرت بعض التقارير غير المؤكّدة بأن الجنود الإيطاليين كانوا يدفعون الصوماليين في الهجمات على القوات الأمريكية. كما أن =

التي على أثرها غادرت أمريكا ذلك البلد وتركته تحت رحمة العصابات، وإلى الآن في معاناته من مشاكل جمّة بحيث فقد قدرته في أن يكون دولة لها شأن، وكيان كما هي دول العالم الأخرى، بالرّغم من أنّ الصّومال له موقع مهم جداً ورئيسي على البحرين العربي والهندي بالإضافة إلى تمتّعه بخيرات جمّة، وهنا لم تزعج أمريكا نفسها من البقاء في الصومال أكثر من سنة بعد المذبحة المروّعة التي واجهها جنودها، فتركته فريسة لدول الجوار التي كانت أقوى من صومال متماسك.

إنّ (صوملة العراق) كان حلم يراود دول الجوار التي كانت ترى في مستقبل العراق بأنه من الأنسب لمصالحهم في أن يكون هو السيناريو المقترح، صومال ثانية في أرض مشتّتة تتقاسمها قوميات كردية وعربية وتركمانية وتركيبات عرقية حضارية مدنية وبدوية وفئات

= كثيراً من المساعدات الإنسانية قد نهبت أو نقلت أو بيعت أو لم تصل لمستحقّيها، وقد كانت تلك الحادثة هي التي فتحت أمام مراكز البحوث الأمريكية السبب الذي دفع المسلمين الصوماليين إلى التشفّي بهذا النوع من الانتقام، وهل كان ذلك انطلاقاً من خلفية إعتقادية أو أنه نزوع فردي من قبل أولئك الأشخاص...؟ ومع أنّ الأمريكيين وبعد أن درسوا الأمر من الجانب العلمي الديني وجدوا بأن حوادث التأريخ الإسلامي مليئة بشواهد من هذا القبيل على مدى القرون التي حكم فيها وحتى منذ الأيام الأولى من الدولة الراشدة، وهذا لم يترك مجال للشكّ في أنّ عملية التمثيل بجثث القتلى هي ثقافة بدوية انتقلت إلى الواقع الإسلامي وتحوّلت في البعض من المدارس الفكرية إلى ثقافة ممارسة، وقد نرى صدق ذلك في الكثير ممّا حصل في العراق من تمثيل في جثث الأمريكيين كما حدث في الصومال وهذا ما أكّد فكرة الملازمة البدوية للثقافة العربية الإسلامية في البعض من المدارس الفكرية وخصوصاً مدارس السلفية.

دينية ومذهبية سنة وشيعة ومسيح وصابئة وما إلى ذلك، فقد كان العراق بؤرة مناسبة جداً إلى أن يكون صومال آسيا، في الوقت الذي كان الجميع ينادي بمعاقبة العراق وتحميله ذنب قادته من خلال تحويله إلى صومال جديد.

فكان ظهور صورة صدام (من الحفرة) (شكل رقم 10) في الصحف وفي وسائل الإعلام نهاية لحلم (الصومال الآسيوي) الذي كانت دول المنطقة تنادي به، بل تعمل عليه كالسعودية والكويت وإيران وإسرائيل، مع تردّد سوري من فكرة الصوملة، ومباركة باستحياء من قبل تركيا. ولكنّ أمريكا حسمت الأمر بشكل سريع بعد أن تمّ الكشف عن عملية إلقاء القبض على صدام في 13 ديسمبر 2003.

شكل رقم (10): صدام (الشبيه) في لحظة القبض عليه

فقد كان يراود مخيلة الدول المحيطة بالعراق وخصوصا إيران وكذلك المعارضة باحتمال إعادة سيناريو ما يسمى (الانقلاب المضاد) وهو ليس بالقضية المستغربة في هذا الجزء من العالم، فأمامنا حادثة

(مصدّق) الشهيرة في عام 1953 وكذلك انقلابات سوريا و(صلاح جديد) في آذار 1963، وشباط 1966. بالإضافة إلى انقلابات العراق في عام 1963 ثم 17 تموز 1968 ثمّ التصحيح في 30 من نفس الشهر.

كما أن الشعب العراقي لم يكن في ذلك الوقت له ثقة بأنّ أميركا جاءت من أجل إزاحة صدام، بل كانوا يعتقدون بأن أمريكا دولة تهمّها مصلحتها، وأنّ صدام له القدرة في أن يبيع كلّ شيء في سبيل الحكم، فما المانع بأن يتّفق الطرفان على استباحة دماء العراقيين ثانية، كما حدث في عام 1991 في الانتفاضة الشعبانية. . .؟ فكانت صورة اعتقال صدام هي رسالة أمريكية لتطمين العراقيين ودول الجوار بأنّ زمن المساومات مع النظام قد ولّى وإلى الأبد، وأنه يجب عليهم النظر إلى الأمام والعمل مع الأمريكيين من أجل بناء هذا البلد.

كانت القوات الأمريكية في السابق (ما قبل سقوط الاتّحاد السوفيتي)، وعندما تلقي القبض على رئيس أو شخصية عالميّة فإنها تضع سيناريو خاصاً يصمّمه المهندسون الاستخباراتيون، ثمّ ينفّذه الصحفيون من الأبرياء الذين لا يعرفون مدى تطابق هذه بهذه[1]. في

(1) في عملية اعتقال (مانويل نورتيغا) حاكم بنما القوي في عام 1989 سمحت الولايات الأمريكية للصحافة في أن تدخل إلى مكتب (نورييغا) لتصويره فوجدوا صوراً لأطفال في وضع جنسي، وصور لهتلر، وبعض المجلات الجنسية، محاولين بذلك إظهار (نورييغا) بأنه شخص منحرف جنسياً، والشيء نفسه كان الأمريكان قد فعلوه قبلاً مع (سلفادور أليندي) في (تشيلي) في عام 1973 بعد الإطاحة به ثمّ السماح للصحفيين أن يصوروا مكتبه فوجدوا أيضا ملابس داخلية، صور هتلر، صور أولاد، ولكنّ الشيء =

اعتقال صدام كان هنالك أكثر من ثغرة، وأكثر من سؤال لم يتمكّن أي من الجهات حلّها، كان أهمها هو شكل ثمار التمر[1]، وكذلك حديث الحفرة[2]. ولكننا هنا نتكلم بصورة المشاهدة التي قدمتها قوات

= العجيب هو أن الصحفي الذي تابع تغطية (نوريبغا) كان هو نفسه الذي صوّر موقع (الينديي) وقد وجد نفس الأغراض والأشياء، وهنا أمامنا احتمالات كثيرة لتفسير الحدث. أهمّها اثنان أوّلها هو تشويه الوجه الأمريكي بطريقة أو بأخرى وإثبات كذبها مع ضمنيّة أنّ الحادثة مفبركة كلياً، وثانيها هو أنّ العمل كان أمريكياً لإضفاء شرعية على العملية كلّها. وبغضّ النظر عن كلي الاحتمالين فإنّ تفسير العقلاء تابع إلى قانون (السببية) والمنفعة التي تدفع المخابرات الأمريكية للإقدام على مثل هذا العمل. مع التّأكيد أنّ المخابرات تلك جهاز ليس بخارج عن سلطة الدولة.

(1) فقط نشرت محطة (United Press International U.P.I.) الأمريكية خبر فبركة اعتقال صدام من خلال مقابلة مع جندي أمريكي من أصل لبناني اسمه (نديم أبو رابح) (لا نعلم مدى صحّة الرواية) بأنه قال: كنت من بين الـ 20 رجل في الوحدة، منهم ثمانية من أصول عربية، ممّن بحث عن صدام لمدة ثلاثة أيام في منطقة (الدور) القريبة من تكريت، ووجدناه في بيت بسيط في قرية صغيرة وليس في حفرة كما أعلن، أسرناه بعد مقاومة عنيفة خلالها قتل أحد أفراد مشاة البحرية من أصل سوداني، روى (رابح) كيف أن صدام أطلق النار عليهم من بندقية من نافذة غرفة تقع في الطابق الثاني، بعدها صرخ جنود البحرية عليه باللغة العربية: (يجب أن تستسلم. ليس هناك فائدة في المقاومة). كما نشرت جريدة الأيام التي نقلتها عن صحيفة المدينة.... راجع كامل القصة على الموقعين:

http://www.lookingglassnews.org/viewstory.php?storyid = 179.
http://www.al-ayyam.info/PrintForm.aspx?NewsID = 899ebbf5-7a39-41d5-a6b8c2fb03d06641.

(2) ليس من السهل قبول رواية (أبو رابح) باعتبارها رواية غير محايدة فضلاً عن أنها كما تسمى في العرف التوثيقي (رواية آحاد) لم يوثقها شخص له موثوقية ولم يروها إلاّ فرد واحد فقط، فليس هنالك من دليل على وجود هكذا اسم، ولم نتمكن من التحقّق من صدق الرواية المؤلفة.

التحالف وأهميتها لمستقبل تطمين الشعب العراقي بأنّ عهد صدام قد ولّى، وأن أمريكا الآن في وضع جديد تريد أن تعوّض عمّا أصاب سمعتها في السابق عندما ساندت قواتها في عام 1991 صدام على استباحة الانتفاضة الشعبانية وسحقها.

أما تفاصيل كلتي الروايتين فهنالك أكثر من سيناريو لسنا في مجال شرحه، لأنه قد يخرجنا عن أصل الموضوع وسوف نبيّن فيما بعد علاقته بمفاهيم سرّ صدام.

4 - شكل الفك والأسنان[1]: وهو صفة مورفولوجية أخرى مهمّة تميز الناس أحدهم عن الآخر، ومن اشهر الجرائم التي تم التوصل إلى فاعلها من خلال شواهد الاسنان هي جريمة القاتل (Ted Bundy)[2]. فكلّ مخلوق له تركيبة وبُعد معين ما بين كلّ نقطة من نقاط الوجه وهذه النقاط والأبعاد حتى وإن كانت متغيّرة بعض الشيء في طور تقدّم عمر الفرد، ولكنّه من المستحيل أن تتغير كلّها بوقت واحد، ولن تتمكن كلّ عمليات التجميل من أن تغير كلّ تلك الأبعاد مهما أوتي الأطباء من مهارة ومن قدرة، فقد اجتهد د. بومان الأستاذ المتخصّص في الطب العدلي جامعة (سارلاند) في هامبورغ ألمانيا في العمل على دراسة (أشباه صدام) منذ عام 1979 باستعمال تكنولوجيا متطوّرة ، انظر مقال نيويورك تايمس[3] كان يعتقد بأنها التكنولوجيا الأولى في العالم حيث

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Forensic_dentistry.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Ted_Bundy.

(3) http://www.nytimes.com/2002/10/06/weekinreview/the-world-will-the-real-saddam-hussein-please-step-down.html.

اكتشف مؤخّراً بأن المخابرات الأمريكية كانت قد سبقته في امتلاكها. . يشير الدكتور بومان إلى ما لا يقبل الشكّ بعد أن تمّ فحص 450 من الصور وتوصل إلى أن هنالك على الأقل ثلاثة أشباه لصدام[1]، فهنالك أكثر من تقرير طبي شرعي يناقش هذا الجانب من الوجهة العلمية، وليس من الوجهة السياسية منها مقابلة لمحطة (ABC) مع د. بوهمان[2] وكذلك مع محطة (BBC) برنامج بانوراما[3].

شكر رقم (11): نوعية الأسنان مع التطابق للفكين علامات مهمة في تمييز شخصية صدام عن أشباهه، انظر تقدم الفك العلوي للشبيه وبعكسه لصدام

فهنالك ثلاثة أنواع من الفكوك، إمّا أن يكون الأعلى متقدما أو

(1) Hussein has many body doubles̃ scientist says. The Scotsman, 28 September, 2002. http://www.scotsman.com/news/world/hussein-has-many-body-doubles-scientist-says-1-623019.

(2) http://www.abc.net.au/am₤stories₤s800753.htm.

(3) http://news.bbc.co.uk/nol/shared/spl/hi/programmes/panorama/transcripts/03_11_02.txt.

متساوياً أو متراجعاً عن الفكّ الأسفل، ففكّ صدام الحقيقي الأعلى متقدم على الفك الأسفل، وبمرور الوقت وعندما يتقدم الانسان في العمر فأن الفك الأسفل يترهل بصورة أكثر فتظهر صفة تقدم الفك الاسفل بصورة أكثر وضوحا، أمّا الذي ظهر في المحكمة فهو العكس اي ان الفك الأعلى متقدم على الفك الأسفل. .

هذا من جانب، من الجانب الثاني فخارطة الأسنان في كلتي الشخصيتين مختلفة بشكل لا تقبل الشك في نوعية التطابق بين الأسنان العليا والسفلى (شكل 11).

5 - الكف: وهو من المعايير المهمة في كشف صفات الإنسان وذلك بلحاظ وجود عشرة أنواع من الصفات أهمها أربعة وهي:

شكل رقم (12): أربعة أنواع من الأيادي:
الحدسية، العمالية، الفكرية، الشعورية

a. شكل الكف: فهنالك أربعة أنواع من الكفوف هي: اليد الحدسية (intuitive)، اليد العمالية (Practical)، اليد المفكرة

(Thinking)، واليد الشعورية (Feeling). (شكل12) صدام يملك النوع الثاني من الكفوف وهي كف كبيرة وأصابع غليظة (شكل 13)، أمّا شبيهه في المحكمة فله اليد من النوع الأول الحدسية راحة طويلة وأصابع قصيرة أقل ضخامة من النوع الأول (شكل 14).

شكل رقم (13): صدام يملك النوع الثاني من اليد العمالية كف كبيرة أصابع غليظة

شكل رقم (14): الشبيه يملك نوع اليد الحدسية المربعة الراحة

b. خطوط اليد الداخلية: وهي تميّز بالنظر حسب عددها وطريقة اتصالها فهي تختلف ما بين الشخصيتين بشكل واضح (شكل 15):

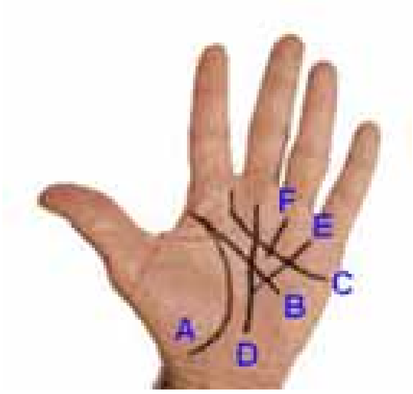

شكل رقم (15) صدام يملك على الأقل خمسة خطوط في خارطة راحته

c. شكل نهاية الأصابع إن كانت مخروطية، مربعة، ملعقية، أو دائرية كما في (الشكل 16) أصابع صدام الحقيقية هي من النوع الأخير، الدائرية ، أمّا الشبيه فهو يملك النوع الأول،المخروطية كما هو موضّح في الأشكال أعلاه.

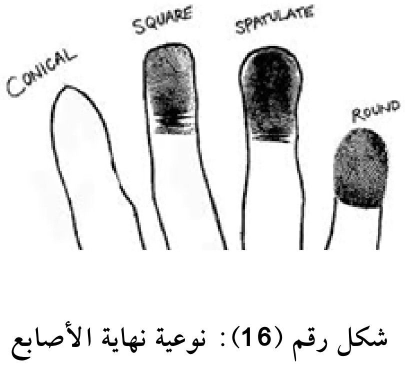

شكل رقم (16): نوعية نهاية الأصابع

صدام يمتلك النوع الدائري والشبيه المخروطي

6 - الطول: وهي الصفة الرابعة الأخرى التي اعتمدت في التفريق ما بين الشخصية الأصلية وبين الشبيه الذي ظهر في المحكمة. صدام طوله 185 سنتمتر، أطول من شاه إيران عندما التقاه في الجزائر سنة 1975 بخمسة سنتمترات عندما لبس كلاهما زياً رسمياً قياسا مع علو الحذاء.

وبمرور الوقت والعمر يميل الإنسان إلى فقدان شيء من طوله تقريباً خمسة سنتمترات بسبب تكلّس الغضاريف واتخاذها شكلها النهائي.

فمن المفترض أن يكون طول صدام في نهاية التسعينيات تقريباً 175 سم (شكل 17).

ولكن عندما التقى خرازي قبل الحرب 2003 كان أطول منه (شكل 18) مع أنّ خرازي كان طوله كطول الشاه. أمّا الشخص الذي كان في المحكمة فكان طوله تقريبا 180 أو أكثر بقليل.

شكل رقم (17): فرق الطول عام 1975 بين الشاه وصدام 5 سم

شكل رقم (18): خرازي مع (الشبيه) سنة 2000 أطول منه 5 سم

بالتأكيد هنالك أكثر من معيار لمعرفة الأشخاص وتمييزهم ربما من مسافات بعيدة، وبطرق سهلة من خلال تسليط أو توجيه الكاميرا على جسمهم أو على وجوههم أو شكل آذنهم أو قزحية أعينهم، وغيرها من الوسائل التي تتعدّد الآن بصورة كبيرة مثل معيار البعد عن كلّ حاسة من جسم الإنسان بعضها عن البعض الآخر، وكذلك سعة كلّ مساحة من المساحات ومن خلال ذلك تدخل كلّ تلك المعلومات إلى جهاز متخصص في الكومبيوتر على شكل رقمي (Digital) وتتمكن الجهات الأمنية فيما بعد من أن تتابع مكان الشخص وكلّ ما يتعلق بتحركاته. وهكذا يتمّ متابعة كلّ الأشخاص المطلوبين في العالم أو الأشخاص المهمين أو غيره. هنا نحن في هذا البحث لم نتطرق إلى هذا الجانب باعتبارنا أنّنا بدأنا من الصفات التي تعتبر سهلة الكشف مثل شكل الأذن وشكل اليد وطول الإنسان وعلامات الوجه وغيرها.

طبخة الحرب

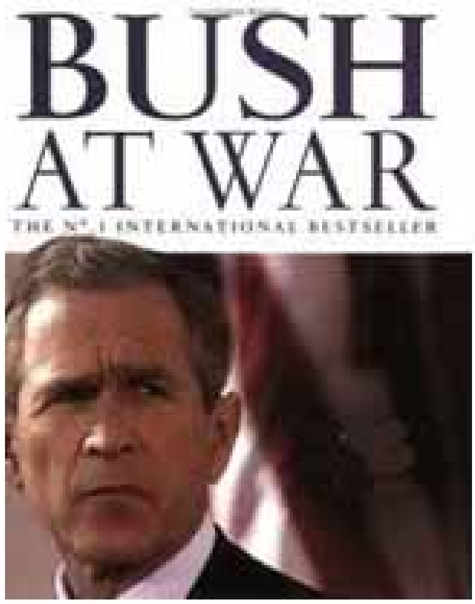

محور الشر: كانت فكرة الأشباه وموت صدام تديرها مجموعة الظلّ منذ يوم وفاة الأخير، وذلك كمادة مهمة تناور بها تلك المجموعة من أجل منع أمريكا وبريطانيا من دخول العراق حرباً، وبما أن الموضوع لازال في طور الشبهة وليس في طور التأكيد فإنه في الأوقات ما قبل 2002 كان هذا الحديث يدور في الفلك السياسي فقط وفي حيّز التخمينات والحرب النفسية التي تشنها الأطراف بعضها على البعض الآخر، مع أنّ نسبة قبول العراقيين في الداخل بهذه الفكرة تكاد تكون معدومة، وينطبق الأمر فيما يخصّ صفوف المعارضة العراقية كذلك، وهاتان الشريحتان هما المعنيتان بالدرجة الأولى بالموضوع.

فلو أدرك الشعب في الداخل، وأدركت المعارضة في الخارج بأن صداماً كان قد مات في عام 1999 فإن قرارات الأمم المتحدة، وقرارات الحرب على العراق سوف لن يكون لها أيّ معنى، بل إنّ القانون الدولي سوف يتريث في إصدار قانون يبيح شنّ حرب على العراق.

فالأمم المتحدة كانت قد ربطت كلّ التعقيدات في مسألة التفتيش عن أسلحة الدمار بشخصية صدام وليس بالدولة العراقية ذات

المؤسسات التي كان الجميع على علم بأن القانون والعراق يعنيان صدام.

في الوقت عينه كانت أمريكا تدرك و- خصوصاً بوش الابن - بأن انكشاف لعبة وجود صدام وإدارته للدولة هو المبرّر القوي الذي يعطيها جواز الاستمرار في قرع طبول الحرب والدخول إلى العراق، فالاحتلال للدولة العراقية لم يكن بالأصل هو ما أعلنته الأمم المتحدة بما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل، فهي حرب ليست كالحروب السابقة التي خاضتها أمريكا كالحرب الأفغانية أو الفيتنامية أو الكمبودية أو الكورية، فالأمر في عام 2003 كان مختلفاً تماماً عن ظرف حرب فيتنام. وإنما كان الرئيس بوش يرى في داخل نفسه وهو اعتقاد شخصي لا غير، سواء أكان نابعاً من اعتقاد ديني أو اعتقاد أخلاقي مجرّد نابع من حب السّيطرة، أو في الاستعلاء، يرى بأن وجود هكذا نظام في القرن الواحد والعشرين يتنافى مع المبادئ الأمريكية ومع المبادئ الدينية التي يؤمن بها فيما يتعلق بانتمائه إلى طائفة (United Methodist) هذا هو الجانب الأول من ضرورة دخول العراق عسكرياً. أمّا السبب الآخر فهو الابتداء بالعراق كقاعدة لتغيير الأنظمة العربية والإسلامية في العالم باعتبار أن تلك الأنظمة لازالت من الأنظمة التي تعتبر الأعرق في شدّة سطوتها وديكتاتوريتها وإذلالها للشعوب فيما لو قورنت بما هو قائم في العالم بعد التغيير الذي اجتاح أمم أوروبا وآسيا وأفريقيا بعد انتهاء الحرب الباردة.

فالكثير من الأنظمة القمعية قد ذابت أو اضمحلت في تأريخ ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي كما هي أوروبا الشرقية وأقطار الجمهوريات

الإسلامية في جنوب الاتحاد السوفيتي وكذلك كوسوفو والبلقان بالإضافة إلى أقطار أميركا الجنوبية والكثير من أنظمة إفريقيا. بقيت الدول العصيّة عن التغيير هي الدول الإسلامية بعموميتها عربييها وغير عربيها، وهو ما دفع الرئيس بوش إلى محاولة الإقدام على التخلّص من هكذا أنظمة من خلال الابتداء في تغيير العراق، ثمّ التوجّه إلى بقية الأقطار وخصوصاً السعودية التي يعتبر التغيير فيها عنصراً مهماً جداً والذي ربما يأتي بعد العراق في الأولوية.

فالهدف يجب أن يتناسب مع مبرّر واضح تدركه الشعوب، وليس مبرّراً غائماً، فموضوع أسلحة الدمار الشامل بقي يراوح مكانه، بعد أن فشل خبراء الأمم المتحدة في التقاط إشارة على وجود تلك الأسلحة، فلم يكن أمام دخول العراق إلّا حجة واحدة فقط وهي أن صداماً نفسه رجل شرير (محور الشر) سادي ذو توجّهات عدوانية، وهو في محاولة تجنيد القوى الإرهابية الكبرى كالقاعدة وغيرها، ثم تزويدها بقدرات ضخمة، باعتبار أن العراق له من الإمكانية في أن يمتلك قدرات تكنولوجية للقيام بهذه المهمة.

فعلية فإن التوجه إلى صدام وتغيير الحكم أمر عقلي، بل هو وقائي قبل أن تقع الضربة، وهذه هي الحجة الكبرى التي تذرّع بها الرئيس بوش في تبرير الهجوم، فليس أمامه أن يقول بما هو كامن في قناعته الشخصية، وما يؤمن به فكرياً ومستقبلياً، وعليه فإن الإسراع في حرب خاطفة مهم جداً، وضروري قبل أن ينكشف موضوع موت صدام إلى أمم العالم.

الغباء السياسي: فلو كانت القيادة العراقية أيّ (الظلّ) ذكية ومدركة ولها بعد نظر وعارفة بما فيه الكفاية في مسيرات السياسة الأمريكية لكانت قد تمكّنت من إفشال مخطط دخول العراق من خلال إعلان موت صدام، والتأكيد بالقول في أنّ القادم الجديد سيتمّ انتخابه من قبل الشعب، وإنّ كلّ ما كان يقوم به صدام هو أمر كانت قد قررته طبيعة تفهّمه للمرحلة المنصرمة، ولذلك فإن القيادة الجديدة ترغب في فتح صفحة جديدة في علاقة العراق مع العالم ومع أمريكا اعتماداً على مقرّرات الأمم المتحدة. . . . لو كانت القيادة العراقية (الظلّ) قد امتلكت من العقل ما هو كاف في القول بهذا المنطق لأفشلت مخطط الحرب على العراق كلياً، ولكنها كانت أولاً متعجرفة، ثم أنها كانت قاصرة النظر في طبيعة فهم الأمور، هذا بالإضافة إلى بعدها عن فهم حاجات العراقيين وما إلى ذلك.

كان الرئيس بوش يريد أن يسابق الزمن لتجنّب إفشال فكرته في الدخول إلى العراق وتحقيق الغرضين المهمين: إزالة النظام، وفتح طريق الديمقراطية إلى الدول الإسلامية، فلذلك كان يتظاهر جدّياً بأنه يحارب صدام نفسه، وأنه في غاراته يريد أن يتناول شخص صدام الذي يمثل الديكتاتور (الشرّ) الذي يجب استئصاله في محاولة سياسية منه لتأصيل فكرة أنه لا يعلم بأن صدام قد مات، بل أنه كان يؤكد على تغابيه، وعلى جهله بكلّ ما هو متعلّق بموضوع الأشباه وموضوع البدلاء. وكان يظهر تبرمه أو استهزاءه بالفكرة (فكرة البدلاء) لكي ينقل الرسالة واضحة إلى القيادة العراقية في أن الحيلة قد انطلت عليه، وأنه لازال يعيش جوّ تلك الحيلة.

في ذلك الوقت انتشت قيادة (الظلّ) العراقية أيما انتشاء بعد انطلاء حيلة تمكّنها من خداع القيادة الأمريكية ومخابراتها كما تمكّنت منه أن تخفي الأمر لمدة أربع سنوات، أو أكثر بقليل، ممّا طمأنها بأن أمريكا لم تكن على علم بالأمر، ولو كانت قد علمت به قبلاً لحدثت أمور كثيرة بعد الإعلان عن موت صدام. وهذا معناه هو أن أمريكا لم تكن جادة في تبديل النظام أو بإسقاطه أو ما شابه، بل إن جُلّ ما سوف تقوم به هو كما عملت في حرب الخليج الثانية في الوصول إلى (الناصرية) ثم الانسحاب ثم الجلوس على طاولة المساومات وعلى أثرها يتمّ تصفية الكثير من المخططات منها إعلان موت صدام، والابتداء بفصل جديد في استمرار السيطرة على العراق من خلال إدامة نغمة التخويف الشيعي أو من الإرهاب.

ولم تكن القيادة (الظل) تدرك وبسبب جهلها بأن شمّاعة التخويف (الشيعي) لم يعد لها من وجود أو تأثير في القرار الأمريكي بالقدر التي كان عليها فيما سبق وفي فترة ما قبل سبتمبر 2001، بل استبدلت عملياً بظاهرة (الإرهاب) (السني السياسي) وليس الإرهاب (الشيعي). فصارت تلك القيادة لقلة خبرتها وبدويتها تصاول بسيف لم يعد له من قدرة على المنازلة أو التأثير، في الوقت الذي انتقل سلاح السّيف إلى المدفع مثلاً.

وهنا تحولت فكرة البدلاء إلى كرة تتقاذفها الأطراف المتنازعة والتي تحولت إلى دلالة من دلائل المعرفة من عدمها، ولذلك حرص العراق المتمثل بقيادة الظل على استعمال هذا السلاح دوماً والمناورة به بما تتمكن لكي تحسّ مدى قدرة المخابرات الأمريكية على اكتشافه

من عدمها، فإذا كانت قد اكتشفته فإنها وحسب تقدير قيادة الظل فان أمريكا ستستعمله في نفس الوقت ضدّ العراق، وعندها سيبادر العراق مباشرة إلى إعلان موت صدام ثم السيناريو الذي من خلاله تدخل دول العالم في حوار مع العراق. وإذا عجزت أمريكا عن اكتشاف ذلك السلاح فهذا معناه بأن أمريكا سوف لن تدخل حرباً كاسحة، بل حرباً محدودة وهذا أمر يصب أخيراً في صالح العراق وقيادة الظل.

هذا السيناريو كان من الذكاء - كما يبدو - من قبل القيادة الأمريكية، ومن الغباء من القيادة العراقية بالقدر الذي أصبح به عامل الزمن عنصراً مهماً في لعبة الشدّ والجذب حيث وصلت إلى مراحل متقدّمة. فكلا الخصمان يملك رصاصة واحدة في جعبة المسدس فمن يطلقها أولاً مع تجنّب الخطأ فهو الفائز. وبالمقابل الطرف الآخر الذي عليه أن يكون حذراً بدرجة كبرى من خسارة الطلقة.

هنالك أقوال كثيرة من هنا ومن هناك ولكنها غير مؤكّدة ولا يمكن الركون إليها في التحليل، وهو أن جاسم العلي كان شخصية أمريكية الصنع تمّ صناعتها وإرسالها إلى العراق في عام 1993 لكي يتلقّفها صدام ثم استعمالها في مسلسل بدلائه الآخرين الذين يعتبرون هدية كبرى ساقتها إليه يد السماء. تلك الأقاويل بالتأكيد ليس لنا في أن نقول بصحتها، بل نقول بخطئها لأنّنا لا نملك أية إشارة إلى دقّة مصدرها. وربما هي صحيحة ولكننا نعتبرها غير موثّقة أمانة منا في أن نكون قد تحاشينا ما هو موهوم.

من ناحية أخرى كان الضغط يسير بصورة متناوبة مع التوجّهات الإسرائيلية والإيرانية التي كانت لا ترى من مصلحة في دخول القوات

الأمريكية العراق، وكانت تراهن على أن يتمّ وقف ذلك الهجوم من خلال الإعلان عن موت صدام، ولكنّ حسابات المنطق والساحة تقول: بأنه حتّى لو أفشت وأعلنت إسرائيل أو إيران هذا السرّ فإن ذلك سوف لن يكون مجدياً بدون أن تعلن قيادة الظلّ هذا الأمر، فكلتا الدولتان تعتبران معادية إلى صدام فإعلانهما يندرج تحت ذلك العنوان. وهو عنوان قد يغيّر وقد لا يغيّر من شيء على أرض الواقع.

فالإمكانية الحركية الإيجابية لذلك السرّ هو من له القدرة على أن يحوّله إلى حقيقة. والعراقيون فقط أكان الشعب أم قيادة الظل لهما تلك القدرة. فلو ثار الشعب العراقي في ذلك الوقت، أي بعد إعلان موت صدام من قبل كلتي الدولتين أو إحداهما، وهو أمر مستحيل في عداد الواقع النفسي والاجتماعي للعراقيين، لكان الأمر قد تغيّر أصلاً، بل لكانت تلك الثورة هي التي تنطلق بعد نزع عامل الخوف والرهبة من وجود الطاغية، ولكنّ ذلك لم يكن له من تأكيد باعتبار أن الأمر في غاية الضبابية، فالمراهنة على تحريك الشارع العراقي يكاد أن يصل إلى صفر، أمّا عامل (قيادة الظل) فإنه يبقى الوسيلة الوحيدة التي تتمكن من المناورة بالشكل الذي تتمكن به دول الجوار إيران وإسرائيل والسعودية من أن تتحرك فيما بعد لكي توقف أو تؤخّر التوجهات العسكرية الأمريكية في الدخول إلى العراق.

دولة الخاصرة الضعيفة: حاولت إسرائيل لمرات عدّة أن تنقل الرسالة إلى العراقيين (قيادة الظل) في القول بأنها تملك دليلاً على موت صدام، وأنّ السرّ الذي تملكه هي لا يمكن لدولة أخرى أن تمتلكه، وإنها على استعداد أن تتعاون مع القيادة العراقية في سبيل منع

قوات أمريكا من الدخول إلى العراق، هذا فيما لو اقتنعت القيادة العراقية في أن تضع سيناريو الإعلان بالتعاون مع إسرائيل.

والشيء نفسه كانت إيران تقوم به مع شكوكها في امتلاكها الدليل الذي يمتلكه الإسرائيليون، وهي عيّنة (DNA) لخلايا صدام. ولكن العراقيون كما هو شأنهم كانوا يعتقدون في أنفسهم بأنهم سادة التخطيط، وأنهم من يتمكن أن يخدع الآخرين وأن يجعلهم في موقع الضعف وليس العكس، فكانوا يرون بأنهم بقدراتهم تمكنوا من خداع أمريكا بما يتعلق بموضوع الأشباه، فكيف بالآخرين الذين يمثلون تفرعات مخابراتية مقارنة بما تمتلكه أمريكا، فهم ليسوا على استعداد على أن يناقشوا موضوعاً أكبر من حجم قدرة كلي البلدين، فكان ردّهم إهمال وعدم اكتراث. هذا في الوقت الذي لم تظهر هذه الصراعات على مستوى الشارع أو الإعلام مع أنها كانت ولكنّ بالصورة السياسية والصورة التنافسية، وليست بالصورة الواقعية العملية، فصارت عبارة عن فقّاعات تطير في الهواء ثم ما تلبث أن تنفجر.

وفي بداية الشّهر الأول من عام 2003 فقد تحوّلت إلى قضية ساخنة تدور في فلك الكواليس السياسية، لأنّ سقوط النظام صار وشيكاً كما تقرّره المخابرات وحسب اعتقادها بأنه سيكون هنالك سيناريو ربما يخرج عن نطاق السيطرة، وكان الرأي الذي تراه المخابرات الأمريكية في ترك النظام تحت رحمة لعبة الأشباه وتأخّر القضية سيلحق بالموضوع خمسة أنواع من السيناريوهات غير المرغوبة ضمن التسلسل التالي:

1 - سيناريو انتزاع الحكم من قبل فصائل قريبة من القاعدة، وكانت

السعودية تقف خلف هذا المخطط كما هي حالة وصول الطالبان إلى أفغانستان بمساعدة الدولة المجاورة الباكستان.

2 - سيناريو حكومة دينية سنيّة، باعتبار أن السّنة هم الطائفة الأقوى، وهي بالنهاية ستسقط هذه الحكومة في حضن أتباع القاعدة فيما بعد.

3 - سيناريو انقلاب شيعي متشدّد، ولكن ليس له علاقة بالقاعدة، وإنما يتبع النسق الإيراني.

4 - سيناريو حكومة عربية قومية يقودها البعث نفسه، من خلال الاتّفاق مع أطراف أهمها هو مصر والأردن، وهذه ليست ذات قوة باعتبارها ستكون معزولة شعبياً داخل العراق، ولن تتمكّن من الصّمود طويلاً.

5 - سيناريو انقلاب قبلي تقوده قبائل بدوية تنتمي إلى وسط وغرب العراق، وهذا سيؤدي إلى صراعات كبرى تتناحر فيه القبائل وتدخل في حرب أهلية كبرى.

ولكنّ الواقع الذي يحكم كلّ السيناريوهات الخمسة لم يكن له من مصداقية لأسباب بسيطة وهي أنّ عدم إعلان موت صدام سيجعل كلّ تلك السيناريوهات غير ذات فاعلية بسبب قوة الجهة التي كانت تحكم في العراق، وهي التي تسيطر على كلّ مراكز القوة من الجيش والشرطة ومراكز المخابرات وغيرها من القوى التي من الصعب تحويل ولاءاتها إلى غير صدام أو (قيادة الظل) التي تنشب أظافرها في كلّ مفصل من مفاصل القوات المتنفذة.

فالمخابرات الأمريكية كانت متأكدة إلى درجة مقبولة من أنّ

السيناريوهات الخمسة ممكن لها أن تحدث، ولكن بنسب متفاوتة تبعاً لحالة الظرف، ولحالة التغيير والصراع الداخلي الذي من الممكن أن ينشب ما بين أقطاب قيادة الظلّ حيث سيكون عامل الوقت قصيراً إلى الدرجة التي يصعب التسابق فيه مع الحدث، وهكذا كان الرأي الأمريكي هو رأي احترازي، وليس رأياً إيجابيا أو ابتدائياً، وهذا ما يجب اتخاذه والعمل عليه خوفاً من الأسوأ كما تقرّره قيادة المخابرات الأمريكية.

إنّ إسرائيل كانت متخفّية خلف أربعة من تلك السيناريوهات باستثناء واحد كانت إيران تمتلك مفاتيحه كلّها، مع أنّ الواقع فيما بعد أثبت خطأ ذلك التصوّر. ولكنّ السياسة مرهونه بوقتها وبظرفها، فقد كانت إيران تمتلك أقوى السيناريوهات كما يبدو، وعلى أساسه كانت أمريكا لا ترى من خوف كبير من ذلك، باعتبار أن إيران دولة غير إرهابية، وهي الفلسفة التي توصّلت إليها أمريكا مؤخّراً، أي فيما بعد أحداث سبتمبر 2001، وقد بنت فلسفتها تجاه العراق على ضوئها وحتى وقتنا وما بعد عام 2003.

إذن فلعبة الصراع الآن محكومة بعاملين وهما الإعلان عن موت صدام، أو حدوث إنقلاب غير محسوب، أمّا القول في خيار الثورة الشعبية الداخلية للعراقيين فليس هنالك من مصاديق له، وربما يخالف هذا الرأي الأخير الكثير من السياسيين وزعماء المعارضة العراقية المنتشرين في العالم. البراغماتية الواقعية واستقراء مسلسل التأريخ البعثي في العراق ينفي كلّ أمل في احتمال الثورة الشعبية، مع أنّني أميل له - تمنيّاً - جداً باعتباره الخيار العملي الذي يمكن أن يجنب

العراق مأساة كبرى، وهو الخيار الذي يتوافق مع العقل ومع المنطق ولكن التمنّي شيء والواقع شيء آخر.

فالأمور عندما تصل في عقل الإنسان إلى طريق التّخبّط والتشويش فإنه من الطبيعي أن يميل إلى خيار الحسم، وخيار الحسم في هذه المسألة هو القوة، أي الاجتياح، مع أن عواقبه كبيرة، وتبعاته معقّدة، ولكنه خيار (الواقعية المرّة) (إذا لم يكن غير لبس الهوان\ فبالموت تنزع جثمانها) هكذا هي الحياة وتعقيداتها وهذا هو منطق القوي ومنطق السياسة.

إذن كان على أمريكا أن تجتاح العراق لوضع حدّ لكلّ سيناريو آخر من سيناريوهات المستقبل، وكذلك لتحقيق الهدفين الإيديولوجيين للرئيس بوش في إزاحة نظام لا يتناسب مع المبادئ الأمريكية، ولفتح كوّة على عالم جديد ديمقراطي للبلدان الإسلامية التي تحيط بالعراق، فكان قرار الحرب قراراً لا رجعة فيه، تبنّاه الرئيس بوش، وكذلك رئيس الوزراء البريطاني توني بلير[1]. وكما ذكرت كان القرار

(1) لا يعرف الرجال إلا في الأزمات سواء أزمة محقة أو باطلة، فالعالم يقدر تلك الشخصيات التي تثق بقدرة مبادئها، أمّا الآخرون فإنهم يبقون عيالاً على الشجعان.. أكرّر في الحق أو في الباطل. فالرئيس بوش الابن شخصية ذو فلسفة لم يتمكن غيره من الرؤوساء الأمريكيين أن يصل إلى شجاعته وإلى تحديه العالم إلّا ربما (نكسون) (ت 1994) أو من القدماء (جون آدمز) (ت 1826) بطل التحرير الأمريكي، أمّا توني بلير فله القدرة الكبرى التي تمكنت من أن تسود أوروبا بما لديها من شجاعة متناهية في صناعة القرار. اجتمعت كلتا الشخصيتان بالصدفة بشكل فيه الكثير من التشابه في نظرتهما إلى العالم، أمّا أكثر ما هو قرباً من موضوع بحثنا فهو موضع اطلاعهما الواسع على مجريات العالم الإسلامي والعربي والعراقي بشكل خاص في الوقت الذي كان =

مستعجلاً[1] بشكل لم يتمّ في عالم الحروب الكبرى أبداً، وكان كما هو واضح في تفاصيل الإنذار الأمريكي أن يغادر صدام (شخصاً) العراق مع ولديه وهو قرار تعجيزي جداً باعتبار أنّ صدام ميت، وليس للطرف العراقي ولا للأطراف الأخرى التي تعارض الحرب وفي هذه اللحظة أن تعلن حقيقة موته لأنّ ذلك في هذا الوقت يعني التهرّب الكاذب من الحرب، وهذا أمر غير مقبول أو غير معقول من قبل دول العالم.

كما أنّ إيران حتى لو أعلنت ذلك فإنها ستكون متأخّرة جداً عن قطار التنفيذ، فإسرائيل عاشت لحظات عصيبة لا بسبب عدم قدرتها، ولكنّ بسبب خذلان الجانب العراقي وهم مجموعة (الظل) ورفضهم تنسيق المواقف.

الحرب. . . أخيراً: وهنا بدأت الحرب يوم 20 مارس من عام 2003 وكانت الأمور تسير باتّجاه التفكير الكامن في نفوس القادة العارفين بموضوع الأشباه أن ينفلت على صفحات لسانهم في القول بأنّ الغارة الأولى كانت تتناول صدام شخصياً، كمن يريد أن يقول بأنني سأحارب الجنّ مع أنه يعلم بأنّ الجنّ لا يمكن محاربته، ولكنّها

= الرؤوساء السابقون الأمريكيون والبريطانيون ما عدا (تشرشل) (ت 1965) وربما كينيدي (ت 1963) لا يرون في العالم الإسلامي إلا عالم ينظرون إليه من خلال النافذة السعودية فقط.

(1) 28 كانون أول أعلن الرئيس بوش بأنه سيخوض حرباً حتى من دون تفويض أممي، 24 فبراير قرار الأمم المتحدة، 17 مارس إعطاء مهلة 48 ساعة لصدام، 19 مارس شنّ الحرب.

سقطات الّلسان التي من الصعوبة على الغربي أن يتمكن من أن يكبتها في داخل نفسه أحياناً.

كانت القوات الأمريكي ترمي في عملياتها إلى استسلام الجيش العراقي بدون وقوع ضحايا، وهي الحرب الحديثة التي تحارب بالجانب النفسي بدلاً من استعمال لغة القتل وسفك الدم، مع أنّ الجيش العراقي كان منهاراً نفسياً مستسلماً حتى قبل أن يدخل الأمريكيون إلى العراق، بل كانت قطّاعات بل فرق كثيرة تريد أن تتخلص من واقع مأساوي لا نتيجة له إلا بالتخلص من النظام، ولكنهم وللعجب كانوا لا يرون في أنفسهم القدرة على تحسين ظروفهم من خلال الانتفاضة أو الثورة. بل كان الجيش ينتظر القادم من خارجه لكي يخلّصه من مأساته المزمنة التي يعيشها.

فكانت مقولة (مقتل صدام) في الغارة هي فقط (للحرب النفسية) التي لم يكن يحتاجها في ذلك الوقت. ولذلك سقط الجيش العراقي بسهولة مذهلة لم تكن غير متوقّعة، بل الأدهى من ذلك أن قيادة الظل لم تكن أبداً تعتقد غباءاً وعمىً بأن الأمريكيين سيجازفون بأرواحهم في حرب حقيقية من خلال مشاة البحرية.

في الساعات الأولى من الحرب كان هنالك أكثر من سيناريو بما يتعلّق ببديل صدام وبقية البدلاء. فهنالك أكثر من خبر سرّبته وسائل الإعلام الأمريكية بأنّ هنالك جنوداً أمريكيين قد رأوا صداماً بأمّ أعينهم ينقل بطائرة أمريكية إلى جهة مجهولة[1]. أو أنه نقل إلى (بيلاروس) يوم

(1) Iraqi Commander Swears He Saw US Evacuate Saddam. Bill Dash, 8-17-03 (http://www.rense.com/general40/saw.htm).

29 مارس[1] ولو صحّت هذه المقولة أو الرؤية فإن الذي تمّ نقله هو جاسم العلي الشبيه رقم واحد في مسلسل أشباهه، أو شخص آخر لا يعلم أيهما، ولكنّه بالتأكيد كان ذات الشخص الذي ظهر في المحكمة.

أمّا ظهوره في الأعظمية في يوم 9 إبريل يوم سقوط بغداد فهو بالتأكيد لم يكن صدام، بسبب الفروقات الهائلة في شكله وفي هيئته وقيافته، ويبدو أن هذه الشخصية هي التي بقيت تقاوم الأمريكيين من الأشباه إذا أحسنّا الظّنّ في وطنية العراقيين، أو أنّها كانت مصيدة لبقية قوى المقاومة للالتفاف حوله لكي يسهل القضاء عليهم من قبل الأمريكيين.

كان سيناريو الهجوم كما هو مفاجئاً للقادة العراقيين من قيادة الظلّ كما كان كذلك مفاجئاً للدولتين المهتمتين بالعراق، إيران وإسرائيل اللتان كانتا تعتقدان بأنّ القوات الأمريكية ستكون مجرّد عرض عضلات، وأنّ الهجوم البرّي مستحيل بسبب المعارضة المستمرّة من قبل الشعب بل من قبل كلّ العالم. وكان الاعتقاد أن تقوم بالمهمة إمّا قوات عراقية تنطلق من شمال العراق تساندها (البيشمركة)، أو أن تدخل قوات مشتركة من كافة الجبهات تساندها قوات الجيش العراقي الذي ينفصل عن قيادته من خلال احتلال البصرة أو غيرها من المدن. كان هذا الاعتقاد خاطئاً وهذا ما ترك آثار خيبة كبرى على سوء التقدير لكلتي الدولتين.

(1) http://www.thetruthseeker.co.uk/?p = 829.

ماذا حدث بعد السّقوط...؟

الأمثال تضرب... ولكنّ لا تقاس: كان الرأي المهم للأمريكيين هو تثبيت الحكم وتحويل العراق إلى دولة قوية متماسكة لها قدرات اقتصادية ولوجستية. وقد كان النموذج الذي اعتمدته قوات التحالف في بناء العراق مشابهاً للنموذج الياباني فيما بعد الحرب العالمية الثانية، فاليابان دولة كان لها أن تكون امتداداً للثقافة الأمريكية فيما يتعلق بنشر تلك الثقافة إلى بقية الدول التي تلتزم نفس الثقافة البوذية والهندوسية المشتركة مع اليابان والتي تنتشر في محيط الشرق الآسيوي.

ولكنّ الأمريكيين لم يميّزوا ولم يدركوا مدى الفروق الكبرى فيما بين الدولتين، فاليابان شعب مثقف يميل إلى السلم والعمل، بينما الشعب العراقي شعب تصل فيه نسبة الأميّة إلى نسب قياسية، ومستوى الثقافة بعيد عن واقع العالم، كما أن الشعب العراقي شعب (بدوي) العقلية والثقافة من الصعب على المفاهيم الغربية الديمقراطية أن تنتشر فيما بين مواطنيه.

وهنا اندلعت الحرب الطائفية والقبلية والثقافية والدينية والقومية بشكل لا مثيل له، وتحوّل العراق إلى أسوأ بلد في العالم من ناحية الأمان، ممّا فسح المجال إلى القاعدة وفلولها في أن تخترقه من أبوابه الواسعة وأن تغير من صورة العراق كلياً.

أمّا أمريكا فكان عليها في ذلك الوقت أن تتعامل ببراغماتية مفرطة في سبيل إنهاء مسألة التهمة التي جاءت من أجلها، وهي إشاعة الديمقراطية بعد أن تمكنت من إسقاط النظام عسكرياً وتشتيت قوته المتمثّلة بالجيش والمخابرات وأجهزة الأمن.

كان الحاكم المدني الأمريكي (بريمير) يرى في أن العراق لا يمكن له أن ينهض من كبوته فيما بعد سقوط النظام ما لم يتم رفع مستوى الشعب إلى المستوى الياباني المناسب لوقته، ولكنّه اصطدم بعقبتين كبيرتين لم يكونا من جملة الحسابات التي وضعتهما أمريكا في المعادلة، وهما التعملق الديني أولاً غير المحسوب، وثانيهما هو غياب الوطنية لدى العراقيين وتعويضها بولاءات مختلفة كالولاء للمذهب والولاء للقبيلة، والقومية وما إلى ذلك.

ملف ولكنه ليس بملف. . . : فكان أمام أمريكا أن تفكر جدياً أن تنقل الملف كاملاً بيد العراقيين بعد أن واجهت مقاومة عنيفة من قبلهم في المشاركة بعملية التغيير الذي جاءت به أمريكا، وهذا أمر مختلف كثيراً عن اليابان التي كانت تقبل بخطوات التغيير التكنولوجية والسياسية.

أما العراقيون فكانوا حساسين جداً من ذلك وكانوا يعتبرون التعلّم في مسارات السياسة منقصة لهم ولمبادئهم، وهذا ما جعل الولايات المتحدة الأمريكية تفكّر جدّياً في إنهاء الملفات العالقة، وأهمّها هو ملف صدام حسين ذاته، والانتهاء منه وطمأنة العراقيين والسياسيين بأن صداماً ولّى وإلى النهاية.

كما كانت ترى بأنه يجب أن تخرج أمريكا مع استحقاقات قوية ومثبته على الأرض، فكانت أن استخرجت مسألة محاكمة صدام حيث كانت أمريكا ترى في أن مجريات المحكمة يجب أن تشابه مجريات محاكم (نورمبورغ) الألمانية[1] حيث حوكم النظام الألماني وأصدر أحكام السجن لمنع أي احتمال مستقبلي في أن يقفز إلى السلطة في ألمانيا شخصيات مثل هتلر وما سبّبه إلى العالم من مذابح مروّعة.

وهنا جاءت فكرة المحكمة والتي كانت سابقة لهذا في تأريخ إلقاء القبض على الشخصيات الخمسين من الذين أذيعت أسماؤهم في التلفزيون، ووضعوا على بطاقات الورق وفي وسائل النشر، فلم يكن بداً من أن يقدم كلّ ذلك إلى محكمة على شاكلة محكمة (نورمبورغ)، ولكنّ قبل أن يتم ذلك يجب على الأمريكيين أن يعدّلوا قوانين المحاكم والاتهامات العراقية لأنها قوانين قديمة جداً لا يمكن من خلالها إقامة محاكم مشابهة لمحكمة نورمبورغ العالمية.

(1) في عام 1943، التقى أقطاب الحلفاء الثلاثة الكبار الولايات المتحدة الأمريكية، والإتحاد السوفييتي، وبريطانيا في طهران، وقرّر الرؤساء في قمّتهم إنشاء محكمة نورمبورغ لمعاقبة المسؤولين عن جرائم الحرب خلال الحرب العالمية الثانية. وبانتهاء الحرب، تمّت محاكمة 200 من قادة الحزب النازي الألماني و1600 آخرين في محاكمات عسكرية اعتيادية خارج نورمبرغ. قام أقطاب الحلفاء الثلاثة بتزويد المحاكم بقاضٍ رئيس وقاض آخر بديل، ومدّع عام. بالإضافة إلى محاكمة الأطباء الذين أجروا التجارب الطبية على البشر. وعُقدت أول جلسة في 20 نوفمبر 1945 واستمرّت الجلسات حتّى 1 أكتوبر 1946. عقد الحلفاء جلسات المحاكمات العسكرية في قصر العدل لدى نورمبرغ، تناولت المحاكمات بشكل عام مجرمي الحرب الذين ارتكبوا فظائع بحق الإنسانية في أوروبا.

وعندما بدأت أمريكا في تنفيذ الأمر اصطدمت بمليون عقبة في تشكيل البرلمان وفي توزيع تركة صدام، ووجدت أن الصراع على المناصب هو أشرس ألف مرة ممّا كان في زمن البعث، خصوصاً وأن دول المنطقة دخلت وبقوة لمحاربة الأمريكيين من أجل منع أية خطوة ينتج من جرّائها استحداث نظام قضائي متقدّم، ودولة حديثة[1] وذلك من خلال بثّ قرن الصراعات الطائفية والحزبية والإقليمية والدينية، وهكذا توصل الأمريكان إلى أن العراقيين هم من يجب أن يصنع مستقبله، وأن الدخول معهم في تغيير واقع البلد يحتاج إلى تفهم من قبل كلي الطّرفين، ومادام العراقيون لم يصلوا إلى تلك النقطة، أي لازالوا يعتقدون بأن أمريكا دولة محتلة أو عدوة وأنها جاءت من أجل السيطرة ومن أجل سرقة ثروات العراق وغيرها من الأمور التي يقولها كلّ سياسيي العراق، فإنه لمن المستحيل أن يتمكّن الأمريكيون من إحداث تغييرات كبيرة في هيكل الدولة، فوجدوا أنفسهم بأنهم يعيشون في موقع يتيم لا يمكن لهم تفعيل دمقرطة العراق بما ينبغي له أن يكون بما يملكه من ثروات وقدرات كبرى.

وفي هذه الإثناء انفجرت الخلافات الحادة داخل أمريكا وفي الكونغرس وفي أوساط الشعب الأمريكي بعد أن تعاونت دول الجوار

(1) من أهم ما يميّز الدول المتقدّمة قوة واستقلالية القضاء وقدرته على مماشاة التغيرات الاجتماعية في ذلك البلد. وينعكس التأثير النفسي لمحاكم مستقلة وعادلة على كلّ قطاعات الدولة وعملها فيما يتعلق بالاقتصاد والتعليم والحالة الاجتماعية التي يعيشها الشعب. وتنظر الأمم المتحدة إلى ذلك كنوع مهم من معايير الدولة العصرية الديمقراطية.

مع (الإسلام السياسي) بفرعيه (السني) و(الشيعي) لضرب الأمريكيين لكي يتحول إلى واقع شبيه بالصومال في عام 1993 عندما سحل الصوماليون 19 أمريكياً في شوارع (مقاديشو) وهذا تماماً ما فعله الإسلام السياسي السني في الفلوجة، وكذلك في مناطق الشيعة التي كان جيش المهدي المنحلّ مسيطراً عليها.

كما تغير الواقع النفسي للأمريكيين بعد أن سحبت قوى السيطرة الاقتصادية اليهودية غالباً وبالتعاون مع دول الخليج رؤوس الأموال الضخمة إلى الصين وإلى أوروبا بحيث أدّى ذلك إلى أزمة اقتصادية داخل أمريكا، وهذا ما عجّل في انفجار الصراع مع الحكومة، ومع الرئيس بوش على وجه الخصوص، بعد أن أظهروه بالشخصية النّزقة التي جُرّت جراً إلى حرب العراق، بسبب انفعالات شخصية وطموحات نزوية.

عندها قرّرت الولايات المتحدة الأمريكية أن تعطي ما يمكن لها إعطاؤه إلى العراقيين فيما يتعلّق بموضوع محكمة صدام مع أهمية عدم انفراطها بالشكل الذي يؤدي بهذه العصابة إلى الهرب وهي عصابة الخمسين الذين تمكنت منهم والتي تعتقد بأنهم على استعداد الآن للتعاون مع الشيطان في سبيل إثارة الوضع العالمي.

أسوء محاكم التأريخ: فبقيت الولايات المتحدة حارسة على هذه المجموعة من الخارج فقط، ولم تتدخل فيما يتعلّق بشكل المحكمة وسياقاتها القانونية العالمية، فخرجت المحكمة كأسوأ محكمة في التأريخ الحديث على الإطلاق، وهي تحاكم قتلة شعوبهم. فكلّ من جيء بهم من الحكّام، إلى المدّعي العام وقضاة التمييز إلى التوثيق كلّ

ذلك كان على قدر كبير من سوء التنفيذ والأداء، وهذا أمر في غاية الحزن والألم، فظهر المنتصر هو نفسه المجرم، بينما لم تتمكن الحكومة من أن تحصل على شاهد يوثق به وبشهادته كما هي أعراف الشهود في المحاكم العالمية، فلم تقدّم وثائق ولم تقدم أدلة ولم يتمّ نشر مرافعات على شكل المرافعات الدولية أو المحلية.

فقد تمّ تبديل القاضي عدّة مرات وكان أحدهم أو اثنان منهم يبدو مخبولاً، أو أقرب إلى المهرّج منه إلى القدرة القضائية(1). كما انسحب المحامي البحريني (العيسى) لأنه لم يتأكد من أن الشخصية التي تمّ اعتقالها هي صدام(2). وظهرت العصابة التي تولّت حكم العراق أكثر من 30 سنة وكأنها هي المنتصرة لما قامت به الحكومة العراقية من سوء أداء، ومن ضعف في التنفيذ وفي الفهم، ممّا جعل العالم يسخر من العراقيين وكأن الأمر هو أمر انتقام طائفي وليس أمر إبادة إنسانية، فقد قتلوا كلّ ما يمكن أن يعيد لمسيرة الضحايا الذين قدمهم العراق والذين يتجاوز عددهم المليوني إنسان على أكثر التقادير، وظهرت أكثر من 45 مقبرة جماعية. وكلّ ذلك لم تتمكن المحكمة البائسة التي اعتقد

(1) فقد كان البعض من الشهود الذين اختفوا خلف الستار والذين يمكن معرفتهم من أصواتهم وهم الذين يصولون ويجولون في المنتديات السياسية تراهم بارعين في تعليقاتهم ومقابلاتهم ولكنهم عندما اخفوا وجوههم خلف ستار المحكمة كان ذلك قدحاً كبيراً في مصداقية الشاهد.

(2) الوضع الأمني البحريني ومنذ مدة طويلة وقبل الأمير الحالي فيه الكثير من الشبه مع الوضع العراقي فيما يخص الجوانب الأمنية وجوانب اختفاء وتعذيب المعارضين ولذلك تجد في كلي القطرين مشتركات كثيرة.

العراقيون واعتقدت الأحزاب التي تتمسك بالحكم بأنها قادرة على التوصل إلى ما هو مأمول لها،أن تكون في سبيل إثبات الحق وإعادته إلى أهله.

والمهم في مجريات المحكمة، كان على أمريكا أن تنهي الشوط الطويل المملّ الذي بدأته، والذي لم تبتدئ به بعد، فمثلها كمثل من دخل مباريات كرة قدم بأحد عشر لاعب محترف وإذا بذلك العدد ينحسر إلى أثنين غير محترفين، في الوقت الذي تنازع الحكومة العراقية على أن تستلم ملف المحكمة بيدها لأنّ النزاع بين الأحزاب ولّد في نفوس الكثير منهم روح الاتهام لدى بعضهم للبعض الآخر بالعمالة لأمريكا.

كانت الولايات المتحدة تعتقد جازمة بأنّ الأداء العراقي في محاكمة صدام سوف ينتهي إلى مأساة مروّعة تنذر في أن يدخل البلد في صراع طائفي عنيف،فلم ترغب أمريكا في أن يتمّ قتل (عصابة الظل) بالطريقة التي قتل فيها (شاوشيسكو) ديكتاتور رومانيا (ت 1989) أو (معمر القذافي) أو غيرهم من الحكام الديكتاتوريين لأنها أولاً تحتاج إلى معلومات دقيقة عن دور كلّ منهم، كما إنه لمن المهم أن يدرك الشعب العراقي أهمية البحث عن ديمقراطية أصيلة من خلال مشاهدة عقليات ونفسيات القتلة الذين ساموا الشعب الذلّ لثلاثين سنة طوال، وهذا ما سوف يؤدّي بأبناء الشعب إلى نقطة الشعور بالذّنب الذي يفسّره المواطن غالباً في التوجّه إلى إعادة بناء النفس والبلد حتى وإن كانت المحكمة لا تمثّل ذات الشخصية الصدامية التي ماتت قبل سبعة سنوات.

فمن المهم جداً أن يكون هنالك شعور متأصّل لدى الشعوب في أنّ المجرم يجب أن لا ينجو من العقاب أينما كان، كما جرت محاكم (البوسنة والهرسك) في (هيك هولندا) وتمّ محاكمة (ميلويوديتش، وكراديتش، وميليس) الذين حكموا بأحكام تتوافق مع واقع العدالة والتي على أساسها تحولت لغة العدل إلى واقع على أرض البوسنة والتي من خلالها بنت ذاتها ونفسها اعتماداً على مفاهيم العدل الذي لمسه الجميع من القوميات الثلاث الرئيسية التي تكوّن الشعب وهم المسلمين، والصرب والكروات.

لقد رفضت الحكومة العراقية فكرة عقد المحكمة في أوروبا ظناً منها واعتماداً على إرث قديم وتفكير غير صائب بالخوف من أن يقول البعض بأن الحكومة أو الأحزاب العراقية هي أحزاب عميلة إلى أمريكا.

لم تحلّ المحكمة التي عقدت أياً من قضايا العدالة التي كانت من أهم النقاط التي كان على الحكومة العراقية حلها، وبقي المليونا شخص يعتمل في ذاته لهيب عودة العدالة يوماً ما إن كان هنا أو في السماء، وهكذا فكرة بالتّأكيد تدفع الإنسان إلى تبنّي طريق العنف وطريق المواجهة مع السلطة أو مع غيرها.

كان على أمريكا أن تهيئ الملف الصّعب جداً بعد أن كانت تعتقد بأن شريكها الضحية سيكون وطنياً يعيد الحق إلى أهله، ولكنّه وجده ليس كذلك. وجد أن العدالة في العرف البدوي قضية لا تؤخذ من خلال محكمة أو عدالة دوليّة متطورة، وإنما العدالة هي عدالة الثأر أو عدالة التعويض (امرأة، أو مال، أو منصب) أو عدالة استمرار القتل

لأنّ القتل هو فقط الذي يعطي للبدوي سمة الرهبة وسمة الخشية التي هي غاية ما يتمناه البدوي ذلك.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تخطّط كالتالي: لو أن الحكومة العراقية قبلت بنقل وقائع المحكمة إلى (لاهاي) أو (هيك)[1] أو أي منطقة أخرى في العالم الديمقراطي. وهو تقديم الشبيه (جاسم العلي) إلى المحكمة باعتباره صدام ذاته، ثمّ إظهار هويته الحقيقية بأنّه ليس هو صدام ثم الاستمرار في تأكيد هذا الأمر إلى النقطة التي تتخلى فيها المحكمة عن حقها في إصدار أحكام قضائية على شخص شبيه، بل ربما تحاكمه ضمن العنوان الثانوي من خلال المشاركة في أحداث العنف والقتل للشعب العراقي. ثم تقديم كلّ الآخرين الخمسين شخصية مع انتزاع اعترافات مهمة عن طريقة إدارة العراق وعلاقات دول العالم وخصوصاً فرنسا بما يتعلق بالصفقات وإهدار الثروات ثم الحروب التي خاضها العراق وجرائم الإبادات الجماعية للأكراد وللفيليين وللتركمان وللشيعة وغيرهم، وهذه ومن خلال السياقات القانونية تتحوّل إلى وثائق مشابهة لوثائق (الهولوكوست)، أو المذابح التي أقيمت في التأريخ الحديث ثم طلب التعويضات من الدول التي ساعدت صدام أو النظام العراقي في مذابح الشعب.

(1) المحكمة الدولية المسؤولة عن هذا النوع من الجرائم هي المحكمة المسماة (International Criminal Court) أو محكمة الجنايات الدولة التي صارت فاعلة قانونياً في عام 2002 بعد تأسيسها في عام 1998 استناداً على مقررات مؤتمر روما، والعراق هو إحدى سبع دول لم توقع على ميثاقها.
http://en.wikipedia.org/wiki/International_Criminal_Court.

ولكن برفض كلّ ذلك لم يكن أمام المحكمة التعيسة إلّا أن تتحول إلى مسرحية مفبركة سريعة لستر ما يمكن أن تستره بطريقة بدوية أقرب إلى المهزلة منها إلى العقل والقضاء.

إذن السيناريو الآخر للمحكمة هو حفظ ماء الوجه فقط لا غير، والخروج بنتيجة بعد انسحاب أمريكا من ورطة كبرى ورطت نفسها مع شريك بدوي لا يفهم من الحياة إلّا ما تعارفت عليه بدوية العربي المتأصلة بعد أن تتّقن اللعبة بشيء من الدّقة وكانت كالتالي:

1 - الشخصية الأولى: جاسم العلي وكان الأمريكيون قد أخذوه أو اعتقلوه أو سلّم نفسه لهم، ومن مميزاته هو الشبه الكبير بينه وبين صدام.

2 - ميخائيل رمضان هو لدى الأمريكان منذ زمن وهو مريض في طريقه إلى الموت مصاب بالسرطان ولا يقوى على المشي. تعاون مع الأمريكيين باعتباره قريب من حجم ووزن صدام ولا يتأخر عن تنفيذ الكثير ما يتطلبه الموقف ضمن تفاهم معين.

لقطات من السجن ومعلومات عن الخطة:

- صدام (الشبيه) كان في سجن يشرف عليه الأمريكيون فقط وليس العراقيون.
- زوجة صدام ساجدة خير الله طلفاح عندما سمح لها بوساطة الشيخ زايد أن تزوره في معتقله قالت صائحة: إنّه ليس زوجها صدام[1].

(1) المعروف أن ساجدة وصدام انفصلا عن بعضهما منذ مقتل أخيها عدنان خير الله =

- صدام (الشبيه) في السجن كان كلّ ما لديه من صفات مورفولوجية مثل اليد والصوت والطول ليس هو صدام الذي احتفظت المخابرات الأمريكية بتسجيل كامل عن كلّ من تلك الصفات.
- مكان اعتقال صدام (الشبيه) غير معروف لأنه قد يتعرّض لقصف كما حدث في الأيام الأولى، وهو مكان شبيه جداً بالسجون الأمريكية.
- كلّ الذين اتصلوا بصدام (الشبيه) عندما كان في السجن هم ممّن رآه لأول مرة بصورة مباشرة.
- تسلّم العراقيون صدام (الشبيه) يوم الإعدام في لحظة صعوده إلى منصة المشنقة وليس قبلها.
- لم ينزل أيّ من الموجودين إلى الأسفل بعدما هوى صدام (الشبيه) إلى الأسفل.
- سلّم الأمريكيون جثّة ملفوفة إلى الوفد العراقي لينقلوه إلى رئيس الوزراء. (في ديسمبر 2006,30 وبعده باسبوعين تم نبش قبره من قبل أقاربه و تم سرقة الجثة أو حرقها أو إعطائها إلى كلاب كانت ترافق المهاجمين من عائلة حسين كامل).
- كانت مشاهد الحبل وطوله والبحث عن حبل وما إلى ذلك أمر أقرب إلى المسرحية.
- الشخصيات التي كانت ملثمة في يوم الإعدام لم يكونوا من

= طلفاح وقد اتّهم صدام في مؤامرة مقتله، ويبدو أن حسين كامل كان هو الذي وضع القنبلة التي فجرت المروحية في الجوّ. وذلك في عام 1989 في الشهر الخامس.

العراقيين، وإنّما كانوا أمريكيين في سبيل دقّة التنفيذ. ولذلك لم تصدر منهم أي كلمة وكان الحوار بينهم يتمّ من خلال الإشارات.

- كان (جاسم العلي) واضحاً من ثقته بالصفقة فكان يتكلّم وكأنه ذاهب إلى نزهة، هذا غالباً ما يحدث مع الشخصيات التي تملك إيماناً بأمر أخروي مع تربية مستمرة في العلاقة مع عالم الموت.
- تكلم الشخص المعتقل (جاسم العلي) مع المحقق الامريكي (بيرو) (من أصل لبناني) وأخبره بأنه يخشى ان بعض (البدلاء له) ربما يقودون انقلاباً عليه، وأدرك ثانية بأن صدام حسين لا يمكن تقليده 100% [1].
- لم يطلب المعدوم ولم يوص مثلاً بمستقبل حزب البعث أو بما يجب له أن يخبر عائلته، وكأنه يعلم بأن الأمر هو مفبرك.
- يتطلب على الأقل 72 ساعة للحصول على نتيجة فحص الحامض النووي (DNA). ولم تعلن القوات الأمريكية ذلك على لسانها، وإنّما أعلن ذلك المرحوم السيد عبد العزيز الحكيم بعد 24 ساعة من تأريخ الإعدام، أمّا إذا أخذنا بعين الاعتبار فرق الزمن في وصول العينة إلى أمريكا فإنه يتطلب وقتاً أطول من ذلك.

(1) في مقابلة نشرت على الموقع التالي منقولاً عن كتاب (The terrorist Watch) للكاتب رونالد كيسلر، بأن ضابط المخابرات الامريكية الذي بقي مع صدام يستوجبه (بيرو) كان صدام (الشبيه) بين الفينة والأخرى تظهر فلتات على لسانه مثل قوله له (بأن الأشباه يريدون قيادة إنقلاب عليه) مع ان المحقق لم يسأله عن البدلاء أو الأشباه، ولكنه استدرك وبسرعة.. (ليس هنالك من يشبه صدام)...!!. أنظر:
http://www.grenc.com/sfiles/sadam/show_article.cfm?id=10149.

كيف تمّت العملية واحتمالاتها....

الاحتمال الأول وهو الأقوى....... إنّ الشخص الذي أدار مسرحية المحكمة هو جاسم العلي، انطلاقا من منظار إيديولوجي[1]، وقد قدّم له الأمريكيون عهداً بأن يحافظوا على حياته بعد أن كان محكوماً بالإعدام. وقد أدار هذا الرجل كلّ مجريات المحكمة من منطلق الإيمان بالموضوع، وكان هذا الشخص هو السجين الذي يتمتع بوضع خاص ليس من السهولة على السجناء الآخرين الوصول إليه أو معرفة مكانه أو ما إلى ذلك[2]. بل كان على

---

(1) إيديولوجية جاسم العلي تنطلق من ثلاث احتمالات: أولها هو مطابق لنظرية بأنه زراعة أمريكية وأن الأمريكيون هم من جاءوا به إلى العراق وأن صدام التقطه لكي يكون شبيهاً له، وثاني الاحتمالات هو أنه رجل يؤمن بما يجب أن يقوله من أجل استمرار المقاومة ضد الحكم العراقي، فهو يجب أن يؤدي الدور هذا من منطلق إيمانه بأهمية الصراع مع الأمريكيين. أو أنه شخص قد تمّ إعادة تركيبة عقليته بايدولوجيا وطبياً (إعادة هندسة تركيبة دماغه) لكي يحمل هذه الصفة بدون معرفة من يكون هو وما تأريخه، ولذلك فإنه كانت هنالك أمور كثيرة كان له أن يقولها في المحكمة وخصوصاً الحوادث التاريخية التي تتصل بتفاصيل الاتهام ولكنّه لم يقدّم في مرافعته أيا من المعلومات التي تتعلق بتأريخ حادثة، وإنما كلّ ما تحدث به هو فقط تهريج وهجوم. وعملية تركيبة العقلية الإنسانية أو هندستها ثانية علم متطور تقوم به المخابرات العالمية وقد مارسته المخابرات الإسرائيلية في جنوب لبنان بعد احتلالها له.

(2) لم يلتق أيّ من السجناء الآخرين المتهمين في المحكمة بصدام خلال فترة الاحتجاز =

قرب من هيئة خاصة أمريكية. وقد انتهت مهمته في يوم الإعدام (يوم 30 كانون الأول 2006) وقد أبعد إلى بلد ما في العالم بعد أن تمّ تبديل شكله أو تغيير معتقداته من خلال الوسائل النفسية والبيولوجية الدّقيقة.

وكان (جاسم العلي) هذا رابط الجأش، أوتي به لكي يمثل مسرحية وضع الحبل حول رقبته ثم ينزل إلى مكان كان مهيأً له في سيارة أو مخدة أو ما شابه، وهذا ما تمّ بالفعل[1].

والذي قدم إلى الحكومة العراقية هو (ميخائيل رمضان) ربما بعد موته أو ما شابه مع علامات الموت عليه ومسرحية الآثار على الرقبة غير الدّقيقة. وهو الذي سلّمت جثته إلى الحكومة العراقية والتي بدورها سلّمته إلى عائلته لدفنها في مقبرة العوجة، وبعدها بأسبوعين هوجم القبر من قبل أقارب حسين كامل الذي قتله صدام في عام 1996 وتم حرق الجثة أو كما يقال إعطائها إلى كلاب كانت مع المهاجمين

= كما صرّح بذلك طارق عزيز في المقابلة على قناة (العربية). أمّا سبب عدم البوح بأسماء وحقيقة المتهم جاسم العلي من قبل أتباعه فهو أنهم كانوا يعتقدون بأن المسرحية هي مسرحية إنقاذ بعد أن طمأنتهم القوات الأمريكية في أن الإعدام سوف لن يطالهم وأنه يجب القيام بهكذا مسرحية لأسباب دولية وأن الحكومة العراقية كانت على علم بذلك كما أسرّت القوات الأمريكية ذلك إلى بقية المعتقلين. ولذلك فإنهم وفي طريقة تصرفاتهم كانوا يختلفون عن سيكولوجية السجين العادي سواء أكان ذلك في الشرق أو في الغرب، فكانوا يتصرفون وكأن أمر الإفراج عنهم أو تهريبهم هو أمر محتم.

(1) كما جاء في الصور التي عرضها التلفزيون العراقي وظهر فيها الحبل الطويل الذي جيء به وهو أمر يثير أكثر من علامة استفهام، فحبل المقصلة هو حبل ثابت ليس هناك من حبال أخرى إلى جانبه. وعندما أظهروه تبين أنه حبل طويل مع انّه من المفترض أن يكون قصيراً لكي يتدلّى منه المعدوم، وليس العكس.

واختفت بعدها الجثة تماماً واختفت باختفائها الأدلة التي من الممكن الحصول عليها ي المستقبل، كما أن هنالك رواية بأن شيخ عشائر البو ناصر قد تمكن من نقل رفات صدام إلى منطقة مجهولة خوفا من عمليات الانتقام تلك.

الاحتمال الثاني: هو أنّ جاسم العلي كان قد مات في القصف الأمريكي وأنّ بدلاء صدام الآخرين هم الذين أدّوا الدّور، وأن الذي مات هو ميخائيل رمضان[1].

الاحتمال الثالث: ليس هذا ولا ذاك وإنما أمر لا نعلمه، ويضاف إلى أسرار الحياة التي بقيت بدون حلّ، كما هو موضوع مقتل (كنيدي) ومقتل (راسبوتين) وغيرهم.

آثار كلّ ما تم وبقايا الأدلة هي التالي:

1. إنّ صدام مدفون في مقبرة (تكريت) الجديدة،وهي المقبرة التي كتب عليها اسم أبيه.

2. إنّ جثة صدام الأصلية بعد موته في عام 1999 تمّ انتشالها بعملية عسكرية بعد ثلاثة أيام من دخول الأمريكيين إلى العراق، أو قبلها.

3. الجثة المعدومة (ميخائيل رمضان) تمّ انتشالها بعد الدفن وهي

---

(1) ليس من السهولة أن يتم تحديد الصفات المورفولوجية لكل شبيه من الأشباه بل كلّ ما يمكن عمله هو تحديد الصفات الخاصة بصدام ثم مقارنة الآخرين به، وهو الشيء الذي بات من الصعب على المتابع معرفة أي شبيه هو الذي يملك كذا صيوان أذن،و أيهم يملك كذا نوع من الفك.

إما أحرقت من قبل أقارب صدام وهو الاحتمال الأول أو أن رئيس عشائر تكريت نقلها إلى مكان آخر وهو أمر غير مؤكد بل ضعيف.

4. ليس هنالك من يمتلك أدلة الحامض النووي إلا إسرائيل التي تمتلك النسخة الأصلية ولكنها لا تملك المطابقة، وربما تمتلكها.

5. عائلة صدام لا تمتلك الخارطة الوراثية للـ (DNA) لا قبلاً ولا فيما بعد.

6. ليس هنالك من يمتلك الخارطة الوراثية لأيّ من بدلاء صدام جاسم العلي أو ميخائيل رمضان.

7. ليس هنالك من احتمالات المطابقة مع جثث أب أو أم صدام باعتبار أن جثثهم لا يعرف مصيرها، وكذلك يتطلب الأمر أن تمتلك تكنولوجيا المطابقة النسخة الأصلية للحامض النووي لصدام.

8. الحكومة العراقية الحالية لا تمتلك أي من المعلومات الجينية لا لصدام ولا لأشباهه ولا لمن تمّ إعدامه ولا لأي شخصية مهمة في الدولة.

9. عندما أعلن عن موت ابني صدام، عدي وقصي، في تموز 2003 تمّ التأكّد من خلال عملية المطابقة التي تمّت بعد 72 ساعة أي بعد مقتلهما بذلك الوقت، بل كما يقول بريمر في مذكراته بأن التأكيد إلى الشعب العراقي جاء من خلال نشر الصور (المقززة) لجثتيهما. ويبدو أن فحص (DNA) ليس موجوداً وإلا لكان قد ذكره في مذكراته[1].

(1) عام قضيته ص 322. المصدر السابق.

أسئلة وأجوبة

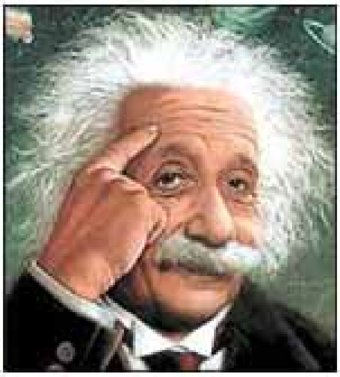

اعتادت أساليب نقل العلم والفكرة في الجامعات، أو على صفحات الانترنيت في التطرّق إلى أفكار البحث التي تبدو صعبة أو تلك التي تقدم إلى شرائح اجتماعية متنوّعة الثقافة والمعرفة إلى وضع فصل يسمّى (Q&A)، يحاول من خلالها المبادرة إلى طرح بعض الإشكالات التي تترسّخ في عقل القارئ أو المستمع، والتي من الممكن أن تكون عونا له في تجنّب الفهم الخاطئ أو عدم الفهم.

وهنا أحبّ أن أضيف هذا الفصل إلى هذا الكتاب الذي أعتقد بأنّه يحوي الكثير من الثغرات التي وردت في موضع معقّد وشائك، فهو بالإضافة إلى أنه موضع اجتماعي فهو سياسي وعلمي وفكري كما هي علاقته في الكثير من العلوم التي تتطلب من القارئ الإلمام بها، وهنا تأتي درجة الغموض التي نحاول أن نظهرها لها من خلال هذا الفصل:

س: وهل هنالك من البشر من له ذلك الحماس أن يفني ملايين من الناس في سبيل تحقيق هدف ذاتي..؟

ج: إنّها (فطرة) خلق الإنسان عليها مع اختلافها في النسب، وشواهد التاريخ تظهر لنا شخصيات كثيرة مثل شخصية صدام موجودة في محيطنا وفي عملنا وفي تأريخنا، فالبعض منهم سمحت لهم الفرصة بذلك، وبعضهم لم تسمح لهم الظروف في أن يمتلكون الوسائل لسلطة مثل صدام.

س: هل لطبيعة الولادة وغموض النسب من تأثير على تكوين الإنسان؟

ج: لازال الأمر في موضع بحث من قبل علماء الطبّ والبيولوجيا، ولحدّ الآن لم يتوصّل الكثير من العلماء إلى نوع الارتباط، وأعتقد حتّى لو توصّلوا إليه فإنّه لمن الصعب أن يبينوه إلى الناس باعتباره أمراً فيه الكثير من المحاذير، ولكنّ الشواهد التأريخية التي وصلتنا في التراث تنبئنا بأنّ اختلاط النسب يخلق شخصيات خطرة على المجتمع تحمل صفات عدوانية، فالكثير من سفّاحي التأريخ عندما يستقرئ المرء ظروف ولاداتهم يجدها غامضة، مع أنّ الغربيين لا يعترفون بما نقوله نحن المسلمون ولكنهم بدأوا الآن وبعد ثورة الدين يرون في النسل عنصر مهم للجانب الخلقي والسلوكي.

س: وهل يعقل في أن يتمكن صدام من خداع 30 مليون إنسان عراقي في عملية خلق أشباه له. . ؟

ج: بالتأكيد، فالشعوب من السّهولة للحاكم وخصوصاً المتسلّط أن يغير من تفكير الشعب وأمامنا الكثير من التجارب مثل تجربة فرعون في تأليهه من قبل الناس، أو إقناعهم بأفكار تصطدم مع التفكير الإنساني. ونتذكر جيداً كيف تمكّن الحكام المسيحيون في أن يجعلوا 2 مليار إنسان أن يعتقدوا بأنّ المسيح قتل أو صلب مع أنّ ذلك لم يحصل كما ورد في القرآن الكريم.

س: وهل لأمريكا قدرة على تمرير مسرحية المحكمة. . . ؟

ج: الجواب هنا بالإيجاب، بينما قد لا يكون ذلك في شعوب

أخرى، وهذا تابع إلى قضايا وعوامل كثيرة أهمها درجة تمرير المعلومة وتحليلها، ومنها درجة وعي الشعب، ومنها الحرية التي يتمتع بها الفرد. . كلّ ذلك عوامل مهمة في طريق تمرير مسرحية المحكمة. ففي داخل أمريكا من المستحيل أن تتمكّن الحكومة من أن تنفّذ أبسط عملية خداع على الشعب لأنّ الشعب مرتبط بأجهزة معلومات ضخمة أهمها هي الصحافة الواعية والتكنولوجيا.

س: وهل أنّ أمريكا هي بطلة إخراج المسرحية. . ؟

ج: بالتّأكيد لا . . . أمريكا ما هي إلّا مخرج لسيناريو كانت السلطة آنذاك مهيأة لتقبل فكرتها بطريقة تبدو للآخرين بأنّه سيناريو حقيقي.

س: وما دور ال (CIA) بالموضوع وهل هي على علم بخفايا المحكمة. . ؟

ج: إنّ وكالة المخابرات الأمريكية هي عبارة عن موظّف لدى الرئيس تقوم بما يطلب منها أن تقوم به. في هذه الحالة ليس لها من سلطة في فضح موضوع المحكمة باعتبار أنّ المعلومات التي يمتلكها عضو المخابرات الأمريكية ليس ملكاً له حتى لو أنه ترك العمل في المخابرات.

س: إذن من بيده مفاتيح مسرحية المحكمة وأبطالها. . ؟

ج: ليس لنا علم بذلك إلى الآن.

س: الأشخاص الذين كانوا يتعاملون مع صدام وكتبوا كتباً فيه كما فعل د. علاء بشير فلماذا لم يقولوا الحقيقة، في أنّ الذي شنق ليس هو صدام. . . . ؟

ج: لا يعلمون من هو صدام الحقيقي ومن هو غير الحقيقي، فالشيء الوحيد الذي يمكنهم من تمييز كلّ أولئك الأشخاص هو بطريقة الحامض النووي.

س: ما هي دوافع أمريكا في المجازفة على أمر خطير كهذا. . . . لماذا لم تسمح لمقتل صدام أن يتم كما حدث مع شاوشيسكو أو القذافي. . ؟ لماذا اهتمت بموضوع تقديم صدام إلى المحكمة في ظرف حرج وفي غياب معلومات عن شخصيته. . ؟.

ج: كانت تعتقد أمريكا بأن تقديم صدام إلى المحكمة سوف يسقط الأنظمة العربية وخصوصا السعودية، وكانت تعتقد بأنّ العراقيين (الحكومة) ستتعاون معهم في نقل وقائع المحكمة إلى (هيك) وهنالك كلّ شيء يتمّ من خلال دليل علمي وسيظهر بصورة جلية تفاصيل عملية الأشباه وكذلك كلّ ما يتعلق بالمسرحية التي رسمها صدام على مدى أكثر من 30 سنة وهذا ما سوف يفتح باباً واسعاً للشعوب العربية للتوجّه نحو قادتها في معرفة تفاصيل الحكم لئلا يقعوا في نفس مطب العراق.

س: وكيف واصل شبيه صدام (العلي) تعاونه مع المحكمة بتلك الصورة من الجدية. . ؟

ج: الحياة هي أعزّ شيء لدى الإنسان إذا خيّر بين الموت وبين الحياة. في ذات الوقت هنالك رأي سيكولوجي يقول بأنّ العلي قد تقمّص شخصية صدام بصورة كاملة خلال أكثر من خمس سنوات فصارت شخصيته هي شخصية صدام، كما هي القصة المروية من الأدب الروسي التي تقول: كان هنالك متباريان في إطلاق النّار

أحدهما حاذق والآخر هاوي وكان على المنتصر أن يكون عمدة المدينة، وفي يوم المباريات تمكّن الهاوي من قتل غريمة الحاذق بعد أن انحشرت الرصاصة في مسدس الأخير، عندها جاء سكنة المدينة لتقديم عمدتها إليه ولكنّه لم يستوعب الأمر بل هام على وجهه وتغيرت شخصيته إلى شخصية أخرى ضانا في نفسه بأنه قد مات وانه في عالم الآخرة باعتبار أن البطل الآخر لا بدّ له أن يقتله.

س: ألم تفحص الحكومة العراقية جثة المعدوم وتعرضه إلى الفحص الوراثي. . ؟

ج: كما ذكرت إنّ الحكومة العراقية كانت تبحث عمّن يقدّم لها حلاً لمشاكلها ومن جملتها هو إعدام صدام، كما أنّ العراق لا يملك تكنولوجيا لتشخيص الحامض النووي وحتى لو كان ذلك فإن الحكومة العراقية ليست على استعداد لتقبّل عكس توقعاتنا وتمنياتها حتى وإن كان خاطئاً.

س: وما هو موقف بقية دول العالم الأخرى وهل من المعقول أنهم لم يتمكّنوا من أن يدركوا اللعبة. . . ؟

ج: فات دول العالم الأخرى أمورا كثيرة جداً لا تعدّ ولا تحصى منها: صدام رجل عدل وليس هنالك سجون في العراق ولحين حرب الخليج، وشيعة العراق ليسوا عرباً، بل إنّهم شعب إرهابي، والسود الإفريقيون يجب أن يبقوا عبيدا لأنّهم متخلّفون، والسعودية نموذج مميز لحكومة إسلامية راقية. . . الخ. تلك الدول لا تشغل نفسها كثيرا في أمور تفصيلية ما دامت الأمور لا تهمها كثيراً. وحتى لو عرفت ذلك فليس من مصلحتها كشف هذه الأمور.

س: هل يعقل لو علم الشعب العراقي بموت صدام فإنه سوف لن يثور. . ؟

ج: إنّ ثورات الشّعوب مرهونة بعوامل لن تولد الثورة بدون توفّر تلك العوامل، والعراق ليس بلداً مؤهلاً لثورة انتفاضات شعبية، نعم من الممكن أن تكون ثورات مسلحة أو قتال طائفي، ولكن من المستبعد جدا أن يقود الشعب العراقي ثورة شعبية على غرار الثورة الإسلامية في إيران أو الثورة المصرية، لسبب بسيط وهو بدوية الشعب العراقي.

س: هل أن صدام كان يملك أسلحة كيمياوية ونووية. . ؟ وأين اختفت إذن. . ؟

ج: بالتأكيد وليس هنالك من شكّ في ذلك. ونعتقد أن اختفاءها تمّ بطريقة تعاون بها الكثير من الأطراف الدولية وخصوصا الدولتان المهمتان للعراق. فقد اختفت شحنات نووية كثيرة في العالم ولا يعرف مصيرها حتّى الآن[1]، كما اختفت كذلك السفينة الروسية التي تحمل شحنة نووية، وكذلك حوادث كثيرة لازالت وإلى اليوم في طيّ الكتمان.

س: لماذا لم ينتبه صدام إلى الصّفات المورفولوجية لأشباهه لمعالجتها بطريقة وأخرى. . . ؟

ج: لا يعلم صدام أو القيّمين على البرنامج من الطاقم العراقي

(1) جريدة الحياة، معدات نووية «اختفت» في طريقها إلى ليبيا وصلت إلى «دولة» وليس «جماعة إرهابية» 24/ 4/ 2005.

السياسي هذا الأمر، وحتى لو أدركه أحد منهم فهو يعتقد بغباء الآخرين في اكتشافه أو التصديق به، كما أن شخصية صدام من النوع التي تعشق تحدّي العالم بما يمتلكه سواء كان ذلك من ناحية أشباهه أو جرائمه. كما هي قصة سماحه للصحفيين في دخول مذبحة حلبجة لكي يرى العالم بأنه قادر على إبادة الشعوب.

س: هل أعضاء المحكمة العراقية الذين حاكموا صدام كانوا على علم بالموضوع. . .؟

ج: ليس هنالك من يعرف بالأمر لأنهم ليسوا على إطّلاع على وجود بديل له، وكذلك الكلام حول البديل هو موضوع يراد به تقوية صدام وتضعيف المعارضة. . كما في نفس الوقت فإن كلّ الذين أداروا المحكمة هم من رأى صدام لأول مرة، فكلّ كلام عن الموضوع هذا قبلا أو الآن أو في المستقبل يعتبر من الأمور التي لا يريد المرء تصديقها لأنها ذات تبعات كبيرة.

س: وعائلته يعني زوجتيه ومن كانت لهن علاقة به. .؟

ج: ساجدة رأته من بعيد وقالت بأنه ليس هو، فهي كانت قد انفصلت عنه منذ مقتل أخيها 1989. أمّا سميرة الشابندر فإنها كانت بعيدة أكثر من ثلاث سنوات قبل موت صدام، كما أن أخبار الأخريات لو صحت الرواية كاليونانية كما خرجت على التلفزيون الروسي فقد ذكرت بأن شخصاً كان يأتيها ذو عضلات في حدود نهاية التسعينيات وإنها اتّصلت بعبد حمود فقال لها اقبليه.

س: لماذا لم تعلن أمريكا منذ البداية في أن الحاكم هو ليس صداماً. . . بل هو شبيهه. .؟

ج: لو أعلنت ذلك سوف لن يكون لها من مبرّر لغزو البلد.

س: ولماذا لم تعلن إيران أو إسرائيل عن ذلك. . باعتبارهما تعرفان ذلك. . . ؟

ج: ليس هنالك من مصلحة لهما فإيران كانت غير مصدّقة لعملية الغزو الواسعة ولو سمحت به فإن فعاليته هو فقط لمنع الغزو الأمريكي وإبقاء عراق ضعيف، . . وإسرائيل كذلك، فقد حاولت كلتاهما ذلك لكن لم تتمكنا من إيقاف الغزو ولذلك تركا هذا الأمر لأنه لا يخدم مصلحتهما فيما بعد عام 2003.

س: هل من المعقول في أن تصرف أمريكا 6 ترليون دولار على غزو بلد مع رئيس ميت. . ؟

ج: وهل يعقل بأنها هي ذات الدولة تستند على معلومات مخابراتية تافهة جداً لصرف تلك الأموال. . ؟ فكلّ الجهات التشريعية والمخابراتية الأمريكية وكلّ دول العالم أكدت على ضعف المعلومة المخابراتية التي استندت عليها أمريكا في شن الحرب. إذن هنالك شيء أبعد كثيراً من المال ومن شخصية صدام أو أشباهه ذلك هو كما ذكرت. . . دوافع ثيولوجية أخلاقية فقط.

س: وهل اكتشفت الحكومة العراقية الحالية بعد مضي هذه الفترة من حادثة الإعدام بأن المعدوم لم يكن صداماً. . . . ؟.

ج: لا تريد أن تفكر به ولا تمتلك الوسائل التي تقودها إلى خطأ رأيها، ففي كلتي الحالتين ليس هنالك من منفعة لها، من الممكن أن يفتح الملف ثانية إذا جاءت حكومة عراقية غير محاصصاتية. في الوقت الذي تغيب الوثيقة الجينية وانعدامها كلياً.

س: في حالات الإعدام يجب مرافقة طبيب إلى الشخص المعدوم إلى لحظة الموت البيولوجي. . هل حدث ذلك مع المعدوم صدام بعدما نزل من منصة الإعدام إلى الهاوية. .؟

ج: كان الطبيب من المفترض هو د. موفق الربيعي مستشار الأمن القومي وهو طبيب بالأصل وكان هنالك لحظة الإعدام ولكنّه لم يشاهد الجثمان بعد الإعدام ولم يفحصه ويتعرف عليه لكي يثبت وفاته كما هي أعراف انتقال كلّ إنسان إلى العالم الآخر.

س: هنالك الآن أكثر من خطاب بصوت صدام يتمّ عرضه على مواقع الانترنيت، وكذلك مقابلة حديثة تلفونية مع حسن العلوي بصوت صدام. . كيف يمكن تفسير ذلك. .؟

ج: نعم هنالك أشخاص أحدهم عراقي ولعل اسمه حاتم هو الذي يقود هذا الأمر إمّا جزءاً من المعارضة للنظام الحالي أو قضية جذب انتباه.

س: هل موضوع موت صدام في عام 1999 فرضية أم إنّه حقيقة ثابتة. .؟

ج: إنّ موته أمر مؤكّد بدلالة عدم خروجه ثانية إلى العلن. . . أمّا بالضبط هل مات في ذلك العام أم قبله أم بعده فهو أمر لا يمكننا أن نؤكّده.

س: وهل فرضية ازدواجية الأشخاص في المحكمة قضية مفروغ منها. .؟ أم أنها تبقى فرضية قابلة للنّقض. .؟

ج: ليس هنالك ما يناقض ذلك ولم يقدم أيّ من الباحثين أو

السياسيين ما يدحض ذلك الرأي، كما أن القرائن البيولوجية والطبية تؤكد ذلك باعتبار أن العلم هو أمر قطعي ثابت لا يمكن دحضه خصوصا جانب البيولوجيا التي هي عبارة عن حقائق.

س: أهم صفة من صفات الشبيه. . .؟

ج: أولا إن صدام الحقيقي لا يتواجد في تجمع جماهيري منذ ربما بداية الحرب العراقية الإيرانية، كما أن الطريقة التي يتصرف بها الأتباع معه تختلف عن طريقة التصرف مع شخصية صدام الأصلية ويمكن ملاحظة ذلك بدقّة من قبل المطلع على الحالتين.

س: كيف يعقل في أن بوش سواء الأب أو الابن يتعاطف مع العراقيين ومآسيهم في الوقت الذي ساعد الأب صدام في سحق انتفاضة 1991. . . . .؟

ج: كثير من السياسيين يحصل تبدل في قناعاته تجاه قضية ما، خصوصا بالنسبة إلى الأمريكيين الذين يبنون ثوابتهم على وثائق. فالنظرة إلى شيعة العراق (كتجمع) كان يُنظر إليه من خلال النظرة السعودية التي بنتها خلال أكثر من خمسين سنة في عقلية الأمريكيين. ويبدو أن بوش الابن قد اطّلع على التأريخ ومن خلال الباحثين والمستشارين فاستطاع أن يرى الموضوع بنظرة أخرى.

س: ماذا كان على الحكومة العراقية أن تفعله بعد موت صدام لتجب الحرب. .؟

ج: كان عليها أن تعلن موت صدام رسمياً وتطلب من الأمم المتحدة التعاون مع العراق فيما يخصّ ما قرّره صدام في حياته.

س: وهل تتمكّن أمريكا من تغيير الواقع السعودي من دولة عشائرية طائفية ديكتاتورية إلى دولة ديمقراطية كثمن من أثمان تحرير العراق. . ؟

ج: السعودية اليوم تعيش في محنة كبرى خصوصاً بعد الاتفاق الأمريكي الإيراني الذي عقد في نوفمبر من عام 2013 وهو الاتفاق الذي يدل من سياقاته أنّ الأمريكيين بدأوا يشعرون بخطأ تبنيهم للسياسة السعودية فيما يتعلق بالشرق الأوسط. في الوقت الذي تخلخل الوضع الاجتماعي والاقتصادي السعودي بشكل كبير باتجاه التحديث. ولكن يبدو أنّ كلّ ذلك سوف لن يؤثر على حتمية نهاية الدول العشائرية الدينية.

س: إذا كانت أمريكا قد استنقذت عينة الحامض النووي في عام 1999 وكذلك في عام 2003 مايو وهي على علم بموت صدام، فلماذا قدمت الشخص الذي قبض عليه في المزرعة إلى المحكمة مع التأكيد بأنه ليس هو. . . ؟

ج: أمريكا عندما تدخل بلد وخصوصاً في مثل قضية احتلال العراق عليها أن تستعمل قوة القانون لإثبات شرعيتها في الاحتلال كما هي محاكم نورمبورغ والبوسنة وكوسوفو وهي سنة تلتزم بها أمريكا وتعتبرها شعار واسع من شعارات ديمقراطيتها، وهنا لم يكن أمامها إلّا أن تقوم بنفس السيناريو في الوقت الذي ليس هنالك من إشاعة أو معلومة لدى العراقيين من أن صدام قد مات قبل خمس سنوات، بل يعتقد الكل أنه حي وأنه يتوجب القبض عليه وتقديمه إلى المحكمة.

س: من شجع أمريكا على الاستمرار في موضوع الملاحقة لشخص صدام مع أن المخابرات كانت على علم بموته. . . بعد سقوط بغداد. .؟

ج: كلّ القادة العراقيون كانوا يرفضون تقبل فكرة موت صدام ويرفضونها بشكل قاطع بل كانوا يتّهمون أمريكا بأنها هي التي خططت لإشاعة الخبر لكي يبقى النظام. فلم يصدر من أي من فصائل المقاومة العراقية ما يشير أو ينبئ بذلك أو قريب منه، كذلك لم يصدر من الدول المجاورة التي هي على خصام مع العراق ما يشير لذلك سواء الكويت أو إيران أو السعودية. فأمريكا مع علمها بحقيقة الأمر، كانت ترمي جدياً إلى التخلص من نظام (وريث) صدام. فالأمر هو ذاته، المهم تغيير النظام، ولكن موضوع المحكمة وتفاصيلها لم تكن القوات الأمريكية هي التي تمتلك كلّ زمام الموضوع بل كان القادمون الجدد هم من وضعها بهذه الصورة المهلهلة.

س: هل ستظهر الصورة على حقيقتها فيما بعد. .؟

ج: بالتأكيد هنالك أمامنا ربما ربع قرن لكي تتبين القصة بشكلها الواقعي على شرط أن يقوم بجانب البحث شخصية أو دولة مستفيدة، وليس اعتباطاً.

س: هل هنالك من أشار إلى نفس الموضوع في أشباه صدام كما هو كتابنا. .؟

ج: معظم من كتب في الموضوع كما هو (الدغيدي) و(حنان يموت) وغيرهم كانوا يشيرون إلى أن صدام حي ولازال حياً وإلى

اللحظة التي نكتب بها كتابنا، فلم يبحثوا في أصل الموضوع ومتعلقاته ولذلك رفضت نظريتهم، أمّا بحثنا فهو تابع الأمر بطريقته الاستقرائية.

س: هل هنالك من الشخصيات الأمريكية المعروفة من اقتنع بنظرية موت صدام في عام 1999. . . .؟

ج: نعم، معظم من استقال من منصبه في خلال السنين الثلاث الأولى من سقوط بغداد، هؤلاء كانوا على علم مشوش، ولم تكن استقالتهم بالتأكيد لهذا الأمر ولكنهم كانوا يتوقعون انهيار المشروع فبادروا مقدماً إلى الاستقالة.

المصادر

المصادر

الكتب العربية

1 - اخرج منها ياملعون، رواية لكاتبها.

2 - الازري، عبد الكريم: تاريخ في ذكريات العراق 1930-1958، لندن، طبعة خاصة 1991.

3 - الدغيدي، أنيس: الحياة السرية لصدام حسين من القصور إلى الجحور، دار الكتاب العربي، القاهرة 2004.

4 - الدليمي، خليل: صدام حسين من الزنزانة الأمريكية: هذا ما حدث!!، شركة المنبر، الخرطوم، 2009.

5 - الصدر، محمد باقر: خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، سلسلة الإسلام يقود الحياة، دار التعارف بيروت 1990.

6 - العلوي، حسن: الشيعة والدولة القومية، مطبوعات CEDI، فرنسا 1989.

7 - العلوي، هادي: من تأريخ التعذيب في الإسلام، دار المدى. 2004.

8 - العلي، صلاح عمر: أسرار صعود صدام إلى السلطة. مكتبة الحضارة بيروت. 2002.

9 - القلقشندي، أحمد بن علي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار فراج، عالم الكتب، بيروت. 1985.

10 - القمني، السيد: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، الناشر: مدبولي الصغير، القاهرة، بدون سنة الطبع.

11 - المظفر، عبد الصاحب: مدينة النجف: عبقرية المعاني وقدسية المكان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 2011.

12 - باقر، فرحان: حكيم الحكام، من قاسم إلى صدام، دار المدى بغداد 2008.

13 - بريمر، بول: عام قضية في العراق، دار الكتاب العربي 2006.

14 - بشير، علاء: كنت طبيباً للرئيس، دار الشروق، القاهرة 2004.

15 - بوش، جورج دبليو: مذكرات جورج دبليو بوش، قرارات مصيرية. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2012.

16 - تنينت، جورج: في قلب العاصفة، دار الكتاب العربي، بيروت 2007.

17 - دي توكفيل، الكسيس: الديمقراطية في أمريكا، عالم الكتب القاهرة 2004.

18 - رجال ومدينة، رواية لكاتبها.

19 - رمضان، ميخائيل: شبيه صدام، قصة الرجل الذي بقي 19 عام شبيه لصدام، بلا سنة أو مكان للطبع.

20 - زبيبة والملك، رواية لكاتبها.

21 - صالح، هاشم: الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التأريخ، دار الساقي بيروت 2013.

22 - عبد المجيد، سامان: سنوات صدام، بدون سنة ومكان الطبع.

23 - علي، عثمان: الحركة الكردية المعاصرة، التفسير للنشر والإعلان، اربيل 2011.

24 - كوبلاند، مايلز: لعبة الامم، ترجمة مروان خير، طبع في انترناشيونال سنتر بيروت 1969.

25 - كوكلان: صدام الحياة السرية، دار ماكميلان للنشر، 1980.

26 - لطيف، يحيى: كنت إبناً للرئيس، نوركا للنشر، النمسا، 1994.

27 - لويس، برنارد: أين الخطأ، التأثير الغربي واستجابة المسلمين، ترجمة محمد عناني، اوكسفورد بريس 2002، لندن.

28 - لويس، برنارد: لغة السياسة في الإسلام، دار قرطبة، بيروت لبنان 1993.

29 - نقاش، إسحق: الوصول إلى السلطة، دار قرطبة بغداد، 2012.

30 - هيكل، محمد حسنين: خريف الغضب، 1983.

31 - يموت، جنان وفقيه شادي: الرجل الذي اتخذ عشرين شبيهاً. دار العلم بيروت 2003.

التقارير والصحف

1 - تقرير وزارة الهجرة العراقية لسنة 2009.

2 - جريدة الأهرام المسائي 19 فبراير 2013. الثلاثاء.

3 - جريدة الحياة، معدات نووية «اختفت» في طريقها إلى ليبيا وصلت إلى «دولة» وليس «جماعة إرهابية» 24/ 4/ 2005.

4 - جريدة الشرق الأوسط الثلاثاء يونيو 2002 العدد 8589.

5 - جريدة الشرق الأوسط، عدد 8438 في 4 يناير 2002.

6 - جريدة الفجر الجديد العدد1561، 3 نيسان 1967، بغداد، العراق.

7 - مجلة فورن بوليسي عدد 26 أغسطس 2013.

المصادر الأجنبية

الكتب الأجنبية

1 - Joel Colton, R. R. Palmer (1995). A History of the Modern World. McU-Graw Hill, Inc. pp. 428-430. ISBN 0-07040826-2.

2 - Mark S. Nixon, Imed Bouchrika, Banafshe Arbab-Zavar and John N. Carter. On use of Biometrics in Forensics: Gair and Ear: School of Electronics and Computer Science, University of Southampton Southampton. web: http://www.isis.ecs.soton.ac.uk.

3 - Pinkus, Oscar (2005). The War Aims and Strategies of Adolf Hitler. Jefferson, NC: McFarland & Company.

4 - Rerkchai Fooprateepsiri and Werasak Kurutach. Ear Based Personal Identification Approach Forensic Science Tasks. Chiang Mai J. Sci. 2011; 38(2): 166-175. www.science.cmu.ac.th/journal-science/josci.html.

5 - The Kennedy Half-Century: The Presidency, Assassination and Lasting Legacy of John F. Kennedy.

6 - Vali, Nasr: The Shia Revival: How Conflicts Within Islam will Shape the Future, (W.W. Norton & Company, 2006).

7 - Wilhelm Reich: The Mass Psychology of Fascism. Wilhelm Reich, Orgone Institute Press. New York 1946.

البحوث

1 - Partition of Palestine: A Lesson in Pressure Politics, The Institute of Arab American Affairs, Pamphlet No. &, 1948.

2 - Kornblut E. Ann: The Bushes and the Jews. Explaining the president's philo-Semitism. Slate: APRIL 17 2002.

3 - Aging changes in hair and nails.at MedLine Pluse. (http://www.nlm.nih.gov/medlineplus/ency/article/004005.htm).

4 - Iraqi Commander Swears He Saw US Evacuate Saddam. Bill Dash, 8-17-03. (http://www.rense.com/general/40saw.htm).

المراجع

1 - New Bible Dictionary, second edition. Tyndale House Publishers, Inc., Wheaton, IL, USA.

الصحف والمجلات

1 - The Guardian, Friday 7 October 2005. Ewen MacAskill.

المواقع الالكترونية

1. http://ar.wikipedia.org/wiki/ الكنيسة_الاسقفية_الامريكية
2. http://ar.wikipedia.org/wiki/ ميثودية
3. http://arabic.rt.com/prg/telecast/658078 صوت روسيا
4. http://en.wikipedia.org/wiki/1991_uprisings_in_Iraq. الانتفاضة الشعبانية
5. http://en.wikipedia.org/wiki/Al-Anfal_Campaign. الانفال
6. http://en.wikipedia.org/wiki/Barbara_Fast باربرا فاست
7. http://en.wikipedia.org/wiki/Burundian_Genocide. بوروندي
8. http://en.wikipedia.org/wiki/Bush_family عائلة بوش
9. http://en.wikipedia.org/wiki/Colin_Powell. كولن باولز
10. http://en.wikipedia.org/wiki/David_Kay. ديفيد كاي
11. http://en.wikipedia.org/wiki/Demographics_of_Iraq عدد نفوس الشيعة في العراق
12. http://en.wikipedia.org/wiki/Dick_Cheney. ديك تشيني
13. http://en.wikipedia.org/wiki/Donald_Rumsfeld. üÒÌúü îúÍÆÃõü
14. http://en.wikipedia.org/wiki/Feyli_Kurds. الكرد الفيلية
15. http://en.wikipedia.org/wiki/Financial_cost_of_the_Iraq_War òÃè حرب العراق
16. http://en.wikipedia.org/wiki/Fouad_Ajami. فؤاد عجمية
17. http://en.wikipedia.org/wiki/Gary_Hart كيري هارت
18. http://en.wikipedia.org/wiki/George_H._W._Bush. بوش الاب
19. http://en.wikipedia.org/wiki/German_Reich الرايخ الألماني
20. http://en.wikipedia.org/wiki/Grigori_Rasputin. مادة راسبوتين

21.http://en.wikipedia.org/wiki/Human_rights_in_Saddam_Hussein%27s_Iraq. الأهوار
22. http://en.wikipedia.org/wiki/International_Criminal_Court. المحكمة الدولية
23. http://en.wikipedia.org/wiki/James_Baker. جيمس بيكر
24. http://en.wikipedia.org/wiki/Joe_R._Reeder جو رديز سكرتير وزير الدفاع
25. http://en.wikipedia.org/wiki/John_Abizaid. جون ابي زيد
26. http://en.wikipedia.org/wiki/John_F._Kennedy مقتل كندي
27. http://en.wikipedia.org/wiki/Joseph_Stalin ستالين ووصوله إلى السلطة
28. http://en.wikipedia.org/wiki/Kosovo. مذابح كوسوفو
29. http://en.wikipedia.org/wiki/Mordechai_Vanunu. فعنونو
30. http://en.wikipedia.org/wiki/Paul_Wolfowitz. بول وولفوتز
31. http://en.wikipedia.org/wiki/Radovan_Karad%C5%BEi%C4%87. كاراديتش
32. http://en.wikipedia.org/wiki/Ricardo_Sanchez. ريكاردو سانشيز
33. http://en.wikipedia.org/wiki/Richard_Perle. ريتشارد بيرل
34. http://en.wikipedia.org/wiki/Rwandan_Genocide. مذابح راوندا
35. http://en.wikipedia.org/wiki/Sandy_Berger ساندي بيرغر
36. http://en.wikipedia.org/wiki/Schizophrenia مرض الشيزوفرينيا
37. http://en.wikipedia.org/wiki/Shia_Crescent. الهلال الشيعي
38. http://en.wikipedia.org/wiki/Srebrenica_massacre. مذبحة سربينستا
39. http://en.wikipedia.org/wiki/Tikrit تأريخ تكريت
40. http://en.wikipedia.org/wiki/Tommy_Franks. تومي فرانكس
41. http://en.wikipedia.org/wiki/Turkmen_people. التركمان
42. http://en.wikipedia.org/wiki/Vichy_France. فرنسا الفيشية
43. http://en.wikipedia.org/wiki/Vietnam_War. الحرب الفيتنامية
44. http://en.wikipedia.org/wiki/Wadie_Haddad. وديع حداد
45. http://en.wikipedia.org/wiki/Walter_Mondale. والتر مونديل
46. http://oversight-archive.waxman.house.gov/story.asp?ID = 798 ديك جونز

التقارير

1 - http://abcnews.go.com/Politics/story?id=121656. تصريحات بوش

2 - http://en.wikipedia.org/wiki/American_civil_religion. التدين الإجتماعي الأمريكي

3 - http://en.wikipedia.org/wiki/Classical_conditioning. Clasical Conditionning. بافلوف

4 - http://en.wikipedia.org/wiki/Jerry_Falwell. جيري فارويل

5 - http://en.wikipedia.org/wiki/Karla_Homolka بول برناردو

6 - http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_Christian_denominations عدد المذاهب المسيحية

7 - http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_countries_by_percentage_of_population_living_in_poverty نسبة الفقر في أمريكا

8 - http://en.wikipedia.org/wiki/Religion_in_the_United_States. الأديان في أمريكا

9 - http://en.wikipedia.org/wiki/United_States_Agency_for International_Development. المساعدات الدولية التي تقدمها امريكا

10 - http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/4131602.stm. الاذاعة البريطانية

11 - http://news.bbc.co.uk/nol/shared/spl/hi/programmes/panorama/transcripts/03_11_02.txt. تقرير شبيه صدام

12 - http://rainbowwarrior2005.wordpress.com/2010/03/01/2-5-million-iraqiÙwo-men-were-widowed-by-iraq-war/ الأرامل في العراق

13 - http://www.abc.net.au/am/stories/s800753.htm. تقرير شبيه صدام

14 - http://www.adl.org/combating-hate/domestic-extremism-terrorism/c/joerg-h-aider- هادر

15 - http://www.al-ayyam.info/PrintForm.aspx?NewsID=899ebbf5-7a39-41d5-a6b8-c2fb03d06641. جريدة الأيام

16 - http://www.alhurra.com/content/jfk-kennedy-complicated-relationship-with-women/236368.html#ixzz2wKErXrkY.

17 - http://www.anbaaiq.net/default.aspx. جريد/ة أباء العراق

18 - http://www.beliefnet.com/News/Politics/2004/07/George-W-Bush-On-Faith.aspx. تصريحات بوش

19 - http://www.beliefnet.com/News/Politics/2004/07/George-W-Bush-On-Faith.aspx. خطابات بوش الدينية

20 - http://www.dailymail.co.uk/news/article-1338217/New-tape-recordings-reveal-Richard-Nixons-racist-rants-resigning-Watergate-scandal.html. تسجيلات الرئيس الأمريكي نكسون

21 - http://www.foxnews.com/story/2001/12/20/it-bin-laden-or-is-it/ بن لادن

22 - http://www.iranonline.com/newsroom/Archive/Mossadeq/THE-DECISIONS-ARE- ثورة مصدق

23 - http://www.lookingglassnews.org/viewstory.php?storyid=179. صدام هل مات

24 - http://www.nationmaster.com. معايير للدول التي تعتبر من الدول المتقدمة في تقدير الانسان

25 - http://www.nationmaster.com/country-info/stats/Health/Life-expectancy/Men. معدل الأعمار في العراق

26 - http://www.ri.org/files/uploads/RI_IRQ_EWI_Introduction_3_pages¸7_Dec-1ì.pdf الارامل في العراق

27 - http://www.sbl-site.org/publications/article.aspx?articleId=151. تصريحات بوش

28 - http://www.scotsman.com/news/world/hussein-has-many-body-doubles-scientist-says-1-623019. التقرير الألماني

29 - http://www.slate.com/articles/news_and_politics/politics/2002/04/the_bushes_and_the_jews.html. بوش واليهود

30 - http://www.thetruthseeker.co.uk/?p=829. شبيه صدام

31 - http://www.youtube.com/watch?v=Eaq7EUyzd9o مقالة طارق عزيز

32 - Morbidity and Mortality Weekly Report 55:SS-5́ June 9, 2006. العفة في أمريكا

33 - saddam-hussein-bedfellows.html. مقابلة هايدر النمساوي مع صدام

34 - United Nations Development Programme2010 UN Communications Development Inc., Washington, D.C. z تقرير التنمية البشرية الصادر من الأمم المتحدة.

35 - www.cfr.org/iraq/iraq-oil-food-scandal/p7631. فضائح النفط مقابل الغذاء

36 - www.iipdigital.usembassy.gov. إحصائيات الجرائم في أمريكا

37 - www.veteranstoday.com/author/lindaue. التحيز المطلق وشهادة سوزان ليندوا

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	5
المقدمة	7
بريمر : We got Him....!!	17
سحابة وسر في المقبرة	35
المهمة القذرة	51
خصوصية العراق	61
ألغاز مقاربة	79
معركة الأشباه مع المخابرات العالمية	103
أين هي أمريكا من قصة تغيير النظام العراقي. . ؟	127
سيناريوهات التغيير	137
الموقف الجديد	187
الخيبة الأمريكية	193
من هو صاحب قرار الحرب. . ؟ ولماذا. . . ؟	211
تأريخ وخلفيات	227
محنة المبادىء	275

دوافع المواجهة مع العراق 287
أشباه صدام ولعبة إزالة النظام 301
طبخة الحرب 341
ماذا حدث بعد السّقوط. . .؟ 357
كيف تمّت العملية واحتمالاتها. 371
أسئلة وأجوبة 377
المصادر 393